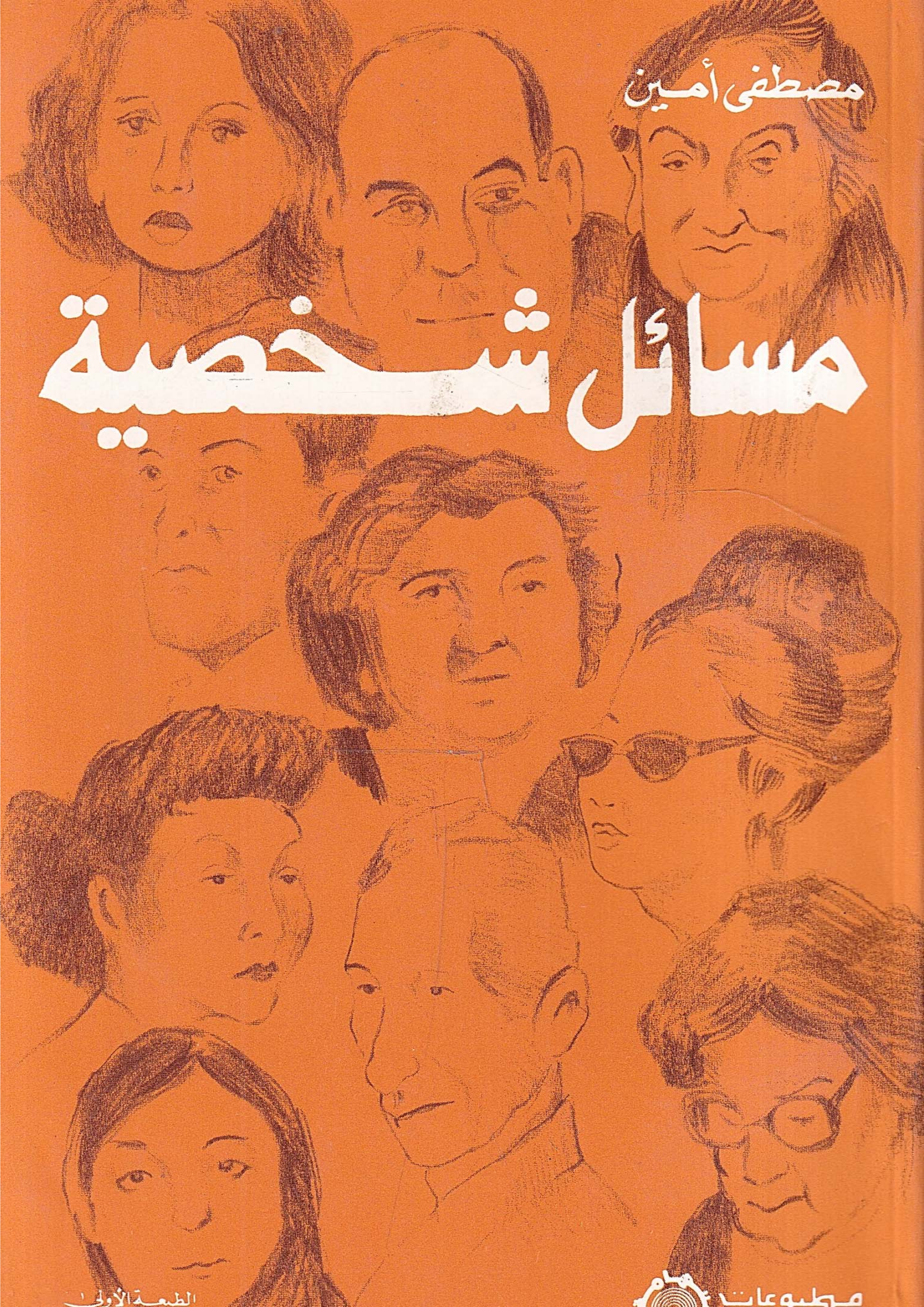
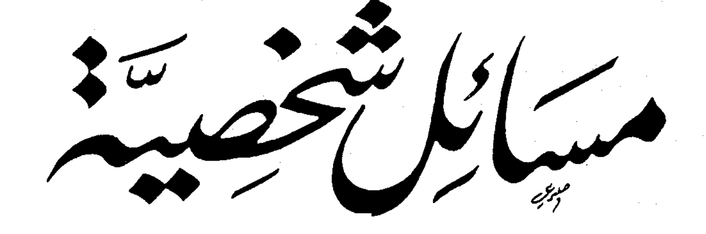

مصطفى أمين
مسائل شخصية
مطبوعات
الطبعة الأولى

مصطفى أمين



الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م
جدة - المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

الناشر

تهامة

جدة - المملكة العربية السعودية
ص.ب ٥٤٥٥ - هاتف ٦٤٤٤٤٤٤

مسائل شخصية



مُقدّمة

ناسٌ .. بلا أقنعة

أجمل ما في الدنيا هم الناس، متعتي الكبرى في هذه الحياة أن أعرف الناس، أن أعرفهم من الخارج والداخل، أن أدرسهم وأحبهم، أحببت الكثيرين ولم أكره أحدا، كنت أعامل الذين يكرهونني كأنهم مرضى وأدعولهم بالشفاء، وكنت أعطي عذرا للطبيعة البشرية، وأعذر الفاشل الذي يحقد على الناجح، وأعذر الضعيف الذي يكره القوي، وأجد مبررا للفئران عندما تمقت السباع!

وعرفت أقزاما كالعمالقة وعمالقة كالأقزام، عرفت أقواما طوالا عراضا من خارجهم، وصغارا متضائلين من داخلهم، عاشرت الملوك والصعاليك، وعرفت صعاليك لهم طباع الملوك وملوكا لهم أخلاق الصعاليك، عشت مع النجوم في سمائها ورأيت حولها الشياطين أكثر من الملائكة، وعاشرت الفاشلين في جحورهم ومغاورهم وحفرهم، ورأيت مواكب النصر تحف بها الطبول والزمور والهتافات والزغاريد، وشهدت مآتم الهزيمة تنهمر منها الدموع وعبارات الندم وأصوات البكاء والعويل.

واكتشفت مع الأيام أن بعض الناس في داخلهم يختلفون كثيرا عما في خارجهم، أثوابهم موشاة بالقصب، مطرزة بالماس والياقوت، وجلودهم محفور عليها الحقد والضغينة والحسد والرغبة في الانتقام، ولكن هؤلاء أقلية مسحوقة وإنما الأغلبية الساحقة من الناس الطيبين، يقفون معك في الشدة، ويسندونك في المحنة، ويعطفون عليك في الأزمة، تنشق الأرض فتجدهم حولك، لا تعرف من أين جاءوا ولا من أرسلهم، لم تعرفهم من قبل ولم تسمع بهم، صغارا في مراكزهم كبارا في صمودهم، لا يحملون سياطا يضربون بها، ولا سيوفا يحاربون بها، ولا مدافع يطلقونها، ولكنهم يحملون قلوبا كالقلاع لا تسقط أبدا، ولهم ألسنة حادة كالسيوف يقطعون بها رؤوس الطغاة والبغاة والمستبدين.

ورأيت في قاع المدينة نبلا وإيمانا وصمودا وشجاعة وجرأة ومروءة لم أر مثلها في

قمة المدينة، صحيح أنني رأيت على القمة أبطالا وعباقرة وعمالقة و وجدتهم أشبه بالجبال الشامخة، وصعدت إلى قممهم لأجد أنهم وصلوا إليها بكدهم وعرقهم وجهدهم وإيمانهم وقد أخذت من هؤلاء بعض أشخاص أتحدث عنهم كما رأيتهم من قرب، بلا مكياج، ولا ألوان ولا أقنعة!

مصطفى أمين



الشخصيات

١ ــ أم المصريين: صفية زغلول.
٢ ــ حامل القنبلة.
٣ ــ دولت فهمي التي لا يعرفها أحد.
٤ ــ روز اليوسف.
٥ ــ زيارة لقلب عبدالحليم حافظ.
٦ ــ الزعيمة الجميلة: درية شفيق.
٧ ــ التابعي.
٨ ــ أم كلثوم الأخرى.
٩ ــ وزير المقالب: حفني محمود.
١٠ ــ صراع بين المطربة والزعيمة: المطربة فاطمة سري والزعيمة هدى شعراوي.
١١ ــ رئيس الوزراء الذي مات من الفرح: حسن صبري.
١٢ ــ الثائرة الصغيرة: منيرة ثابت.
١٣ ــ ريري.. التي فتنت مدينة القاهرة.
١٤ ــ الحب الذي عاش ٥٠ سنة: أمينة السعيد.
١٥ ــ المطربة التي قتلت الصحفي والصحفي الذي دفن المطربة: منيرة المهدية وعبدالمجيد حلمي.
١٦ ــ قلم على وجه فاتن حمامة.
١٧ ــ حاتم الطائى باشا.
١٨ ــ رجل من ألف ليلة: أحمد حسنين.
١٩ ــ علي أمين.. نصفي الثاني.
٢٠ ــ من قتل كامل الشناوي؟
٢١ ــ عبد الوهاب يعترف.



أم المصريين

عرفت أم المصريين صفية زغلول في أول يوم فتحت فيه عيني للحياة، فقد تزوج أبي وأمي في بيت سعد زغلول، الذي عرف فيما بعد باسم «بيت الأمة»، وولدت ــ علي أمين وأنا ــ في هذا البيت، وحملتني صفية زغلول بين يديها، وضربت على ظهري بيدها فصرخت صرختي الأولى، ولازلت أصرخ إلى الآن!

وقد عشت في بيتها سنواتي الأولى حتى أصبح عمري ١٣ عاما، وعرفتها عن كثب وأنا طفل، وأنا ولد، وأنا شاب، وأنا صاحب جريدة «أخبار اليوم».

كنت أناديها «يا ستي» وكنت أنادي سعد زغلول «يا جدي»، فقد ربيا أمي وهي طفلة يتيمة الأبوين في الرابعة من عمرها، فلم تعرف أباً سوى سعد، ولم تعرف أماً سوى صفية زغلول.

وأول صورة أذكرها لصفية زغلول هي صورتها وهي جالسة على يمين سعد زغلول على مائدة الافطار، كان سعد يجلس على رأس المائدة وتجلس صفية على يمينه وأمي على يساره، وأخي علي أمين على يمينها وأنا على يسار أمي، وكان سعد يضع أمام طبقه طبقا صغيرا فيه كمية من الجوز المقشور، ويسمونه في مصر «عين الجمل».. وعندما كنا ندخل عليه وهو جالس على مائدة الطعام نقبّل يده ونقول له: «صباح الخير يا جدي» فيعطي كل واحد منا بعض عين الجمل.. وذات يوم قال لنا: «لا تقولوا لي صباح الخير يا جدي وإنما قولوا الحقيقة.. قولوا صباح الخير يا عين الجمل!» ومكثنا طوال طفولتنا نحييه على مائدة الافطار بجملة «صباح الخير يا عين الجمل»!

وكان الخادم يحمل الطعام أولا إلى سعد، ثم بعد ذلك إلى صفية، ولم يحدث مرة واحدة أن جلست صفية في صدر المائدة حتى في غياب سعد، فيبقى مكانه على المائدة خاليا، حتى وهو منفي في مالطة أو سيشيل أو جبل طارق.. بل حتى بعد أن مات بقي مقعده خاليا على رأس المائدة إلى أن ماتت صفية زغلول بعد وفاة سعد بعشرين

عاما!

وعلى الرغم من أن صفية زغلول كانت ابنة رئيس وزراء مصر الذي حكم مصر ١٣ سنة بلا انقطاع فقد كان سعد يعاملها كما يعامل أي فلاح مصري زوجته.

روت لي صفية زغلول أنها في يوم زفافها استدعتها أمها وقالت لها بعد انتهاء الفرح: سيأخذك زوجك من بيت أبيك في باب اللوق إلى بيت زوجك في غمرة في عربة حانطور، اجلسي صامتة طوال الطريق، عندما تصل العربة أمام بيت العريس سينزل سعد و يقول لك: تفضلي! اجلسي في مكانك ولا تتحركي! سيقول لك للمرة الثانية: تفضلي! اجلسي في مكانك ولا تتحركي! سيقول لك في المرة الثالثة: تفضلي! عندئذ تنزلين من العربة وتدخلين معه إلى البيت!

وقالت لي صفية إنها اتبعت تعليمات أمها، فلما وقفت العربة نزل منها سعد زغلول وقال لها: تفضلي، فلم تنزل، وعندئذ فوجئت صفية بسعد زغلول يتركها و يدير ظهره ويمشي نحو باب البيت.. وعندئذ وجدت نفسي أقفز من العربة وأجرى خلفه ولازلت منذ ذلك اليوم أجري خلفه إلى الآن!

ولم يكن سعد يعد زوجته لكي تكون زعيمة، بل أعدها لتكون زوجة شرقية بمعنى الكلمة، وعندما بنى بيته في شارع سعد زغلول في حي الانشاء بالقادرة بنى «سلاملك» ليستقبل فيه الرجال من باب خاص لهم، بينما تدخل السيدات من باب آخر إلى صالونات خاصة بهن.

وعلى الرغم من أن صفية زغلول كانت تضع البرقع الأ بيض على وجهها، إلا أنها كانت تسافر مع زوجها إلى أوربا كل صيف، وهناك تخلع الحجاب وتمشي سافرة.

وكان الشيخ محمد عبده وقاسم أمين محرر المرأة من أقرب أصدقاء سعد، فكان سعد يدعوهما ليتناولا الغداء أو العشاء في حضور زوجته، وكانت صفية تتحدث أحيانا مع سعد في الكتب الفرنسية التي قرأتها، وكان لها مكتبها الخاص بجوار غرفة نومها.

وكانت صفية زغلول ست بيت ممتازة، تتحرك بنشاط غريب بين طوابق البيت، ومع أنه كان لديها عدد من الخدم إلا أنها لم تكن تتردد أن تمسك بيدها فوطة لتمسح

التراب، أو تحمل في يدها مقشة لتنظف شرفة البيت، وكانت تحدد يوم الأربعاء لما تطلق عليه «يوم التنفيض» أي يوم التنظيف، وفي هذا اليوم يتشقلب كل شيء في البيت رأسا على عقب، لينظف الخدم ما تحت الكراسي والمقاعد والدواليب والسجاجيد.

وكانت تحدث خلافات لطيفة بين سعد وصفية في هذا اليوم، عندماتدخل غرفة نومه وتتعجله أن يرتدي ملابسه و ينزل إلى السلاملك حتى تستطيع أن تنظف الغرفة التي يجلس فيها، وكان سعد يداعبها ويحاول أن يبطىء في الجلاء عن الغرفة وهى تتعجله لأنها تعتبر نظافة البيت هى مسألة حياة أو موت!

ومع ذلك كانت تطيعه في كل يوم من أيام الأسبوع طاعة عمياء، فيما عدا يوم الأربعاء وهو «يوم التنفيض»!

وكان سعد لا يتدخل في شؤون الخدم! وكانت صفية ترفض أن تسمي الخدم خدما بل تصر أن تسميهم «العائلة» وقد تعلمت ذلك من سعد الذي كان يقول دائما إن خدمه هم جزء من عائلته، و يرفض أن يقدم لهم طعاما يخالف طعامه، بل يصر أن يأكلوا من نفس الطعام الذي يأكله.

فإذا جاءت له هدية مانجو مثلا خرجت صفية بنفسها إلى غرفة الأوفيس وهى الغرفة المجاورة لغرفة الطعام، واختارت نصيب السفرجي والطباخ والكمريرة والبواب والعربجي والسايس قبل أن يأكل سعد زغلول من هذه المانجو! فإذا أكل سعد فراخا يجب أن يأكل البواب نفس الفراخ، وكانت هناك رابطة عجيبة بين سعد وصفية ومن يخدمونهما، فلقد مكث مثلا عم آدم بوابا لبيت سعد زغلول لمدة خمسين عاما! ومكث الحاج أحمد عثمان خادم سعد زغلول الخاص في خدمته ستين عاما، ومكث الأسطى أحمد بدران طاهيا في بيت الأمة لمدة خمسة وثلاثين عاما وكانوا يسمونه «أحدث موظف في البيت»!

وكانت صفية تكره النساء المتبرجات، وقد تدهش القارئة أن أم المصريين لم تضع «البودرة» على وجهها إلى آخر يوم في حياتها، حتى انها لم تضع بودرة أو مساحيق يوم زفافها.. ذلك أن سعد زغلول قال يوما إنه يكره البودرة ويحب الوجه

الطبيعي بلا طلاء!

وإذا أرادت أن تصف فتاة بأنها مؤدبة جدا قالت: إنها لا تشرب القهوة ولا تدخن ولا تضع ساقا على ساق!.. ففي ذلك الزمان كان شرب القهوة قاصرا على السيدات المتزوجات!

وحدث في عام ١٩٣٥ أن كنت أقيم مع أمي في أمريكا، حيث كان والدي سفيرا هناك، وذات يوم وصل أمي خطاب والمظروف مجلل بالسواد والعنوان بخط صفية زغلول، وفزعت أمي عندما فتحت صفحاته، واعتقدنا أن أحدا من أقرباء الأسرة قد مات وفزعت أمي وارتعشت مفاصلها، وإذا بصفية زغلول تقول لها إن بنت إحدى شقيقات أم المصريين طلقت من زوجها!

فقد اعتبرت صفية زغلول أن طلاق سيدة في الأسرة هو حادث جلل ومصاب فادح كالوفاة تماما!

وكانت شقيقتها الكبرى «زكية هانم» أشبه بأم لها بعد وفاة أمها وكان اسمها «قصاقيش هانم» وهو اسم تركي.

وحدث عندما نفى الإنجليز سعد زغلول إلى جزيرة مالطة أن ذهب الدكتور محمود صدقي باشا محافظ العاصمة السابق إلى محطة مصر ليودع سعد والإنجليز يحملونه في قطار مسلح إلى السويس في طريقه إلى مالطة، وعاد محمود صدقي باشا من المحطة وقال لزوجته إن سعد زغلول أخطأ لأنه قاد الثورة ضد الإنجليز لأن الشعب المصري لا يستحق الاستقلال، وأيدت زكية هانم زوجها في رأيه ضد الثورة، وإذا بصفية زغلول تقرر مقاطعة أختها الكبرى وترفض أن تتحدث إليها أو تزورها أو تلتقي بها طوال مدة الثورة!

واستمرت هذه المقاطعة سنوات طويلة.

وكانت صفية تقول: إنني أقاطع كل مصري يقف ضد الثورة حتى ولو كانت أختي!

وكانت أحيانا تجلس معنا في غرفتها بالطابق العلوي، وكانت غرفتها إلى جوار

السلم ، وتحتدم المناقشة و يرتفع صوتها ، فإذا سمعت أقدام زوجها تصعد على درجات السلم الرخام توقفت عن الكلام وقالت هامسة : « سعد حضر » ومعنى أن زوجها قد حضر فإنه وحده الذي له حق الكلام في البيت !

كانت هذه هي صورة صفية زغلول قبل ثورة ١٩١٩ ، وقبل قيام الثورة قال لها سعد زغلول : إنني قررت أن أضع رأسي على كفي الأيمن ! قالت له : وضع رأسي على كفك الأيسر !

وقبض الإنجليز على سعد زغلول وفي يوم وليلة تبدلت القطة الوديعة إلى نمرة مفترسة ، السيدة الخجولة أصبحت امرأة جريئة ، بنت رئيس الوزراء صديق الإنجليز أصبحت بنت الشعب عدو الإنجليز، الزوجة المطيعة أصبحت زعيمة ثائرة !

دق جرس التليفون في بيتها وتحدث معها علي شعراوي باشا وكيل الوفد وقال لها إنه سيدعو أعضاء الوفد في بيته للاحتجاج على نفي سعد زغلول ، فصاحت صفية فيه : ولماذا يجتمع الوفد في بيتك ؟ يجب أن يجتمعوا في بيت سعد كما كان يحدث في وجوده والا نكون خضعنا لأمر الإنجليز، يجب أن تجتمعوا هنا في نفس البيت ، ليعرفوا أنهم إذا كانوا أخذوا سعد زغلول منا ، فهو لا يزال معنا في نفس المكتب وفي نفس البيت .

وجاء أعضاء الوفد جميعا إلى بيت سعد زغلول ، واجتمعوا في نفس مكتب سعد ، وقالت صفية زغلول إنها تريد أن تقابلهم فوقفوا جميعا في شرفة السلاملك وفتحت هي باب غرفة الطعام وواربت الباب ووقفت وراءه وحدثتهم بحماس وطالبتهم بالصمود والثبات وإشعال نار الثورة في كل مكان كما اتفق معهم سعد زغلول .

وفي أول يوم لم ير أعضاء الوفد وجه صفية زغلول فقد كانت مختفية وراء الباب كل ماسمعوه هو صوتها ، وكان مليئا بالقوة والحماسة والتحدي مما أشعل في قلوبهم النار!

وفي اليوم التالي فتحت باب غرفة الطعام و واجهت أعضاء الوفد ، ولأول مرة رأوا وجهها ، وكانت غير محجبة ، وتحدثت معهم وقالت لهم : تأكدوا أنكم لستم وحدكم ، كل البلد معكم !

وفي اليوم الثالث خرجت إلى شرفة السلاملك وخطبت في الجماهير ودعتهم أن

يتحدوا الإنجليز، وقالت لهم : إن الإيمان قادر أن يهزم المدافع والرصاص !

وهكذا في ثلاثة أيام تحولت من «حريم» إلى زعيمة ثورة! وأصبحت تكتب المنشورات الحماسية ضد الإنجليز وتوقعها بإمضائها «صفية زغلول».

ولم أسمعها في تلك الأيام تتحدث عن شوقها لزوجها، وإنما كانت تتحدث عن شوقها للثورة، ولم تكن تتلهف على أنباء صحة زوجها المريض، وإنما كانت تتلهف عن «صحة» الثورة! وبدأت المعارك بين الشعب والجيش البريطاني في كل مدينة... وكان أكبر ميدان قتال في الثورة هو شارع سعد زغلول الذي يقع في أوله بيت سعد والذي أطلق عليه الشعب «بيت الأمة»..

وأمام هذا البيت كانت تتجمع الألوف هاتفة بحياة سعد وسقوط الإنجليز فتجيء سيارات الجيش البريطاني المسلحة والجنود الإنجليز يحملون البنادق و يطلقون الرصاص على الثائرين... و يسقط قتلى وجرحى من المصريين ورأيت صفية زغلول وخلفها أمي تنزلان إلى حديقة الدار، والجماهير تحمل القتلى والجرحى إلى حديقة البيت، وصفية تغمض عيون القتلى وتقبّل أيديهم، ثم تتولى تضميد جراح الجرحى...

وفي أول يوم كانت صفية تفعل ذلك وحدها، وبعد ٢٤ ساعة فقط امتلأت حديقة البيت بعشرات السيدات المصريات يقمن بدور الممرضات، ويحملن القتلى والجرحى، وذات يوم سقط شاب قتيلا أمام بيت الأمة، ولفه الشعب الثائر بالعلم المصري، وكان في تلك الأيام أحمر اللون وفي وسطه هلال أبيض ونجمة بيضاء.

وصاح شاب بأنه يعرف الشاب الشهيد وأنه يسكن بجواره في حارة جنينة ناميش بالسيدة زينب.. وحمل الشعب جثة الشهيد في مظاهرة شعبية، وسرت أنا وأخي خلف المظاهرة بغير تفكير في الاستئذان من أمنا، وكنت أتصور حالة أم الشهيد عندما ترى ابنها عائدا إليها وهو جثة هامدة اخترقتها عدة رصاصات..

وعندما وصلنا إلى بيت الشهيد فوجئنا بسيدة واقفة في النافذة تزغرد وعرفنا أنها أم الفقيد، واقشعرت أجسامنا ونحن نرى أماً تزغرد لأن ابنها استشهد من أجل الوطن!

وعدنا إلى بيت الأمة ورو ينا لصفية زغلول ما رأينا فارتدت ملابسها على الفور وصحبتنا معها إلى بيت الشهيد الشاب لندلها على عنوانه، وركبنا عربتها «الحانطور» فلم يكن سعد يملك سيارة في تلك الأ يام، وسارت العربة في أزقة وحواري إلى أن وصلت إلى بيت الشهيد، وأمرتنا صفية زغلول أن ننتظرها في العربة وصعدت بمفردها إلى الغرفة المتواضعة التي تسكن فيها أم الشهيد فوق السطوح، وجلست معها تعزيها وتواسيها وتهنئها على شجاعتها وتؤكد لها أن ابنها لم يمت لأن الشهداء لا يموتون!

وأصبح من أهم أعمالها في سنوات الثورة أن تذهب بنفسها في عربتها الحانطور إلى بيوت الشهداء تواسي الأمهات وتعزي الزوجات وتقبّل الأطفال اليتامى، فإذا كان الشهيد من خارج القاهرة كلفت رئيسة لجنة السيدات في كل مدينة أن تذهب إلى أسرة الشهيد بالنيابة عنها، فإذا حضرت أم الشهيد إلى بيت الأمة لشكرها، أصرت أن تجلس على يمينها في الصالون قبل زوجات البشوات وكانت تقول إن كل أم شهيد هى «أميرة» في دولة الثورة ويجب أن تعامل معاملة الأميرات!

وعاشت صفية زغلول عشرين عاما بعد وفاة سعد في يوم ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧، ودفن سعد في أول الأمر في قبر في حي الامام الشافعي، ومكثت صفية زغلول تقطع يوميا هذه المسافة لمدة تسع سنوات إلى أن قام برلمان منتخب انتخابا حرا، وأصرّ على نقل جثمان سعد من قبره في الامام الشافعي إلى ضريحه أمام بيت الأمة، وأقيمت له جنازة شعبية ثا نية في عام ١٩٣٦ لا تقل روعة ولا ضخامة عن جنازته الأ ولى عام ١٩٢٧.

وكانت غرفة نوم صفية تطل على الضريح، وكانت إذا استيقظت من نومها اتجهت أول ما تفتح عينيها إلى نافذتها التي تطل على الضريح، وتقرأ الفاتحة على روح الرجل الذي أحبته منذ رأته لأ ول مرة ليلة فرحها!

و بعد الظهر ترتدي ملابسها وتذهب إلى القبر وتنثر عليه الزهور والرياحين وتقف خاشعة أمام القبر عشر دقائق وكأنها تناجي رجلها بصوت لا يسمعه إلا هى وهو!

ومكثت ترتدي السواد عشرين عاما، ورفضت أن تخلعه، وقالت إنها ستخلع

السواد يوم يخرج آخر جندي أجنبي من مصر...

ولم تستطع أن تفي بوعدها..

لأنها ماتت قبل الجلاء عن مصر بتسع سنوات!



حامل القنبلة

اتصل بي حارس الأمن الواقف على باب «أخبار اليوم» وقال لي إن رجلا في الأربعين من عمره يحمل كيسا من البلاستيك يصر أن يقابلني، وهو يرفض أن يذكر اسمه أو عمله، و يرفض أن يفتش رجل الأمن الكيس الذي في يده.

وقال رجل الأمن انه يشك أن في الكيس قنبلة!

ودعوته أن يجيء بالرجل لأقابله.

ودخل حامل القنبلة إلى مكتبي، رجل في الأربعين من عمره، له لحية سوداء فيها بضع شعيرات بيضاء، وعلى وجهه نظارة سوداء تخفي عينيه، وكان يحمل كيسا كبيرا من البلاستيك أبيض اللون.

وفتح الرجل الكيس وأخرج خمسة عشر ألف جنيه وأعطاها لي، ورفض أن يذكر اسمه وقال إنه يتبرع بها لليلة القدر!

وسألته: لمن تريد أن تخصص هذا المبلغ؟

قال: انت حر تختار أين تنفقه!

وألححت عليه أن ننشر اسمه، فأصر على الرفض، وقال إنه لا يريد أن يذكر أي شيء عن هذا التبرع في جريدة «أخبار اليوم» و بعد إلحاح قبل أن نطلق عليه اسم «إنسان»..

قلت: أريد أن أعرف عنوانك حتى أرسل لك الإيصال بالمبلغ.

ورفض الرجل المجهول أن يذكر عنوانه، وكل ما عرفته عنه أنه متزوج وله خمسة أولاد، أكبرهم عمره تسع سنوات!

وأعطاني المبلغ بتواضع عجيب وكأنه يعطيني خمسة عشر قرشا!!

وعرضت عليه أن أطلب له فنجانا من القهوة ورفض، كأنه خشى أن يكون فنجان القهوة ثمنا لهذا التبرع العظيم..

وانقطعت أخباره عدة شهور، ثم ظهر فجأة وفي يده كيس بلاستيك أخضر اللون وأخرج من الكيس عشرين ألف جنيه، وقال إنه يتبرع بها لليلة القدر، وأصر نفس الإصرار ألا يذكر اسمه فهولا يريد أن يعرفه أحد ثم يقول إن له عندي رجاء..

وأسرعت أؤكد له أن كل رجاء له هو أمر مجاب.

قال الرجل: لا أريد أن تشيروا في الجريدة إلى هذا التبرع كما فعلتم في المرة الماضية.

قلت: إنني آسف فإن تقاليد ليلة القدر أن ينشر في الجريدة كل مبلغ يصل إلينا..

وهز رأسه آسفا وقال: أنتم تضيعون عليّ الثواب بالإشارة إليّ حتى ولولم تنشروا اسمي.

ومضى مسرعا إلى الباب كأنه ارتكب إثما لا يريد أن يراه أحد!!

ومرت شهور كثيرة وعاد حامل القنبلة إلى مكتبي يحمل كيس البلاستيك المعهود، وفتح الكيس وقدم لي ثلاثين ألف جنيه تبرعا لليلة القدر، وعاد يكرر شروطه بألا ينشر اسمه، ولا يعرف أحد من هو!

ثم مرت الشهور مرة رابعة وأقبل حامل القنبلة من جديد وفتح الكيس البلاستيك، وأخرج هذه المرة مائة ألف دولار، وقال إنه يتبرع بها لليلة القدر، وطلب مني رقم تليفون مكتبي ليستطيع الاتصال بي إذا أراد أن يقابلني في يوم من الأيام، ثم اختفى من الغرفة، وكأنه «الأب نويل» في عيد الميلاد الذي يتوهمه الأطفال بلحيته البيضاء يخرج لهم من النافذة حاملا الألعاب والأمنيات.

و بعد شهور دق التليفون في مكتبي وسمعت صوتا يقول: أنا الإنسان الذي يزورك في مكتبك.

ووجدته صاحبي ولكن أحسست أنه يتأوه وهويتكلم وقال لي بصوت محشرج إنه أصيب فجأة بأزمة معوية شديدة وهو وحيد في بيته يبحث عن طبيب ليسعفه فلا يجد، وانه اضطر أن يتصل بي في الرقم الذي أعطيته له.

وقلت له إنني سأبحث له فورا عن طبيب وطلبت منه اسمه وعنوانه، فتردد في أول الأمر، قلت: كيف يجيء لك الطبيب دون أن يعرف اسمك أو عنوانك.. وذكر لي اسمه وعنوانه ونبه عليّ ألا أخبر الطبيب باسمه لأنه لا يريد أن يعرف أحد أنه المتبرع بهذه المبالغ.

واتصلت بطبيبي الدكتور الأستاذ الرملي الطبيب الباطني المشهور ورجوته أن يترك عيادته فورا لينجد صاحبي المريض، ولم أذكر عن شخصيته شيئا اجابة لطلبه.

وترك الدكتور الرملي عيادته وأسرع إلى بيت المحسن المجهول حيث قام باسعافه.

ولم أعرف كيف أشكر هذا الإنسان العجيب الذي رفض بشدة أن نشيد به أو أن نتحدث عن تبرعاته للمحتاجين في ليلة القدر.

وبينما كنت أتصفح «أخبار اليوم» وجدت مقالا بقلم أحد محرري أخبار اليوم يهاجمه بعنف، ويوجه إليه اتهامات قاسية.

وحققت الأمر فوجدت أن موظفا عنده طرده لعدم أمانته، فدس هذه الأكاذيب على المحرر فنشرها بحسن نية..

واتصلت تليفونيا بمنزل الرجل الذي ظلمناه فلم يجب أحد.

وركبت سيارتي وذهبت إلى بيته وسألت عنه فقال لي البواب إنه غادر البيت هذا الصباح هو وأسرته يحمل حقائبه..

وشعرت بتعاسة لا حد لها، لابد أن الرجل قرأ الهجوم الظالم عليه، في الجريدة التي ائتمنها على أمواله، فغضب من البلد ومن فيها، وحمل أمتعته وهاجر منها.

ومكثت شهورا أحاول معرفة إلى أين سافر وحاولت عبثا أن أعرف مكانه، أو أتتبع أخباره..

وأرسلت إلى مراسلي أخبار اليوم في مختلف أنحاء العالم أطلب إليهم البحث عن رجل بهذا الاسم .. ولكن كل من اتصلت بهم عجزوا عن أن يدلوني على شيء.

ترى هل الاسم الذي ذكره لي ليس اسمه الحقيقي؟ ولكن البواب أكد لي أن هذا الاسم هو اسمه .. ثم أن المقال حدد اسمه وعمله.

وذهبت إلى مكتبه فعلمت أنه صفى أعماله!

وزاد ضيقي وتضاعفت حيرتي، وشعرت أنني خذلت إنسانا وثق بي .. وانني جحدت معروفا، وأسأت إلى رجل غمرني بفضله ..

وكنت أشعر أنني مسؤول عن هذه الإساءة .. لو قلت للمحررين المسؤولين عن اسم هذا المحسن المجهول كلما جاء يحمل لي آلاف الجنيهات لتنبهوا وتحققوا قبل أن ينشروا هذا المقال الظالم ..

ومرت سنوات دون أن أسمع شيئا عن الرجل الذي وثق بنا وخذلناه .. وأقبل علينا وطاردناه .. وأعطانا فحاربناه .. وكان شبح هذا الرجل المجهول يعكر عليَّ الحياة، أذكره فأذكر فضله ثم أذكر الإساءة التي وقعت عليه نتيجة خطأ محرر من محررينا ..

وذات صباح جاءني رجل وقال إنه رسول من عند فلان، وأسرعت إلى الرسول أعانقه وأسأله في لهفة عن أخبار صاحبي.

وقال لي الرسول إن صاحبي مسجون في سجن فى أحد البلاد العربية في تهمة سياسية وإنه استطاع أن يهرب إليه رسالة من الزنزانة ..

وأخرج الرسول من جيبه ورقة قرأت فيها:

اذهب إلى شقتي في القاهرة .. أدخل إلى غرفة النوم .. في الدولاب الأ بيض بجوار الفراش تجد بعض النقود .. خذ كل ما في الدولاب من النقود .. اذهب إلى «أخبار اليوم» واعطها تبرعا مني لليلة القدر بشرط عدم ذكر اسمي لإنسان ..

وفتح الرسول حقيبة سمسونايت وأخرج منها مبلغ أربعة عشر ألفا وسبعمائة

جنيه بين جنيهات مصرية ودولارات أمريكية، ومارك ألماني، وجنيهات سودانية وليرات إيطالية وعملة سورية ولبنانية وأردنية.. و بينها قروش فضية!!

وعجبت لهذا الرجل الذي يذكر في زنزانته الفقراء الذين تساعدهم «ليلة القدر» و يقدم هذا المبلغ الذي ربما يحتاج الآن إلى كل قرش منه، للجريدة التي هاجمته ظلما في يوم من الأيام.

وتمنيت لو أستطيع أن أساعد هذا الرجل في محنته، ثم علمت أن أي كلمة سأقولها عنه ستزيد محنته وتضاعف البطش الذي ينزل به..

وحاولت أن أعرف من الرسول ماذا أستطيع أن أفعل لأساعد هذا الرجل العظيم.

قال الرسول ضاحكا: اشتموه مرة أخرى!!

قلت: معاذ الله!!

قال: إن مقال الهجوم عليه أنقذ رقبته من حبل المشنقة.. لقد كان الدليل الوحيد بأنه لا علاقة له بكم.. فلو كانت له علاقة بكم لما نشرتم هذا المقال!!

وحمدت الله أن الذي أراد أن يسيء إلى هذا الإنسان نفعه من حيث لا يدري ولا يحتسب.. واطمأننت أن الله لن يتخلى عن مثل هذا الرجل الذي يعطي ولا ينتظر جزاء ولا شكورا.. و يساعد الفقراء والمحتاجين وهو يتخفى كأنه يرتكب اثما.. و ينسى الإساءة ويمضي في محنته يفكر في الذين يعيشون في محنة الحاجة والعوز والمرض والشقاء..

سوف يخرج هذا الرجل من سجنه، وسوف يحطم الخير الذي قدّمه قيوده وسلاسله، فالله لا يقبل أن يبقى مثل هذا الرجل في القيود والاغلال!!



دولت فهمي التي لا يعرفها أحد!

كان يجب أن يسمى شارع في القاهرة باسمها، أو حارة، أو زقاق! كان يجب أن تنال وساما في يوم المرأة العالمي، كان يجب أن تصدر الكتب والمؤلفات عنها، وكان يجب أن تكون موضوع فيلم سينمائي أو مسلسلة تليفزيونية تستمر عدة حلقات.

ولكن الدنيا قد نسيتها، والأيام ضعيفة الذاكرة طوت صفحتها، كتب التاريخ أغفلتها.. حتى أهلها رفضوا أن يعترفوا بها!

ولنبدأ القصة من أولها.

كانت ثورة ١٩١٩ قد قامت لطرد الإنجليزمن مصر، وقام فيها جهاز سري مهمته أن يرهب الذين يتعاونون مع الإنجليز، ويمنع الوزراء المصريين من أن يتولوا الحكم في ظل الحماية البريطانية

وألف يوسف وهبي باشا الوزارة، وكلما عرض منصب الوزارة على وزير سابق أو مستوزر هرب منه، بعضهم اعتذر، وبعضهم تمارض، وبعضهم ترك مدينة القاهرة كلها واختبأ في ضيعته في الريف.

ولم يستطع رئيس الوزراء الجديد أن يكمل وزارته، بقيت وزارة الأشغال ووزارة الحربية والبحرية ووزارة الزراعة بلا وزراء.. وعلمت قيادة الجهاز السري أن رئيس الوزراء استطاع أن يضغط على محمد شفيق باشا أن يكون وزيرا للوزارات الثلاث معا.

وقررت قيادة الجهاز السري إلقاء قنبلة على الوزير الجديد تحدث صوتا رهيبا مدويا وترهب الوزير ولا تقتله، بل تجعله يهرول إلى رئيس الوزراء معتذرا عن تولي الوزارات الثلاث في ظل الحماية البريطانية.

وجرت القرعة بين أعضاء الجهاز السري من يتولى تنفيذ المهمة، ووقعت القرعة

على طالب صعيدي اسمه عبدالقادر محمد شحاتة الطالب بالمدرسة الألمانية الثانوية، كان شابا صغيرا ولكنه يمتلىء حماسة و وطنية وفداء.

واستدعاه أحد زعماء الجهاز السري، وسأله: هل أنت مستعد للموت في سبيل مصر في أي وقت؟

وأجاب الشاب على الفور: نعم.

وتكررت التعليمات والتدريبات، ثم جاء رسول يقول له: انتظر تعليمات هامة!

ثم جاء له أحد زعماء الجهاز السري وقال له: إن زميلا لك ألقى قنبلة على اسماعيل سري باشا وزير الأشغال والحربية فاستقال فزعا.. وإذا بنا نفاجأ بمحمد شفيق باشا يوافق أن يكون وزيرا للأشغال والحربية والبحرية والزراعة ولهذا سيكون وزير الأشغال والحربية والزراعة من نصيبك!

قال عبدالقادر: أنا مستعد.

واستأنفوا تدريب عبدالقادر على إلقاء القنبلة.

واستدعاه أحد زعماء الجهاز السري للثورة، وقال: إن القنبلة التي ستلقيها على الوزير الذي قبل أن يعمل في ظل الحماية البريطانية هى قنبلة نتروجلسرين تنفجر في الهواء وتصيب من يلقيها، وأنه حدث قبل اسبوعين أن كلفنا أعضاء الجهاز السري بالقاء قنبلة من هذه القنابل على الوزير اسماعيل سري فأصيب القاتل ونجا الوزير.. فهل أنت مستعد للموت كما مات زميلك؟

قال عبدالقادر: أنا مستعد للموت!

وصدر الأمر لعبدالقادر أن يقف في شارع العباسية بغير سلاح.

وفي الموعد المحدد والمكان المحدد جلس على دكة خشبية في الشارع، وفي الساعة الثامنة والنصف جاءت سيارة فخمة، وتوقفت السيارة أمام عبدالقادر، ونزل سائق يرتدي ملابس السائق الزرقاء ذات الأزرار النحاسية يحمل سبتا مزركشا، ومشى إلى عبدالقادر في ثبات و وضعه على الدكة بجواره وقال: خذ هذا السبت واعطه للباشا

عند مروره.

وفي لحظة البرق اختفت السيارة.

ووقف عبدالقادر ينتظر الموعد المحدد، فلم يصل الموتوسيكل الذي سيعطي الإشارة، ولا معالي الوزير.. وفجأة جاء الموتوسيكل يحمل الإشارة، ثم أقبلت سيارة الوزير تتهادى.. وأسرع عبدالقادر وألقى القنبلة فأحدثت دو يا هائلا وسمع صوتا يصيح: قتلتني يا كلب!

واعتقد عبدالقادر أنه قتل الوزير، وأسرع في طريق النجاة المرسوم في الخطة.. ووصل إلى خرابة فرمى فيها المسدس.. وإذا بالبوليس يتتبعه فقبض عليه وأودع السجن.

وأمام النائب العام جاء محمد شفيق باشا الوزير المجنى عليه وتعرَّف على عبدالقادر شحاتة.

واعترف عبدالقادر أمام توفيق رفعت باشا النائب العام أنه حاول أن يقتل الوزير لأنه قبل المنصب في ظل الحماية البريطانية مخالفا قرار الشعب المصري ألا يتولى الوزارة مصري إلى أن يعترف الإنجليز باستقلال مصر.

وسأله النائب العام عن شركائه.

وأصر عبدالقادر أنه ليس له شركاء.. وأنه هو الذي أصدر قرار قتل الوزير وأنه هو الذي نفذ القرار.

وعبثا حاصره النائب العام بالأسئلة.. والاستجوابات ليعرف أعضاء العصابة وزعيم العصابة والتنظيم السري.

وأرسله النائب العام إلى الزنزانة وانقضّ عليه رجال المخابرات البريطانية في مصر والكونستبلات الإنجليز ينهالون عليه بالأسئلة، و يوجهون إليه التهديد والوعيد، و بدأت عمليات التعذيب، بدأوا بالضرب ثم بدأوا بالتعذيب النفسي وانتهوا بالتعذيب الوحشي.

وكان السؤال الذي يهتمون بمعرفة إجابته أين أمضى عبدالقادر شحاتة الليلة السابقة لارتكاب الجريمة؟

وكان عبدالقادر مستعدا للإجابة على أي سؤال سوى هذا السؤال!

فقد كان يبيت في شقة الدكتور أحمد ماهر مساعد عبدالرحمن فهمي بك.. رئيس الجهاز السري للثورة، فإذا كشف عن اسم أحمد ماهر سقط جهاز الثورة السري كله في يد المخابرات البريطانية.

وصمد عبدالقادر للضغوط والارهاب والتعذيب.

وخشى الجهاز السري خارج السجن عن طريق عيونه داخل السجن أن الطالب عبدالقادر شحاته ربما ينهار تحت التعذيب.

واستطاع الجهاز السري أن يهرب له رسالة داخل الزنزانة تقول له: «اثبت! سيدة اسمها دولت فهمي ناظرة مدرسة الهلال الأحمر للبنات ستتقدم للشهادة وتقول إنك كنت في الأيام السابقة تبيت عندها في بيتها بالحلمية الجديدة».

ودهش عبدالقادر فإنه لم يعرف في حياته أي سيدة اسمها دولت!

ولم يسمع عن سيدة اسمها دولت! ولم يذهب في حياته مرة واحدة إلى حي الحلمية الجديدة.. ولا يعرف طريقه!

ومزق الرسالة السرية إلى قطع صغيرة جدا، ورماها في جردل الماء الموجود في الزنزانة، وبقى يتطلع إلى الورقة الدقيقة المكتوب فيه اسم «دولت فهمي» حتى ذابت في الماء وتلاشت فيه.

وبعد يومين دعى إلى مكتب النائب العام في ميدان باب الخلق.

وعاد النائب العام توفيق رفعت باشا يسأل عبدالقادر من جديد: أين كنت تبيت قبل الحادث وتظاهرت بالامتناع عن الإجابة؟ ثم قلت: إنني أخشى أن أذيع سرا رهيبا إذ ائتمنت عليه وأفضل أن أموت دون أن أنطق به.

والتفت حولي وكلاء النائب العام يلحون عليّ أن أذكر الاسم.

فقلت: أنا رجل صعيدي ولا أستطيع.. فهو اسم سيدة!

فأقسم النائب العام بشرفه وقد تهلل وجهه فرحا أنه لن يبوح لإنسان باسم السيدة المجهولة.

وقال عبدالقادر وهو يتظاهر بالخجل: إنني كنت أبيت عند السيدة ناظرة مدرسة الهلال الأحمر للبنات.

ونسى النائب العام قسمه، وأصدر أمره بالقبض فورا على دولت فهمي، فذهب اللواء رسل باشا حكمدار القاهرة وانجرام بك وكيل الحكمدار وقبضا عليها، وجاءت إلى النيابة مكبلة بالحديد.

ودخلت سيدة جميلة رائعة الجمال، ممشوقة القد، ثابتة الخطوات ترتدي حبرة سوداء، وعلى وجهها برقع أبيض شفاف لا يخفى أنفها الصغير الفتان، ولا أسنانها اللؤلؤية، ولا شفتيها الشديدتي الاحمرار، في عينيها سحر هاروت وماروت، وفي وجهها براءة غريبة وخصلة سوداء من شعرها تخرج من الحبرة السوداء.

وفوجىء عبدالقادر وهو مشدوه بهذا الجمال الفتان، بالسيدة تهجم عليه وقيود الحديد في يدها، وتقبله وتلتصق به وتقول بصوت يرتجف من الحب واللوعة والشوق: يا حبيبي.. يا عبدالقادر.. ياروحي.. يا أعظم رجل في الدنيا.

وظن عبدالقادر أنه يحلم، وفتح فمه ليقول شيئا فلم تخرج كلمة، وسأله النائب العام: هل هي السيدة التي كنت تبيت عندها؟ فتعثرت الكلمات في شفتيه، همهم وغمغم وانتفض وماتت الكلمات فوق شفتيه..

وإذا بدولت تقبّله مرة أخرى وتقول له: اعترف يا حبيبي! لا تحاول أن تحمي سمعتي، إنني أعترف للحكمدار بأنك كنت تبيت في بيتي وإنك عشيقي وحبيبي وسيدي! وها أنا أعيد الاعتراف نفسه أمام سعادة النائب العام، وأطلب منه أن يسجل هذا الاعتراف في التحقيق.

وذهل النائب العام والحكمدار ووكيل الحكمدار، وحاولوا أن يقنعوا السيدة أن هذه الشهادة ليست في مصلحتها، وحاولوا أن يغروها كي تمتنع عن الشهادة وتقرر

عدم معرفة عبدالقادر.

وصمدت دولت للاغراء والتهديد والوعيد وأصرت أنها عشيقة عبدالقادر شحاتة، وأنه كان يبيت عندها وأنه كان يرفض الإجابة على سؤال النائب العام لأنه أراد أن يحمي المرأة التي يحبها!

وقدمت النيابة إلى المحكمة العسكرية البريطانية العليا عبدالقادر شحاتة فحكمت عليه بالإعدام شنقا!

وقال لي عبدالقادر إنه لم يصدم بهذا الحكم، بل رحب به، لأنه يعلم بأنهم يسألون المحكوم عليه قبل تنفيذ الإعدام ماذا يطلب؟

سيطلب أن يرى دولت فهمي! يكفيه أن يراها مرة ثانية ويموت سوف ينتظرها في الجنة، لابد أن يدخل الجنة لأن من مات في سبيل وطنه فهو شهيد، ولابد أن دولت ستدخل الجنة لأنها ضحت بنفسها من أجلٍ أن تنقذ جهاز المجاهدين السري الذين يحاربون من أجل الله والوطن.. فالله هو الحرية!

وارتدى البدلة الحمراء المخصصة للمحكوم عليهم بالإعدام، وفرح بها، وقد أحس أنها بدلة الزفاف إلى دولت فهمي!.. زفاف مع ايقاف التنفيذ.
وبقى ينتظر ٢١ يوما ولا ينفذ حكم الإعدام.

وفي اليوم الثاني والعشرين استدعاه الجنرال واطسون القائد العام للجيوش البريطانية في مصر وقال له إن جلالة ملك بريطانيا استبدل حكم الإعدام بالأشغال الشاقة المؤبدة طول الحياة..

ونقلوه إلى سجن ليمان طره يكسر أحجار الجبل والقيود في يديه، ولم يشعر بالعطش والجوع وعذاب تكسير الأحجار، كان يردد اسم دولت فهمي فلا تخور عزيمته بل تشتد ولا ينهار ساقطا على الأرض بل يرفع قامته، ولا يشكو قسوة السجن بل يشكو قسوة الفراق عن دولت فهمي.

وكان يعود إلى زنزانته عند العصر متعبا ومجهدا فيحفر على حجر الزنزانة اسم دولت فهمي.

ثم يبدأ يرسم صورتها بالطباشير على الباب الحديدي، لتكون صورتها أول وجه يراه عندما يفتح عينيه في الصباح، وتكون صورتها آخر وجه قبل أن يغمض عينيه لينام في الليل.

وضعوه في سجن انفرادي، ولكنه لم يشعر أنه وحده أبدا! كانت دولت فهمي بجانبه تقاسمه فراشه على أسفلت السجن، لا تزال حرارة قبلتها أمام النائب العام على شفتيه، غسل وجهه آلاف المرات ولم تستطع مياه السجن كلها أن تزيل طعم قبلتها برودة السجن لم تؤثر على جسمه، لا يزال جسده يشعر بدفئها عندما التصقت به أمام النائب العام، لا يزال صوتها يغني في أذنه وهي تقول له بصوتها الساحر: يا حبيبي يا عبدالقادر يا روحي!

يا له من عاشق ساذج! لماذا لم يقل لها: يا حبيبتي يا دولت يا أجمل امرأة في الدنيا.. أيها الملاك الذي أرسله الله ليحملني من الجحيم إلى جنات النعيم، كانت يدا دولت مقيدتين بالحديد والتصقت به كأنها تعانقه.. وكانت يداه هو مطلقتين فلماذا لم تتحركا وتضمانها بقوة إلى صدره!

من المسؤول عن هذا الغباء؟ هل هي سذاجته؟ هل هو جبنه؟ لقد تشجع ليلقي قنبلة ولم يتشجع ليضم امرأة؟ هل أحست أنه أحبها وأنه لم يعرف امرأة قبلها ولن يعرف امرأة بعدها؟ هل لا تزال تذكره؟

هل كانت تمثل دورا وطنيا ثم نسته بعد أن نزل الستار و بدأ الجهاز السري للثورة يعد مؤامرة جديدة؟

في كل يوم يتضاعف الحب في قلبه، وعندما يعيش السجين وحيدا في زنزانته تتوالد الأفكار، ولكنها كانت فكرة واحدة التي تملأ خياله.. إن عمره الآن ٢١ سنة ومدة الأشغال الشاقة في السجن ١٥ سنة إذا كان حسن السير والسلوك، وتزيد إلى ٢٥ سنة إذا كان سيىء السلوك، لقد صمم عبدالقادر أن يكون مسجونا نموذجيا لكي يخرج بعد ١٥ سنة سيكون عمره ٣٦ سنة! وسيكون عمر دولت ٣٨ سنة! لا يزالا شابين سيخرج من السجن مباشرة ليتزوجها، لابد أنها تحبه كما يحبها، المثل يقول «من القلب للقلب رسول» لابد أنها تحس بخفقات قلبه التي تدق ٢٤ ساعة كل

يوم، كل دقة تنادي دولت!

وانتصرت الثورة وجرت أول انتخابات حرة في تاريخ مصر لتأليف مجلس النواب وحصل زعيم الثورة سعد زغلول على أغلبية ساحقة تشبه الإجماع.

وكان أول عمل قام به رئيس الوزارة وزعيم الثورة أن أصدر أمرا بالإفراج عن المسجونين السياسيين.

وكان قد مضى على عبدالقادر ٤ سنوات في الزنزانة يحلم بدولت فهمي.

وفي يوم ١١ فبراير سنة ١٩٢٤ دق باب زنزانة عبدالقادر شحاتة في ليمان طره، وسمع صوت سلاسل تتكسر وفتح ضابط الباب وقال له:

ـــ مبروك يا عبدالقادر! سعد زغلول أفرج عنك الآن.. وأرسل لك ملابس مدنية ترتديها بدلا من بدلة السجن..

ورقص عبدالقادر فرحا وهو يخلع بدلة السجن الزرقاء، وتولى أحد الجنود كسر الحديد الذي في قدميه، وانطلق يعدو إلى باب السجن، واستوقفه زملاؤه المسجونون السياسيون يقولون له: إلى أين أنت ذاهب؟

قال عبدالقادر: ذاهب إلى دولت؟

سألوه: تقصد دولة سعد باشا؟

قال في غضب: لا دولت فهمي!

سألوه في دهشة: من هى دولت فهمي؟

قال عبدالقادر: مراتي.

والتفوا حوله يحاولون إقناعه بأن يذهب أولا معهم إلى بيت سعد زغلول ليشكروه على العفو عنه، وتردد ثم قبل بعد أن تذكر أن سعد زغلول قرّب لقاءه بدولت ١١ سنة فاختصر السجن من ١٥ سنة أو ٢٥ سنة إلى أربع سنوات.. وذهب مع المسجونين السياسيين المفرج عنهم من ليمان طره إلى بيت الأمة وقابلهم سعد زغلول وعانقهم

وقبلهم وهو يقول:

وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما
يظنـــان كل الظـــن ألا تلاقيا

وجلس سعد يباسطهم ويحادثهم و يسألهم عن أيامهم في السجون وعن أحوالهم، وعبدالقادر شحاتة يتململ في مقعده، و يريد أن تنتهي المقابلة التاريخية ليجري باحثا عن دولت فهمي!

وخرج من بيت الأمة وذهب فورا إلى مدرسة الهلال الأحمر للبنات ليقابل الناظرة دولت فهمي، ووجد باب المدرسة مغلقا فلم يرد أحد، وسأل الجيران فقالوا له إن المدرسة تغلق أبوابها في الساعة الرابعة بعد الظهر، وتفتح أبوابها في الساعة السادسة صباحا.

وقرر عبدالقادر أن يبيت في الشارع أمام باب المدرسة حتى الصباح، وفي الساعة السادسة حضر فراش المدرسة ليفتح الباب، واستوقفه عبدالقادر وسأله عن الناظرة دولت فهمي فقال إنه لا يعرفها فهو فراش جديد، وانتظر الناظرة الجديدة حتى حضرت وقالت له إنها لا تعرف شيئا عن دولت فهمي التي تركت عملها منذ أربع سنوات، وتوسل عبدالقادر للناظرة أن تطلعه على ملف خدمة دولت فهمي فلم يجد فيه ورقة واحدة.

ونسى عبدالقادر أن يذهب إلى أمه وأبيه في ديروط، وعرف أن دولت من أهالي قرية صغيرة في مديرية المنيا، ركب القطار ثم ركب عربة ثم ركب جملا حتى وصل إلى القرية، ذهب إلى شيخ البلد فأنكر أنه يعرف امرأة باسم دولت فهمي، ذهب إلى العمدة فأقسم أنها أول مرة يسمع باسم دولت فهمي، ذهب إلي بيت أخيها فقال له إنه لم تكن له أخت أبدا اسمها دولت فهمي، لا أخت شقيقة ولا غير شقيقة!

كاد عبدالقادر يجن، طاف البيوت بيتا بيتا، سأل البقال اليوناني، سأل مأذون القرية، سأل الداية، كلهم لم يسمعوا باسم دولت فهمي.

عاد إلى القاهرة وسأل عنها زعماء الجهاز السري للثورة فطلبوا منه ألا يسأل عنها،

وازداد فضول عبدالقادر وأصر أن يعرف ما حدث! لقد كانت تعيش كل هذه السنوات في زنزانته، كانت تجالسه، كانت تتناول الطعام معه، كان صوتها يملأ الزنزانة فلما خرج إلى الحرية لم يجدها..

وأخيرا علم أن كاتب التحقيق في النيابة كان من نفس القرية، وأنه ذهب إلى أهلها في المنيا وأبلغهم باعتراف شقيقتهم دولت فهمي بأنها كانت عشيقة للطالب عبدالقادر شحاتة، وأنه كان يبيت كل ليلة في بيتها.

ولم يصدق أشقاء دولت هذه الفضيحة، كانوا يعتقدون أنها قديسة فكيف يصدقون أنها أصبحت فجأة عاهرة؟!

وسافر وفد من القرية إلى القاهرة وذهبوا إلى النيابة العامة في باب الخلق وأطلعهم ابن بلدهم كاتب التحقيق على أوراق التحقيق واعترافات دولت فهمي وإمضائها على أوراق التحقيق.

وصاح الأشقاء في صوت واحد:

ـــ هذا بالضبط امضاؤها!

وخرجوا من النيابة العامة إلى مدرسة الهلال الأحمر وقابلوها مرحبين باشين ثم طلبوا منها أن تصحبهم إلى المنيا ليعزوا في خالتهم التي داسها قطار سكة حديد، وخاصة أن اليوم التالي كان يوم جمعة والمدرسة في اجازة ورحبت دولت فهمي بالفكرة وسافرت معهم في قطار الصعيد الذي يتحرك في الليل من محطة القاهرة وعندما وصل القطار إلى محطة المنيا ركبوا عربة إلى القرية، ثم اقترحوا على دولت أن يذهبوا مباشرة إلى قبر خالتهم ليقرأوا الفاتحة..

ووقف أفراد الأسرة بخشوع أمام القبر، دولت أمامهم وهم يقفون خلفها، وفجأة انقضوا عليها بالخناجر والسكاكين وذبحوها..

وعادوا إلى بيوتهم سعداء وقد شعروا أنهم غسلوا عارهم.. ولم يتصوروا أنهم قتلوا قديسة!

وعاش عبدالقادر شحاتة طوال عمره يبحث عن قبر دولت فهمي فلم يجد لها قبرا !

من الذي قال إن الأ بطال لا يموتون ؟

إنهم يذبحون فقط !!





روز اليوسف

كنت في العاشرة من عمري عندما ذهبت مع أبي إلى مسرح رمسيس في القاهرة نشهد مسرحية «غادة الكاميليا»، وكان يوسف وهبي يمثل دور العاشق الشاب الجميل الذي وقع في هوى امرأة لعوب، سحرته بجمالها، وفتنته باغرائها، وأسرته بانوثتها، وإذا بالغانية المستهترة العابثة تهجر عشاقها الأثرياء، وحياة البذخ والترف، وصداقة الأمراء والنبلاء من أجل هذا الشاب الصغير وكانت السيدة روز اليوسف الممثلة الأولى في الفرقة تمثل دور «مارجريت جوتيه» المرأة اللعوب التي ضحت بالمال والثراء والبذخ والهدايا من ماس وزمرد من أجل هذا الشاب الصغير، ثم ضحت بالشاب الصغير من أجل مستقبله وسمعة أسرته..

وكانت روز اليوسف في تلك الأيام في الأربعين من عمرها، ولكنها فوق المسرح كانت شابة في ريعان الشباب.. وكانت قصيرة القامة ولكنها تبدو فوق المسرح طويلة، وكان صوتها ناعما رقيقا، ولكن كان في داخلها شخصية قوية جبارة، وكانت لها عينان ساحرتان دافئتان تجذبان وتأسران كأنهما مغناطيس، وكان شعرها طويلا أشقر اللون حتى يكاد يلمس قدميها..

وكانت على المسرح تمثل الحب وكأنها عاشت طول حياتها لا تعرف إلا العشق والغرام، وتمثل دور المريضة بالسل فتحسبها مريضة بالسل فعلا، وتشهد ميكروبات السل وهي تأكلها وتفتك بهذا الجسم المليء بالسحر والإغراء!

يومها بكيت كما لم أبك طول طفولتي، كنت أراها على المسرح تموت أمامي فأشعر أنني أريد أن أقفز من مقعدي في صالة المسرح لأنقذ حياتها، ولأعطيها دمي لأرد إليها بعض شبابها الذي أفناه المرض الملعون، ولأحميها من الموت الذي انقض عليها بعد أن ضحت بالحب الذي كان يحميها.

وأسدلت الستارة على الفصل الأخير ثم ارتفعت عشر مرات، والجمهور يلهب

كفيه من التصفيق المتواصل والأصوات ترتفع تهتف بحياة يوسف وهبي وروز اليوسف.. وقامت روز اليوسف من فراش الموت، ومشت متثاقلة كأنها نصف ميتة ونصف حية ووصلت إلى مقدمة المسرح وأحنت رأسها شكرا للجماهير المسحورة بتمثيلها، واختلط صوت المكان بصوت العويل والبكاء.

وأضيئت أنوار الصالة فإذا كل العيون دامعة، وكل الأنوف حمراء، وكل الشفاه ملتاعة، فقد استطاعت هذه الممثلة الرائعة أن تقيم في قلب كل متفرج مأتما يبكيها و يبكي الحب والتضحية في سبيل الحب!

وكانت هذه أول معرفتي بالسيدة روز اليوسف، كبيرة ممثلات الشرق في تلك الأيام، تمثل دور الغانية ودور القديسة، وتراها في رواية امرأة عجوز وفي رواية أخرى طفلة صغيرة، تبكيك وتضحكك، وتغضب فتغضب معها، وتسعد فتسعد بها وتسقط دموعها على خدك.. وتحس بزفراتها كأنها تنطلق من قلبك.. وتفرض الصمت والسكون والهدوء على المتفرجين الصاخبين فيدوي صوتها الخافت كأنه الرعد!!

كانت قادرة أن تبتلع كل ممثلة تقف أمامها على المسرح، فلا يبقى على المسرح سواها!

وبعد سنة واحدة فوجئت بنبأ استقالة السيدة روز اليوسف من مسرح رمسيس وأنها قررت أن تشتغل بالصحافة وأغرق الناس في الضحك.. فلم يحدث من قبل أن عملت ممثلة صحفية، وكانت الجماهير تسمى الممثل «بلياتشو» فلم تقبل أن يعمل بلياتشو في المهنة التي عمل فيها سعد زغلول ومصطفى كامل والشيخ محمد عبده والشيخ علي يوسف وبشارة تقلا والدكتور فارس نمر والدكتور يعقوب صروف واسكندر مكاريوس وعبدالقادر حمزة وأحمد حافظ عوض وغيرهم من الكبراء والعظماء!

وزاد الطين بلة أن الممثلة روز اليوسف قررت اصدار مجلة، وضاعف من ذهول الناس أنها قررت تسمية المجلة «روز اليوسف»!!

وكان للممثلة روز اليوسف بلاط من الأدباء المعجبين الشبان، يجتمعون في بيتها كما كان يحدث في صالونات كبيرات الممثلات في باريس، وكان هذا الصالون في

شقة صغيرة في شارع جلال المتفرع من شارع عماد الدين، في عمارة يملكها أحمد شوقي بك أمير الشعراء، وكان بين هؤلاء المعجبين عباس محمود العقاد وابراهيم عبدالقادر المازني وابراهيم رمزي ومحمد لطفي جمعة والشاب محمد صلاح الدين الذي أصبح فيما بعد وزيرا للخارجية، وكان يتردد على الصالون نقاد المسرح الكبار مثل محمد التابعي الناقد المسرحي لجريدة «الأهرام» وعبدالمجيد حلمي الناقد المسرحي لجريدة «كوكب الشرق» ومحمد علي حماد الناقد المسرحي لجريدة «البلاغ» ومحمود عزي، وهو غير محمود عزمي الصحفي المشهور.

وعرضت السيدة «روزا» على المترددين على الصالون فكرة إصدار مجلة فتحمس البعض وعارض البعض، وقال العقاد إنه مستعد أن يكتب في المجلة الجديدة مجانا، وقال ابراهيم عبدالقادر المازني إنه يعارض في أن تسمى المجلة «روز اليوسف» !!

ولكن روز اليوسف أصرت على أن تطلق اسمها على المجلة لأن يوسف وهبي أراد أن يجعل الناس تنساها، وهي تريد أن يصبح اسمها على كل لسان في الشوارع و باعة الصحف يهتفون «روز اليوسف.. روز اليوسف» فكأنهم يقولون ليوسف وهبي.. إن روز اليوسف لا تزال هنا!

والغريب أن الفكرة الأولى في إصدار المجلة أن تهاجم يوسف وهبي الذي رفض أن يعطيها دور فتاة عمرها ١٨ سنة في رواية الذبائح وأعطى الدور لممثلة ناشئة في تلك الأيام اسمها الآنسة أمينة رزق..

وكان رئيس التحرير الحقيقي في العدد الأول هو محمود عزي، وكان من أشد المعجبين بتمثيل روز اليوسف، وترجم عن الفرنسية عدة مسرحيات ناجحة، وكان من رأيه أن تكون المجلة أدبية ثقافية وفيها صفحة واحدة للمسرح تشتم فيها يوسف وهبي وتهزأ من مسرح رمسيس..

وفكرت روز اليوسف أن تسند هذه الصفحة إلى محمد التابعي الناقد المسرحي لجريدة الأهرام، والموظف الصغير بمجلس النواب.

وكان رأس مال المجلة هو خمسة جنيهات فقط، وهو كل ما اقتصدته روز اليوسف من عملها كالممثلة الأولى في مصر لعدة سنوات، وحرصت في عددها الأول

أن تكون مجلة الأدب العالي والفن الرفيع، وكان فيها روضة للشعر فيها قصائد للشاعر أحمد رامي وصفحة من الأ زجال اسمها «أبو زعيزع» ينظمها علي شوقي ابن أمير الشعراء بالاشتراك مع الممثل عبدالوارث عسر!!

ولكن هذا الأدب الرفيع صدم القراء، فلم تبع من عددها لأ ول سوى بضع مئات، واجتمع أصدقاؤها حولها ينصحونها بقفل المجلة، وكفى الله المؤمنين القتال ولكن السيدة روز اليوسف عاندت وصمدت، لم تيأس من الخسارة الفادحة التي حلت بها و باسمها، بل قررت أن تتحدى الفشل، ودارت على المعجبين بها في المصالح والوزارات تبيع بنفسها الاشتراكات..

وكانت قيمة الاشتراك خمسين قرشا فقط، وجمعت عددا من الاشتراكات وطبعت العدد الثاني فلم يشتره أحد والثالث والرابع والخامس والسادس، كل أسبوع ينقص توزيع المجلة حتى خيل إليها أنها هى وحدها التي تقرأ روز اليوسف، ومع ذلك لم تيأس ورفضت الهزيمة.

واختارت محمد التابعي رئيسا للتحرير ابتداء من الأسبوع الثامن عشر، وابتدأ عمله بالاستغناء عن كبار الكتاب والشعراء والفلاسفة، وكان يسميهم التابعي «الأ بسنيون العقاديون اللطفيون الجمعيون» نسبة إلى الكاتب ابسن وإلى العقاد ولطفي جمعة!! وجعل ثمن المجلة خمسة مليمات بدلا من قرش صاغ، وظهرت المجلة بغلاف ملون وكتب التابعي المجلة من الغلاف للغلاف ما عدا القصة، وارتفع توزيع المجلة إلى ٢٦٠٠ نسخة.. وكانت هذه أول مرة يرتفع توزيع المجلة منذ صدورها!!

وكان الأستاذ زكي طليمات متزوجا من السيدة روز اليوسف في تلك الأ يام، وكان في بعثة في باريس، فأرسل إليها خطابا عنيفا يهاجمها لانحطاط مستوى المجلة! ولكن زوجته لم تهتم بهذه الاعتراضات وفضلت أن تبقى المجلة حية بالتابعي على أن تموت وفيها كل كبار الكتاب والشعراء ومقالات عن بتهوفن وشكسبير وموزار!! وكانت وجهة نظر التابعي أن من يشتري مجلة اسمها روز اليوسف انما ينتظر شيئا ظريفا طريفا خفيف الروح، لا الأدب الدسم الذي يجب أن ينشر في مجلة اسمها الثقافة والأدب أو الأدب العالي أو شكسبير!!

ومضت روز اليوسف تتحدى العقبات وتعبر الأزمات، و يزيد كل أسبوع توزيعها، وقررت أن تطلب رخصة مجلة سياسية فعارض التابعي لأنه لا يعرف أن يكتب في السياسة، وأصرت روز اليوسف وجاءت بحبيب جاماتي يكتب أسبوعيا صفحتين في السياسة، وذات يوم مرض جاماتي، وطلبت روزا من محرر في جريدة البلاغ من أصدقائها أن يكتب الصفحتين فكتبهما ونشرتهما، وفوجئت بعد أيام بجريدة السياسة الأسبوعية، وكانت أشهر مجلة في الشرق الأوسط في ذلك الوقت— تكتب أن فضيحة صحفية خطيرة حدثت وهى أن مجلة روز اليوسف نقلت مقال مجلة السياسة الأسبوعية حرفيا ونشرته في صفحاتها الأولى، وأسقط في يد روز اليوسف، وتوسلت إلى التابعي أن ينقذها من هذه الورطة، ورفض التابعي ثم تمنع وأخيرا قبل أن يكتب الباب السياسي تحت ضغطها والحاحها المتواصل، وهكذا أصبح التابعي كاتبا سياسيا.

كان من أبرز ما في روز اليوسف طموحها، وأنها لا تؤمن بالممكن وإنما تحلم بالمستحيل، ولم يكن يكفيها أن مجلتها أصبحت في مقدمة المجلات الفنية في مصر، بل أرادت أن تكون أولى المجلات السياسية فيها، وكانت هى والتابعي يؤلفان فريقا مؤتلفا هى تحلم وهو يكتب، هى تقتصد وهو ينفق هى تجمع الأصدقاء وهو يحارب و يقاتل وأصبحت مجلة روز اليوسف مجلة وفدية متطرفة وضمت إلى هيئة التحرير طالبا في كلية الطب تخصص في كتابة المقالات السياسية العنيفة وكان يكتب افتتاحية العدد، ونظم المواويل السياسية الساخرة التي تهزأ من العظماء وتسخر من الكبراء وتخرج لسانها لأصحاب المعالي الوزراء!!

ولكن روز اليوسف مع كل هذا لم تصل إلى صدارة المجلات السياسية، وفجأة تولى محمد محمود باشا الحكم و بدأ عهده بمصادرة روز اليوسف، ودوى النبأ كالرعد في مصر، فقد كانت أول مجلة تصادر في عهد الدستور، وكتبت الصحف عن المصادرة وخطب النحاس باشا رئيس الوفد محتجا على مصادرة روز اليوسف، وأطلق كتاب الحكومة على الوفد اسم «حزب روز اليوسف» وخطب النحاس وقال: «نعم نحن حزب روز اليوسف».

وكانت المصادرة نعمة و بركة على المجلة فتضاعف توزيعها، وزاد انتشارها،

وأصبحت لأ ول مرة المجلة الأ ولى في مصر، وصمدت روز اليوسف للتهديد والوعيد والتعطيل والمصادرة والتنكيل، وفي كل يوم تقوى روز اليوسف وتضعف الصحف والمجلات التي اختارت السلامة، ولا تخرج من معركة إلا لتدخل معركة، ولا تنجو من أزمة إلا وتقع في أزمة أشد وأخطر.

وكانت امرأة ضعيفة في أيام النعمة، وامرأة قوية جبارة شرسة في أيام النقمة كانت كالوردة البيضاء في أوقات الرخاء، وكالخنجر المسموم في أوقات الشدة، متعتها أن تحارب ولا تستلم، أن تندفع ولا تتراجع، أن تنضرب ولا تجري، وكانت شجاعتها النادرة تثير الحماس في كل من حولها، فيقف القاعد، و يتحرك الساكن، و ينطق الأخرس، و يقدم المتردد، و يطمئن الخائف، و يتشجع الجبان.

وأغرب ما في قصة هذه المعجزة، أنها وهى صاحبة أكبر مجلة سياسية في البلاد العربية لم تكن تعرف كيف تكتب، كانت توقع امضاءها بصعوبة، وكان خطها أشبه بخط طفل صغير ملىء بالأخطاء ومع ذلك فقد كانت قارئة ممتازة، وذواقة رائعة، تقرأ المقال فتعرف على الفور إذا كان يستحق أن ينشر في الصفحة الأ ولى، أو يلقى به في سلة المهملات، تقرأ الخبر فتفرق بين الماس الصحفي والزجاج الصحفي، هوايتها اكتشاف المواهب الشابة، ودفعها إلى الأمام، قادرة أن تحول اليأس إلى أمل، والكسل إلى عمل، والخمول إلى انطلاق!

ولم تكتف السيدة روز اليوسف بنجاحها الصحفي، بل عاشت تتمنى عودتها إلى أضواء المسرح، وقاومت أصدقاءها ومحرريها الذين عارضوا أن تظهر على المسرح تمثل أدوار الحب والغرام بعد أن أصبحت صاحبة أكبر مجلة سياسية في مصر، ولكنها بعنادها وإصرارها تحدت الجميع وظهرت ليلتين متواليتين على مسرح الأ زبكية في دور مارجريت جوتيه العاشقة في مسرحية «غادة الكاميليا»، وذلك لصالح المنكوبين في حريق هائل في قرية محلة زياد، ونجحت الصحفية في دور الممثلة، كما نجحت الممثلة في دور الصحفية، ثم فكرت في أن تمثل فيلما في السينما في أول دخول الأفلام الناطقة إلى مصر، وأجرت تجربة سينمائية لم تعجبها لأنها بدت عجوزا، وكانت تريد وهى في الخمسين أن تمثل دور فتاة صغيرة!

وفجأة قررت أن تصدر جريدة يومية، وكانت هذه مغامرتها الكبرى، وعبثا حاول أصدقاؤها اقناعها بأن إصدار جريدة يومية عمل هائل لا يستطيع أن يقوم به فرد، وأصدرت جريدة روز اليوسف اليومية ونجحت نجاحا رائعا وهددت جريدة الأهرام القديمة وجريدة الجهاد الواسعة الانتشار.. وأصبح الدكتور محمود عزمي رئيس تحريرها وعباس محمود العقاد كاتبها الأول، وقام خلاف بينها و بين الوفد، وحاول النحاس باشا أن يقنعها بأن تلتزم بسياسة الوفد، فعاندت ورفضت أن تنزل عن حريتها في نقد الحكومة، واجتمع الوفد وقرر التبرؤ من جريدة روز اليوسف وأصدر أمرا إلى لجانه بمقاطعتها، وجاءت المظاهرات الحاشدة إلى دار الجريدة تهتف بسقوطها، فخرجت إليهم وحدها واندفعت تهتف بسقوط النحاس.

وتلقت اللعنات والشتائم فصمدت لها وأبت أن تتراجع أو تخضع أو تركع أمام غضب الجماهير..

وهوى توزيع جريدة روز اليوسف نتيجة المقاطعة والحرب التي أعلنها الوفد عليها، فلم تتراجع، وانهالت عليها الديون، واضطرت أن تبيع أثاث بيتها بل بعض فساتينها، وعندما انقض عليها أصحاب الديون وتركها الكتاب وكبار الصحفيين اضطرت إلى اغلاق جريدتها اليومية، و بقيت تصدر مجلتها الأسبوعية، وتقاوم وتهاجم، وتعارض وتنتقد، وتتحمل الضربات، حتى استطاعت أن تعيد مجلتها روز اليوسف إلى مقدمة المجلات في البلاد العربية.

هذه قصة امرأة كانت لها شجاعة ألف رجل.. وقد بدأت حياتي الصحفية معها، وشهدت معاركها مع الحكومات، وصراعها مع الدول.. ومقاومتها للطغاة والمستبدين، وتحديها للظالمين المتجبرين.

كانت دائما قلعة للحرية لم تقع في يد الغزاة والفاتحين!!





زيارة لقلب عبد الحليم حافظ

كان عدد من الصحفيين والكتاب والفنانين يسهرون في كازينو بديعة، وهو فندق شيرتون الآن، وكنا في صيف عام ١٩٥٣، وأقبل المطرب عبدالغني السيد، وكان يومئذ مطربا مشهورا، معروفا بخفة الدم، محبوبا من الصحفيين وإذا به يصيح بصوت عال يدوي في هدوء الساعة الثانية صباحا:

ــ سأتوقف عن الغناء نهائيا!

وذهل الجالسون لهذا التصريح العجيب وسألوه: ماذا حدث؟

قال المطرب عبدالغني السيد: لكل زمان رجال، إنني قادم الآن من سهرة أقامتها الشؤون العامة للقوات المسلحة، دعي فيها جميع مطربي مصر للغناء، ووقف مغن جديد اسمه عبدالحليم حافظ وغنى أغنية «على قد الشوق» وبعد دقائق كان الجمهور يردد معه على قد الشوق، سيطر على الناس فجأة وملك أسماعهم، وغنينا بعده فلم يحس بنا أحد، وعرفنا أننا انتهينا... وبدأ!

ومن هذا اليوم لم تقم قائمة للمطرب الظريف عبدالغني السيد وبدأ عبدالحليم حافظ يكبر كل يوم!

ودخل مكتبي في أخبار اليوم، شاب صغير دقيق متواضع وقال: «أنا عبدالحليم حافظ» كان حجمه الصغير يخفي حقيقة عمره فتصورت أنه في الخامسة عشرة من عمره، وقال لي: «جئت إليك أطلب مشورتك، ماذا أفعل لأنجح؟» قلت له: لا تقلد أحدا.. كن عبدالحليم حافظ فقط، كل من قلدوا عبدالوهاب ماتوا، كانوا يقلدونه في كل شيء في عوجة طربوشه، في صوته، في ملابسه، حتى في السوالف التي كان يتركها من شعره فوق خديه، وماتوا جميعا وعاش عبدالوهاب.

وتصورت أنني قدمت لعبدالحليم أعظم نصيحة وإذا بي اكتشف أنني قدمت له

مصيبة، تعاقد مع المتعهد صديق أحمد على أن يغني ٣٠ ليلة في المسرح القومي بالاسكندرية، وقف يغني «يا حلو يا أسمر» و«صافيني مرة» وهي من أغاني كمال الطو يل، وإذا بالجمهوريصيح طالبا منه أن يغني أغاني محمد عبدالوهاب وأصر أن يغني أغانيه هو، وقاطعه الجمهور، وضر به بالبيض والطماطم وصعدوا إلى المسرح وأنزلوه منه وسط هتاف الجماهير «انزل! انزل».

ونزل وهو يبكي وركب سيارة صديقه مجدي العمروسي المحامي الذي انطلق به إلى ضواحي الاسكندرية البعيدة وهو يبكي و ينتحب معتقدا أن الجمهور حكم عليه بالإعدام!

ولكنه لم ييأس، واستمريقاوم ويحاول و يشقى و يصر ألا يغني سوى أغانيه!

وعندما التقيت بعبد الحليم أول مرة سألته من هو المطرب الذي يتمنى أن يكون مثله؟ فقال لي إنه المطرب عبدالعزيز محمود، ولم يذكر لي عبدالوهاب يومئذ، وكان يردد بعض أغانيه عندما كان وحده، ولم يحدث أبدا أن غنى أغاني عبدالوهاب في وجود غرباء.

استوقفني في عبدالحليم أنه مملوء بالإحساس، و يغني على قدر صوته وفي هدوء هذا الصوت وكان في صوته الضعيف كل الشجن والألم والحزن الذي يملأ قلبه، عندما غنى في مكتبي لم يكن يغني للناس وإنما يغني لنفسه، لم يكن يقصد أن يطرب الجالسين بل كان يتألم بصوت مسموع.

ولاحظت بعد ذلك أنه قلد أم كلثوم في أعظم ما فيها، كان لا يغني أي لحن إلا بعد أن يسأل أصدقاءه و يستشير من يثق بهم، وكان يعدل و يبدل في الكلمات أذكر أنه دفع ٢٥٠٠ جنيه فاتورة تليفونات محادثات خارجية مع الشاعر نزار قباني، يتابعه من الكو يت إلى بيروت إلى باريس ليعدل كلمتين أو ثلاث كلمات في أغنية قارئة الفنجان.

وحرص عبدالحليم عند ظهوره أن يختار كلمات أغانيه فعندما ظهر كان الموسيقار عبدالوهاب يغني أغنية «تراعيني قيراط أراعيك قيراطين» وكان عبدالعزيز محمود أكثر المطربين شعبية يغني «يا شبشب الهنا.. ياريتني كنت أنا» وجاء عبدالحليم

يغني كلمات لها معنى ومغزى وعاطفة حارة!

وحرص عبدالحليم أن يكسر تقاليد غناء الرجال، فكان أول مطرب رجل يقف على المسرح و يغني وكان الذين سبقوه يجلسون على كرسي و يضعون عودا فوق أقدامهم، حتى ولو كانوا لا يعرفون العزف على العود، كذلك كان يغني قبله فريد الأطرش ومحمد عبدالمطلب وعبدالعزيز محمود وكارم محمود ومحمد فوزي، و بعده بدأ المطربون القاعدون يقفون حتى فريد الأطرش الذي كان أحسن عواد في مصر.

ثم قلب عبدالحليم المسرح الغنائي من مسرح مسموع إلى مسرح مرئي ومسموع صوت وصورة في وقت واحد، فكان يغني و يتحرك، يعزف على الرق ثم يمسك الناي يصفق بيديه و يصفر بفمه، يضحك، يخلع الجاكته، يخلع الكرافتة، يجلس على خشبة المسرح ويحمل طفلة جميلة من الصالة و يأخذها معه إلى المسرح و يغني لها.

وكان الموسيقار عبدالوهاب يقول: الواد ده ناقص عليه يجيب ساندوتش و يأكله على المسرح!

الحب الأول

في سنة ١٩٥٦ كان عبدالحليم يتعشى عندي ومعه كمال الطويل ومجدي العمروسي و بعض الأصدقاء و بعد العشاء جلسنا في غرفة المكتب نتحدث ونتناقش، وارتفع صوتنا ولاحظت أن كمال الطويل كان وسط هذه الضوضاء يدق على كتف المقعد بأصابعه و يلحن أغنية «بتلموني ليه.. لو شفتم عينيه.. حلوين قد ايه» لم يكن يعتمد على آلة موسيقية ولا على بيانو ولا على عود، وإنما كانت أصابعه هى التي تعزف هذا اللحن الرائع البديع وكان عبدالحليم يأكله بنظراته و يتابعه باذنه، ولم أر عبدالحليم مهتما بلحن كاهتمامه بهذا اللحن.

وحدث أن ذهبت لأسمعه يغني في سينما ريفولي، وجلست في الصف الثالث وتصادف أن جلست بجواري فتاة رائعة الجمال، عيناها واسعتان جذابتان، فمها دقيق وشفاها غليظة وقوامها فتان.. وكانت تجلس بجوارها بعض قريباتها.

وبدأ يغني عبدالحليم أغنية بتلوموني ليه، لو شفتم عينيه، حلوين قد ايه!

ولاحظت أن عبدالحليم على المسرح يوجه نظراته وهو يغني إلى الفتاة التي تجلس إلى جانبي، ثم لاحظت أن عيني الفتاة تتكلم وترد عليه، وتناجيه وتلاغيه، وتقبله وتعانقه! لم أر في حياتي عينين بكل هذا السحر والجمال! وفهمت أن أغنية «بتلوموني ليه، لو شفتم عينيه، حلوين قد ايه»! موجهة في كل كلمة إلى هذه الفتاة التي لم أكن أعرف اسمها.

وفي اليوم التالي زارني عبدالحليم، و بادرته بقولي إنني عرفت الفتاة التي يحبها، وأصيب بالذعر، وسألني :من أخبرك؟ قلت :هي، قال في دهشة: هل هي أخبرتك؟ قلت له: عيناها تكلمت وصرحت وأذاعت السر الرهيب!

وكان عبدالحليم يحرص على كتمان اسم الفتاة التي يحبها حفظا لسمعتها، وحرصا على أسرتها.

وعرفت كيف عرفها عبدالحليم، استأجر عبدالحليم شقة في رمل الاسكندرية وذات يوم دخل مصعد العمارة ورأى أمامه هذه الفتاة. وما كاد يرى عينيها حتى جن بها، كان حبا من أول نظرة، ابتسم وابتسمت، سألها عن اسمها فأجابت، ثم عرف أن أسرتها هي صاحبة العمارة!

من ذلك اليوم لم يبق في دماغه إلا صاحبة العينين الجميلتين، أصبحت كل إحساسه وكل عواطفه وكل أحلامه!

كان يسير خلفها على شاطىء المنتزه، كلما جلست في كابينة حاول أن يتعرف إلى أصحابها، ثم بعد ذلك يتردد على الكابينة حتى يراها ويجلس أمامها، و يسمعها تتكلم.

وكان الأطباء نصحوا عبدالحليم بأن يتجنب الجو الرطب، فنسى أوامر الأطباء وكان أحيانا يبقى سهرانا في كابينة مطلة على البحر حتى الساعة الرابعة أو الخامسة صباحا، لا ينام وهي مستيقظة، ولا ينصرف وهي جالسة، ولا يغيب وهي حاضرة.

كان في أثناء هذا الحب الجارف العاصف يهرب و يتلاشى فلا يعرف أقرب أصدقائه، وكانوا مجدي العمروسي وكمال الطويل ومحمد الموجي، لا يعرفون كيف

انشقت الأرض و بلعت عبدالحليم ، ويحدث أن يكون عبدالحليم مرتبطا بموعد هام قد يربح منه ألوف الجنيهات ، ولا يتردد عبدالحليم أن يضحي بالصفقة الهامة ليلتقي بالفتاة التي أعطاها كل قلبه وكل حياته ، وكان يبذل جهودا جبارة ليخفي أنباء هذا الغرام الجارف ، حتى لا تكون حبيبته مضغة في الأفواه ، أو تتناولها الصحف أو المجلات .

وعرف عبدالحليم أن هذه الفتاة سيدة متزوجة ولها أولاد ، وزوجة سفيرومن أسرة كبيرة ، وفوجىء بها تصارح أسرتها بأنها تحب عبدالحليم ، وأنها تريد أن تتطلق من زوجها لتتزوجه ، وكانت الأسرة تحب عبدالحليم كصديق للأسرة ، وتستقبله في بيتها كفرد من أفرادها ، وعندما علمت الأسرة بمسألة الزواج تحولت الصداقة إلى عداء ، و بعد أن كان عبدالحليم هو الصديق الأول للأسرة أصبح العدو الأول للأسرة .

كيف تتزوج بنت الأكابر من مطرب؟ ماذا سنقول لأنسبائنا وأقربائنا وأصدقائنا عن هذه التضحية التي ستلوث شرف الأسرة! كيف تتطلق ابنتنا السفيرة من زوجها السفير لتتزوج هذا المغني! لو حدث ذلك فأنت لست بنتنا ولا نعرفك ولا نقبل أن تدخلي بيت الأسرة ، ولن نسمح لك أن ترى أولادك بعد الطلاق .

وتحدت ذات العيون الحلوة كل هذا التهديد والوعيد وصممت أن تتطلق وتتزوج عبدالحليم رغم كل المعارضات والاعتراضات .

وقالت إنها قررت أن تترك كل الدنيا وتتزوجه .

وكانت سنوات ١٩٥٦ و١٩٥٧ و١٩٥٩ أجمل السنين في حياة عبدالحليم .

وكان عبدالحليم يقول : «إن وجهها يعطيني الأمان بما فيه من طيبة و براءة وجلال .. والساعة التي أنفرد فيها بها أشعر أنني أقوى رجل في الدنيا كلها» .

وانتصرت ذات العيون الحلوة وانتزعت الطلاق من زوجها ، وتنازلت عن كل حقوقها من أجل هذا الطلاق .

و بدأ عبدالحليم يستعد للزواج من صاحبة أجمل عينين في العالم ..

وفجأة سقطت الفتاة مريضة ، وحار الأطباء في أول الأمر في علاجها ، ثم

اكتشفوا أنها مصابة بمرض سرطان الدم وهو مرض مميت.

وعندما علمت الحبيبة السعيدة بحقيقة مرضها قابلته وأبلغته النبأ، وقالت له إنها تعفيه من وعده لها ولن تتزوجه!

وسقط النبأ على عبدالحليم سقوط الصاعقة أو كما قال لي إنه شعر أنه يموت وهو جالس معها، وقال لها إنه على استعداد أن يتزوجها وهي مريضة، وقالت له: لا أريد أن أتركك أرملا وأنت شاب صغير! وقال عبدالحليم: إن قطع علاقتنا سيجعلني أرملا من الآن وأنا أعتقد أنه لو تزوجنا سوف تجعلك سعادتنا معا تصمدين لهذا المرض وتقاومينه.

وأصرت صاحبة أجمل عينين في العالم على فسخ الخطبة.

وعاش عبدالحليم أياما تعيسة كئيبة حزينة، كان يتمزق وخاصة عندما طلبت منه ألاّ يتصــل بها ولا يحدثها، وكان عذاب عبدالحليم بهذا القرار القاسي عذابا أليما كان قلبه يحترق، وكان لا يكف عن الدموع، وكان يدور بسيارته حول بيتها لعل وعسى يراها من نافذة أو وهي خارجة أو داخلة إلى البيت، وكان يدق رقم تليفونها و يسمع صوتها ثم يضع السماعة، ولأ ول مرة سمعت عبدالحليم يتمنى الموت، و يقول: لو أن الله أحبني لأخذني إليه قبل أن يأخذها.

واتصلت بصاحبة العيون الجميلة ولمتها على قرارها بالانقطاع عن رؤية عبدالحليم ولم يطلب مني عبدالحليم أن أفعل ذلك، ولم يخبرني عن الأ زمة الطاحنة التي يعيش فيها، ولم أستأذنه في أن اتصل بالمرأة التي قاطعته وطلبت منه ألا يتصل بها في التليفون.

شعرت أن صديقي عبدالحليم يموت أمامي، يشحب، يذوب، يفنى، يكبر في السن عشرين سنة على الأقل، وكنت أعلم أن كرامته تمنعه من الا تصال بها لينقذ الحب المذبوح، فقررت أنا أن أفعل ذلك من وراء ظهره واتصلت بالفتاة، وقلت لها: إنك تعذبين نفسك وتعذبين عبدالحليم بهذا القرار!

قالت: إنني أحاول أن أوفر عليه العذاب الدائم فأفرض عليه هذا العذاب المؤقت

سوف ينساني بعد شهور قليلة، وعندما أموت سيبكي عليَّ كصديقة لا على أني المرأة الوحيدة في حياته.

قلت لها: إن عبدالحليم لن ينساك أبدا، وأنا أعتقد أن عودتك إليه ستطيل عمرك!

قالت: أنا لا أريد أن يطول عمري!

قلت: وسيطول عمره أيضا!

قالت: أنا مستعدة أن أضحي بكل شيء ليعيش ولو يوما واحدا!

وأمسكت التليفون وطلبت عبدالحليم في بيته، وفي ذلك اليوم عادت الحياة من جديد لعبدالحليم.

وفي اليوم التالي تلقيت من عبدالحليم الخطاب التالي:

١٩٥٩/٩/٤
أخي الكبير مصطفى
مساء الخير، لقد كان أمس قاسيا جدا بالنسبة لي.. فاعذر بكائي، واعذر إحساسي، فقد حركهم عطفك وحبك بصورة لا يمكن أن تتصورها، وأنا أكتب لك هذه الانفعالات والأحاسيس لعلي أستطيع أن أعبر لك عن ما أحسه نحوك..

أخي.. صادقت كثيرا من الناس، وعشت معهم بكل أيامي ولحظاتي، دائما أروي لهم كل ما أنا فيه من آلام وسعادة، وما يمر بي من أحداث، وكانوا يسمعونني، وربما تألموا لآلامي.. وفرحوا لسعادتي، ولكن إحساسهم لم يرشدهم يوما إلى ما أنا فيه دون أن أقوله لهم...

وعندما عرفتك، وتحدثت معك وسمعتك وأنت تتكلم عن الناس تركتك وأنت تملأ قلبي واعتبرتك صديقا وأخا كبيرا لي ــ بيني وبين نفسي طبعا ــ وشاءت الظروف أن ما أحسه بيني وبين نفسي يصبح حقيقة قوية.

ولم أحاول أن أحدثك أو أشكو لك آلامي، أو أشرح لك ظروفي وما أنا فيه...

وما هى سعادتي وما هو شقائي، وما هى الظروف التي أمر بها، وما هى أحاسيسي نحو الناس، وكل ذلك لأني أريد أن أحافظ على ما قام بيننا من صداقة، وما أحسه من حب عميق نحوك، وكنت أمر بظروف مؤلمة بالنسبة لي من ناحية عملي وناحية فني ولم أحدثك عنها، حتى لا يمر يوما بخيالك أنني حاولت أن أزعجك، وأمس كانت مفاجأة لي، قد أحسست أنت بكل ما أنا فيه دون أن أقوله لك، وعملت من ناحيتك على تصحيحه، دون أن أعرف أنا، وعندما قلت لي هذا.. لم يحتمل إحساسي، وبكيت من فرط حبي لك، ومن فرط إحساسك بي وأنا الذي لم أطلب منك هذا ولم أحدثك حتى عنه.

إنك إحساس يعيش بين الناس، وقد خلقني الله لأعيش أيضا على إحساسي، وبكيت أيضا لأنني لا أستطيع أن أرد لك ما قمت به نحوي، ولكن كل ما أملكه هو أن أحبك وأقدرك.. وأنا أحبك وأقدرك ما فيه الكفاية.. ولو أنك في غير حاجة إلى حبي وتقديري، فالدنيا كلها تقدرك وتحبك، ولا تضحك مني أرجوك، فربما كان أسلوبي مدعاة لذلك، ولكن رفقا باحساسي، أدام الله عليك إحساسك القوي.

ودمت لي أنت وحبك واخوّتك وصداقتك.

عبدالحليم حافظ

وعاش عبدالحليم وصاحبة العيون الحلوة أسعد أيام حياتهما، ولم تستمر هذه الأيام سوى بضعة أسابيع.. وماتت فجأة صاحبة أجمل عيون في العالم.

الحب الثاني

وفي أوائل الستينات أحب عبدالحليم نجمة سينمائية شابة، وأحبته حبا جارفا مجنونا وفي سنة ١٩٦٢ أصيب بنزيف حاد وهو يقيم في شقته في عمارة السعوديين بالجيزة وكنت أزوره كل يوم مرتين في شقته، وفي كل مرة ألاحظ عند دخولي إلى غرفة نومه حركة وجلبة، وامرأة تختفي في الغرفة المجاورة وظننت في أول الأمر أنها أخته علية أو زوجة أخيه فردوس، وفي إحدى المرات لمحتها وعرفت أنها النجمة السينمائية المشهورة ولم أقل شيئا لعبدالحليم إلى أن قال لي إن النجمة المشهورة ترفض أن تترك فراشه وإنها تنام تحت قدميه على الأرض لتخدمه أثناء مرضه، وذكر أنها تحبه وتريد

أن تتزوجه وسألته هل يحبها؟ فقال: نعم ولكنه لم يقرر أن يتزوجها أو لا يتزوجها، وسألني رأيي، فقلت له: إن تجربتي أن زواج النجم السينمائي من النجمة السينمائية لا ينجح، ولابد أن أحدهما يطفىء الآخر! وهز رأسه ولم يقل شيئا.

وبعد ذلك بأيام زاره الشاعر كامل الشناوي وقال له: إنني علمت أنك تحب النجمة فلانه.. ولو سألت عنها في بيتها الآن لوجدت عندها كاتبا صحفيا معروفا وأمسك كامل سماعة التليفون ليطلب النجمة المشهورة، ولكن عبدالحليم رفض اقتراح كامل ليتأكد من خيانة النجمة المشهورة، وشعرت أن قلب عبدالحليم يتمزق فقد كان يحبها فعلا وكانت الاشاعات التي تحوم حولها تنكد عليه حياته، وفشل مشروع الزواج، وأعتقد لو تم هذا الزواج فعلا لما استمر شهرا أو شهرين كان عبدالحليم سيحبس النجمة المشهورة، وسيمنع ظهورها في السهرات والحفلات، وسيمضي في حياته البوهيمية، وما كانت النجمة المشهورة تقبل أن تعيش في الظل وزوجها يتلقى تليفونات المعجبات وتنهيداتهن صباح مساء!

الحب الثالث

وفي أوائل السبعينات التقى في بيروت بسيدة صاحبة ملايين، وما أن رأته حتى غرقت في هواه. وجد فيها عبدالحليم مزيجا من العشق والأمومة، كانت امرأة فاتنة متزوجة، ولم تكن فاتنة الجمال، وكانت شخصيتها قوية، وجمالها هادىء، وكانت فيها أمومة قوية، وكان عبدالحليم يفتقد الأمومة، وكان يبحث في كل امرأة يعرفها عن أم أكثر مما يبحث عن حبيبة، وكنت ألاحظ أنه كلما رأى عبدالحليم شخصا عانقه بحرارة، وكان بعض الناس يتصور أنها حركة تمثيلية، وكنت أعرف أنها حركة غير ارادية فهو دائما يبحث عن حضن أم أو حضن أب.

وبغير أن تستشير عبدالحليم ذهبت السيدة السورية إلى زوجها وتطلقت منه، وجاءت إلى مصر لتتزوج من عبدالحليم.

كان ذلك في عام ١٩٧٥ وعبدالحليم مريض.

وقال لها عبدالحليم: إنك ستتزوجين رجلا محكوما عليه بالإعدام، ستعيشين معي ممرضة، إذا كنت تحبينني فعلا عودي إلى زوجك وأولادك.

وغضبت السيدة السورية واعتبرت هذا التصرف هروبا من عبدالحليم، وبكت واتهمته بالغدر والخيانة.

وفي مارس سنة ١٩٧٧ علمت السيدة السورية أن عبدالحليم على فراش الموت وعندما وصلت إلى المستشفى كان قد أسلم الروح.

ووقفت أمام جثمانه وبكت وهي تقول:

ــ عرفت الآن أنك كنت دائما صادقا معي، ولم تكذب عليّ أبداً!

الحب الرابع

التقى عبدالحليم بفتاة سورية مثقفة في بيت أحد أقاربها، فتن بذكائها، وبهره علمها، وأذهلته ثقافتها...

ودخل المستشفى في لندن فكانت الديبلوماسية العربية تزوره كل يوم، وعندما كانت تدخل غرفته كان يطلب من كل الموجودين أن يخرجوا، حتى أقرب الناس إليه، وكان يحترمها احتراما خاصا.

وكانت الفتاة من أسرة عربية رفيعة، كان ضعيفا أمامها، كان يجد فيها طاقة هائلة من الحنان والقدرة على الاستماع، كان حديثها يعالجه وكان حنانها يضمد جراحه، كانت فتاة شابة، عيناها واسعتان، بيضاء البشرة، طويلة القامة، شعرها أشقر، تجيد الحديث بعدة لغات، مليئة بالإحاسيس التي كان يحتاج لها عبدالحليم في فترة مرضه الخطير، فهمته، فهمها، عرفت ما يحب وما يكره، كانت بالاختصار تريحه، كأنها وسادة من ريش النعام يضع رأسه عليها، كانت تدخل غرفة المستشفى وهو متعب وتخرج وهو مستريح، كان قبل لقائها يعبس وبعد لقائها يبتسم، وكانت خبيرة في السياسة والديبلوماسية فكانت تحدثه عن ما يجري في العالم وما قرأته في صحف انجلترا في الصباح، وكانت أستاذة في الديكور وفي الملابس فكانت تحدثه عن إعادة فرش بيته وعن الملابس التي يحسن أن يشتريها، وكان يحترم رأيها على خلاف عادته من حب للمناقشة والمعارضة والمعاندة! وكانت تحرص أن تحدثه عن المستقبل. كان يحس وهو معها أنه سيعيش مائة سنة، وكانت إذا خرجت من الغرفة

عادت له الكآبة وأحس أنه سيموت بعد ساعة!

وكان يقول لها ما لا يقوله لأحد، كان يشعر أنها تحبه وتشفق عليه وتغمره بحنانها وكان محتاجا إلى كل هذا معا! وكانت تحرص طوال مدة بقائها معه في الغرفة أن تبتسم وتضحك وتمرح، فإذا خرجت من الغرفة انهارت وراحت تبكي بغزارة.

وشعر بعض أصدقائه أن هذه الشقراء أصبحت المرهم الذي يمسح به عبدالحليم جروحه، وأنها المورفين الذي لا يجعله يحس بآلامه، وأنها القلب الصناعي والكلى الصناعية فقط!

واقترح عليه بعض أصدقائه أن يتزوجها، وهز عبدالحليم رأسه وقال بصوت خافت:

ـ أنا أصبحت إنسانا لايجوز له أن يتزوج!

و يقول بعض أصدقاء عبدالحليم المقربين لوتزوجها لعاش شهرا آخر على الأقل!

ولم يكن يكفي عبدالحليم لهذا الحب عشرات السنين!



الزعيمة الجميلة !

صدرت جريدة «الأهرام» ذات صباح، وفي صدر الصفحة الأولى صورتان كبيرتان بعرض أربعة أعمدة بعنوان «قران سعيد»، ودهش القراء، فهذه أول مرة تنشر جريدة «الأهرام» صورة عروسين في الصفحة الأولى.. حتى خبر زواج الملك فؤاد من الملكة نازلي — وكان فؤاد سلطانا في تلك الأيام — نشرته جريدة «الأهرام» الوقورة في صفحة المحليات في داخل الجريدة!.. وتضاعفت دهشة القراء عندما قرأوا أن العريس هو الكاتب الشاب المحبوب أحمد الصاوي محمد، الذي يكتب باب «ما قل ودل» في الصفحة الأولى من الأهرام، وقد كان الصاوي يومئذ أحد نجوم الصحافة الموهوبين وكانت كتاباته وقصصه موضع إعجاب السيدات والآنسات فقد كان ينصر المرأة، و يؤيد تعليمها، ويحيى نجاحها في جميع الميادين، وكانت العروس هى الآنسة درية شفيق التي تحمل شهادة في الآداب والتي حصلت على الليسانس من جامعة السوربون في باريس، والتي تحدث المجتمع عن جمالها ونبوغها.

ثم زاد ذهول القراء عندما قرأوا في النبأ أن حفلة عقد القران تمت في قصر السيدة هدى شعراوي زعيمة النهضة النسائية في مصر، وأن قيمة الصداق كانت خمسة وعشرين قرشا فقط!

وكان هذا الزواج هو زواج الموسم وخاصة.. أن بطليه كانا من أنصار المطالبة بحقوق المرأة، وتم عقد الزواج بسرية تامة، ولم يتسرب النبأ أو الاشاعة إلى جريدة أو مجلة وانفردت «الأهرام» وحدها بنشر الخبر الخطير.

وكان الصاوى محسودا من شباب الصحفيين، فقد كان وحده الذي يكتب عمودا مقروءا في جريدة مصرية يومية، وحدث في وقت من الأوقات أنني كنت أجلس معه في غرفة واحدة في إدارة الأهرام، وكان الساعي يدخل إليه كل يوم حاملا زكيبة من البريد، و يفرغها على مكتبه، وكانت ألوان الخطابات بين اللون البمبي

واللون الوردي، واللون الأصفر المسخسخ! وكانت تفوح منها روائح عطرية مختلفة، مما يدل على أنها من معجبات وعاشقات وقارئات للكاتب الشاب الفنان، ولم يكن الصاوي جميلا، ولكن كتاباته الرقيقة عن الحب والعشق والهوى والجمال، كانت تصوّره في أذهان القارئات الشابات في صورة فتى الأحلام أو روميو أو رودلف فالنتينو أو كلارك جيبل وروبرت تيلور وغيرهما من نجوم السينما!

وكان ساعي «الأهرام».. يلقي عليّ نظرة استخفاف، فلم يكن يصلني خطاب واحد من معجبة، ولم يكن يترك على مكتبي ولو خطاب اعجاب واحد من خطابات الإعجاب الموجهة للصاوي، ولو على سبيل الصدقة والإحسان! و يظهر أنني شعرت بالحسد والغيرة من جاري الدون جوان، وكنت أكتب إلى جانب عملي في «الأهرام» يوميات في مجلة «آخر ساعة»، ودفعتني شقاوتي فكتبت في أحد اليوميات «ان الأستاذ أحمد الصاوي محمد يشبه الفأر»، وما كادت تصدر مجلة «آخر ساعة» حتى هاج الصاوي وماج، وهدد وتوعد، وغضب وثار.. و وعدته أن أصحح هذه الغلطة الشنيعة في العدد التالي من مجلة «آخر ساعة».. وفي العدد التالي كتبت في اليوميات أقول «نشرنا في الأسبوع الماضي أن الأستاذ الكبير أحمد الصاوي محمد يشبه الفأر، وما كاد يصدر العدد حتى دق التليفون في مكتبي في المجلة، وسمعت صوتا غاضبا ثائرا حانقا يقول:

ــ ما هذه الوقاحة وقلة الأدب كيف تقولون إن الصاوي يشبه الفأر؟

وسألته: هل حضرتك الصاوي؟

قال: لا.. أنا الفأر»!

* * *

ولكن هذه الحملة المغرضة على جمال الصاوي لم تصرف القارئات المعجبات بالصاوي العاشقات لأسلوبه الساحر الراقص، ولكن الزواج الذي أحدث ضجة كبرى لم يستمر، بل حدث الطلاق قبل الزفاف، فقد كان أحمد الصاوي أوربيا من الخارج وصعيديا من الداخل، ولد في مدينة أسوان وتعلم في باريس، فهو متحرر في كتابته ومحافظ في بيته، وكانت درية شفيق متأثرة بدراستها في السوربون، تطالب

للمرأة المصرية بكل حقوق المرأة الفرنسية. تريدها ناخبة ونائبة ووزيرة، وكان الصاوي لا يمانع أن تكون كل امرأة في مصر وزيرة وسفيرة ما عدا زوجته هو فان مكانها في البيت. وتم الطلاق.. وعندما تزوج أحمد الصاوي محمد بعد ذلك بأكثر من عشر سنوات رفض أن تنشر صورة زوجته في الصحف، ولم تظهر حتى الآن صورة زوجة الصاوي الثانية على صفحات الصحف بينما مضى على زواجهما أكثر من خمسة وثلاثين عاما!

وقابلت درية شفيق صدمة الطلاق بشجاعة غريبة، وقالت لي يومها: إن هذا هو أقل تضحية أقدمها في سبيل تمسكي بمبادئي!

وسافرت درية إلى باريس للحصول على درجة الدكتوراة من السوربون وكان موضوع رسالتها «المرأة في الإسلام»، وقد أثبتت في رسالتها أن حقوق المرأة في الإسلام هى أضعاف حقوقها في أي دين آخر.

وكانت درية أخبرتنا أنها لن تتزوج بعد فشل زواجها بالصاوي، وأنها قررت أن تتزوج قضية المرأة المصرية، ولكن حدث لها في باريس حادث غريب لم تتوقعه أبدا، فقد التقت في باريس بصديق لي، كانت درية تعرفه وعمرها سبع سنوات، وكانت تزوره مع أمها في بيته، وتلعب معه لعبة «الاستغماية»، وكانت تشعر نحوه بشعور الاخوة والمودة التي تشعر بها نحو صبيان الأسرة.

ثم كبر الشابان وافترقا، كان هو يتلقى العلم في القاهرة، وكانت هى تدرس في الاسكندرية، فعندما تخرجت في كلية الآداب بجامعة القاهرة رشحها أساتذة الكلية لتكون معيدة نظرا لتفوقها، ولكن الأستاذ أحمد أمين عميد كلية الآداب رفض أن يوافق على تعيينها بحجة أنه لا يستطيع تحمل مسؤولية «جمال» المعيدة في كلية الآداب، ولهذا قرر وزير المعارف تعيينها مفتشة لمدارس البنات في الاسكندرية بعيدا عن عيون الرجال! وقالت جريدة «الديلي ميل الانجليزية» إن درية شفيق أجمل بكثير من أن تشغل أي منصب في الدولة!

وعندما وصلت درية إلى باريس استغرقت في إعداد رسالة الدكتوراة ثم علمت أن ابن خالتها الدكتور نور الدين رجائي ـــ وهو الولد الذي كانت تلعب معه

«الاستغماية» في القاهرة وعمرها سبع سنوات ـــ وصل إلي باريس للحصول على الدكتوراة في الحقوق.

والتقت الشابة التي أقسمت ألا تتزوج إلى الأ بد بالشاب الذي لم تخطر بباله فكرة الزواج، وتكرر لقاء الشابين في الأماكن العامة، ولا يدور بينهما إلا حديث الأقارب الذين يلتقون في بلد غريب.

وقالت لي درية شفيق إنه في ذات مساء جاءت صديقة فرنسية لها وقالت إنها تود التحدث معها في أمر هام جدا، وتصورت درية أن المسألة تتعلق بجامعة السوربون أو مشكلة خاصة بالصديقة، وإذا بها تقول لدرية:

ـــ يوجد شاب ممتاز يريد أن تقبليه زوجا!

قالت درية محتجة: غير معقول أن أتزوج في باريس بالطريقة التقليدية في مصر! يجب أن أعرف هذا الشاب أولا! ويجب أن يكون مسلما ومستحيل أن أتزوج من شاب فرنسي!

قالت الصديقة: إنه شاب يعرفك منذ عشرين سنة!

قالت درية: إنني لا أعرف أحدا من عشرين سنة! لقد كنت يومئذ في السابعة من عمري! وضحكت الصديقة وقالت: وهو يعرفك منذ كنت في السابعة من عمرك.. ولعب معك لعبة «عروسة وعريس»، وكنت أنت العروسة وهو العريس! واكتشفت درية أن ابن خالتها نور الدين رجائي كلف صديقتها أن تفاتحها في فكرة الزواج، وغضبت درية من ابن خالتها.. لماذا لم يتقدم إليها مباشرة و يطلب موافقتها! ودافع نور الدين عن نفسه بأنه يحبها ولم يجرؤ أن يقول لها طوال عشرين سنة إنه يحبها.. وفجأة شعرت درية أنها تحبه فقبلت على الفور.

شعرت أن هذا الشاب عرفها طوال عمرها، واقتنع بمبادئها، ووجدته يشاركها كل آرائها في حق المرأة المصرية أن تكون ناخبة ونائبة ووزيرة!

وقالت لخطيبها إنها لا تؤمن بتقاليد الزواج البالية مثل الشبكة ومقدم الصداق ومؤخر الصداق، وتريد أن يكون مهرها خمسة وعشرين قرشا فقط، نفس مهرها الأ ول

من أحمد الصادوي محمد..

و بحث نور الدين رجائي عن خمسة وعشرين قرشا مصريا في فرنسا فلم يجد، ولم يشأ أن يؤجل الزواج حتى يستحضر خمسة وعشرين قرشا من مصر، و وافقت درية بعد إلحاح أن يكون المهر خمسة وعشرين فرنكا فرنسيا... وكان الفرنك يساوي «قرش صاغ» في تلك الأ يام.

وانصرف العروسان إلى دروسهما وحبهما، و بعد عامين فرغ نور الدين رجائي من دراسته وحصل على درجة الدكتوراة.. ولحقت به درية بعد شهرين ومعها درجة الدكتوراة أيضا، وفي القاهرة أقامت الأسرة لهما فرحا للمرة الثانية!

وعاشا معا أسعد الأ زواج، وانصرف الزوج إلى التدريس في كلية الحقوق بالقاهرة معيدا ومدرسا وأستاذا!

أما درية فقد أعطت حياتها لقضية المرأة. وأصدرت مجلة بنت النيل فنجحت نجاحا كبيرا، ثم أصدرت مجلة أنيقة باسم «المرأة الجديدة» ثم أصدرت مجلة ثالثة باسم «الكتكوت» للأطفال، وأسست حزبا جديدا باسم حزب بنت النيل انضمت إليه كثيرات من النساء المصريات، وكان حزبا نشطا يعقد الاجتماعات و يصدر الاحتجاجات، وأثار الحزب النسائي ضجة في مصر عند تأليفه وهاجمتها الصحف وأعلن الرجال الحرب عليها وصمدت للهجوم والشتائم والاتهامات وكانت تقول لي: إن عيبي الأساسي الاندفاع، إنني عندما أؤمن بشيء أندفع إلى القيام به، لا أهتم بالمصاعب، لا أتردد أمام العقبات، وقد أصابني الكثير من اندفاعي، ولو أنني تريثت قليلا لنجحت كثيرا!..
وحدث في عام ١٩٥٤ أن اعتصمت في دارنقابة الصحفيين وأضربت عن الطعام حتى تحصل المرأة المصرية على حق الانتخاب، وانضم إليها عدد من نصيراتها من السيدات وطالبات الجامعة، وعاندت درية المسؤولين الذين حاولوا نصحها بالعدول عن الإضراب حتى تعرضت للموت، وهنا نقلت هى وزميلاتها إلى مستشفى القصر العيني حيث أنقذت من الموت بأعجوبة..

وكانت درية تسكن بجواري طوال ٢٦ عاما، كانت شقتها في مواجهة شقتي

بالزمالك، وجاءني زوجها غاضبا لأن درية أضربت عن الطعام بغير أن تخبره، وكان يقول لي: كيف تفعل ذلك وتترك لي طفلتينا عزيزة وجيهان؟ إن قضية المرأة لا تساوي كل هذه التضحية.. ولكن درية كانت تقول إن هذه التضحية مقدسة وتساوي حياتها وحياة زوجها وحياة بنتيها.. وكان هذا هو بداية الخلاف بين الزوجين السعيدين.

وبدأت تقوم برحلات إلى جميع أنحاء العالم تنشر قضية المرأة المصرية، ووصفتها جريدة الديلي ميرور الانجليزية «بأنها» تحاول أن تتشبه بكليوبترا، وأن حياتها عبارة عن سلسلة طويلة من الكفاح من أجل حقوق المرأة المصرية.

وسافرت إلى الشرق، واجتمعت بزعمائه وحكامه، ودعاها الزعيم نهور رئيس وزراء الهند لتكون في ضيافته في أثناء زيارتها للهند، وقالت وكالات الأنباء إن الدكتورة درية شفيق كانت في سنة ١٩٥٤ «واحدة من أهم عشر سيدات في العالم».

ولم تعجب السلطات في مصر بنشاطها الذي زاد عن حده، وبدأت الصحف والمجلات تهاجمها، وتطلق عليها اسم «الزعيمة المعطرة» وهاجمتها إحدى المجلات المصرية وقالت: «إن الزعيمة كانت جميلة فعلا أيام زمان، ولكنها الآن بشهادة الجميع تعتبر ملكة الاناقة في مصر».

ولما كانت الثورة لا تريد ملوكا في مصر، فقد صدرت الأوامر بمحاصرة نشاطها ومنع نشر أنبائها!

وفوجئت السلطات المصرية في يوم الأربعاء ٦ فبراير سنة ١٩٥٧ بدرية شفيق تدخل دار السفارة الهندية في حي الزمالك بالقاهرة، وتعلن اعتصامها في السفارة وإضرابها عن الطعام حتى الموت، وإصدارها بيانا سلمته لوكالات الأنباء الأجنبية هذا نصه:

«أمام الظروف القاسية التي تمر بها مصر قررت بعزم أكيد أن أقوم بالإضراب عن الطعام حتى الموت، وذلك ابتداء من اليوم الأربعاء ٦ فبراير سنة ١٩٥٧ بالسفارة الهندية بالقاهرة، وذلك لاستخلاص حريتي الخارجية والداخلية، وإنني كعربية

ومصرية أطالب من السلطات الدولية العمل على انسحاب القوات الإسرائيلية فورا من الأراضي المصرية، والوصول إلى حل عادل ونهائي لمشكلة اللاجئين العرب وأطلب من السلطات المصرية رد الحرية التامة للمصريين جميعا رجالا ونساء، بإنهاء الحكم الديكتاتوري الذي يسير ببلادنا إلى الإفلاس والفوضى..

وإنني إذ أقدم على التضحية بحياتي لتحرير بلادي أتحمل وحدى مسؤولية هذا العمل، وقد تركت زوجي الدكتور نور الدين رجائي وطفلتينا، فإذا مسهم سوء فإنني أحمل الضمير العالمي والمصري مسؤولية ما قد يصيبهم».

إمضاء د. درية شفيق

وقامت قيامة السلطات الحاكمة في مصر، ولم تستطع الشرطة اقتحام السفارة الهندية والقبض على درية شفيق، ونشرت الصحف العالمية نبأ إضراب الزعيمة المصرية عن الطعام ومطالبتها بإلغاء الديكتاتورية في مصر.

وتدخل الرئيس نهرو وأرسل إلى الرئيس جمال عبدالناصر يطلب إليه أن يسمح بخروج درية شفيق حرة من السفارة الهندية وعودتها إلى بيتها بغير القبض عليها.

و وافق عبدالناصر على تحديد إقامتها في شقتها بالزمالك، وخرج السفير معها في سيارته إلى أن أوصلها إلى بيتها.

وقالت جريدة التيمس الإنجليزية في يوم ٩ فبراير:

«ليس من المعروف ما إذا كانت درية شفيق تنوي مواصلة الإضراب عن الطعام حتى تنسحب إسرائيل من أراضي مصر، وتسوى مسألة اللاجئين، وحتى تنتهي الديكتاتورية التي تقود مصر إلى الإفلاس والكوارث، وقد صرح زوجها بأنه يأمل أن تطيع أوامر الأطباء، ودرية شفيق هى زعيمة جماعة «بنت النيل» النسائية وقد تركت بيت السفير الهندي الذي قضت فيه الأيام الثلاثة الماضية ضيفة «غير رسمية» على زوجة السفير، وقد خرجت من السفارة في سيارة تتبعها سيارة بوليس.

وصرح زوجها أمس أنه غير موافق على ما حدث».

وقالت جريدة دي فلت الألمانية «رفعت امرأة في وادي النيل لواء المقاومة ضد

عبدالناصر، وهى درية شفيق، إنها في السابعة والثلاثين من عمرها وزعيمة المنظمة النسائية «بنت النيل» وهى تستمتع بكل فتنة وذات غنى وأم طفلتين وزوجة محام معروف، ومع هذا تقبع الآن في السفارة الهندية مضربة عن الطعام وهى تقصد أن ترغم الديكتاتورية في مصر أن تجعل حكمها مقبولا، كما تقصد المطالبة بانسحاب اسرائيل من غزة، على أن هذه المطالبة ضخمة.. ترى هل يمكن لاضراب امرأة متعصبة لحقوق المرأة أن تنتزع تحقيق هذه المطالب؟..

إن درية الفاتنة قد سبق لها أن أحرزت نجاحا في حملاتها السياسية، في سنة ١٩٥١ اقتحمت مع ألف من نصيراتها البرلمان المصري لتكافح في سبيل حق التصويت للمرأة.»

وأصدرت الحكومة على الفور قرارا بإغلاق مجلة بنت النيل ومجلة المرأة الجديدة ومجلة الكتكوت.

وحشدت الحكومة جميع الجمعيات النسائية الخاضعة لنفوذها، وجعلت رئيساتها يبصمن على قرار استنكار موقف درية شفيق ضد الديكتاتورية، وجاء في البيان «أدهشنا، نحن نساء مصر، بيان السيدة درية شفيق، ونعلن استنكارنا الشديد لتصرفها الذي يشوه سمعة الحركة النسائية المصرية في الخارج..

وليس أدل على انفراد السيدة درية شفيق عن الحركة النسائية الحديثة وعن الجماهير النسائية في مصر، من أنها لم تجد مفرا من أن تعترف بأنها لا تمثل سوى نفسها إذ قالت: أتحمل وحدي مسؤولية هذا العمل».

وحاصرت الشرطة مكتب زوجها الدكتور نور الدين رجائي المحامي، فكانت تقبض على كل زبون من زبائن المكتب وتهدد كل من يريد أن يوكل المحامي المشهور ليترافع له في قضية.

وأعلنت الدولة الحرب على زوج الزعيمة تطارده وتراقب تليفونه، وتفتح خطاباته، وتمنعه من السفر إذا أراد أن يسافر ليدافع عن موكله في دولة عربية، وإذا ركب سيارته وجد سيارة تسير خلفه، وإذا جلس في مكان عام وجد مخبرا يجلس في مقعد وراءه، وفي سنة ١٩٦٧ اعتقل في معتقل طره لمدة تسعة شهور بتهمة ملفقة، بلا

ذنب إلا أنه زوج الزعيمة الثائرة! ولم يكن الزوج معترضا على الخطوات الجريئة التي تخطوها زوجته الزعيمة، كانت ترى أن من حقها أن تصدر القرارات السياسية العنيفة دون استشارة زوجها، كانت ترفض أن تستأذن زوجها قبل أن تلقي قنابلها، على الرغم من أن هذه القنابل كانت تصيب شظاياها الزوج البرىء، وتم الاتفاق وديا بين الزوجين السعيدين على الانفصال، وبرغم هذا الانفصال فقد كانت العلاقات بينهما ودية، ولم يفتح واحد منهما فمه بكلمة يجرح بها حبيبه القديم..

وذهلت درية في وحدتها، أنصارها تخلوا عنها رعبا، صديقاتها انقطعن عن زيارتها خوفا من الاعتقال أو من الوضع تحت الحراسة، الصحف منعت من ذكر اسمها حتى وهى تذكر القرار بمنح المرأة المصرية حق الانتخاب ودخول نائبات في البرلمان وتعيين وزيرة في الوزارة، نسى الناس اقتحامها البرلمان سنة ١٩٥١ مطالبة بحق المرأة في الانتخاب، ونسوا اضرابها عن الطعام سنة ١٩٥٤ من أجل حقوق المرأة، ونسوا أنها فقدت حريتها وصحفها ومالها وزوجها لأنها طالبت للشعب المصري بحقوق الإنسان.

وبقيت درية شفيق شبه مسجونة في شقتها في الدور السادس بعمارة وديع سعد طوال ١٨ عاما، لا تزور أحدا ولا يزورها أحد.

وكنت أراها من وقت لآخر في مصعد العمارة، بلا تواليت ولا طلاء، في فستان قديم، وقد كانت قبل ذلك ملكة للجمال وملكة للاناقة، وجهها شاحب، عيناها تبكيان بلا دموع، شفتاها ترتعشان بلا نطق، قلبها ينزف بلا دم، روحها تصرخ بلا صوت، كانت هذه المرأة أشبه بالشبح، امرأة ميتة تمشي، خرساء برغمها، وكنت أرى في عينيها الحزينتين محنتها، هذه المرأة التي ملأت الدنيا ضجيجا ودويا، التي كانت الأنوار تسلط عليها في أي مكان تذهب إليه، التي كانت نجمة المجتمع المصري والمجتمع العربي والمجتمع الأوربي والأمريكي، إنها دفعت ثمنا رهيبا لشجاعتها والناس يخافون ثمن مقاومتها والناس يستسلمون، ثمن جرأتها وكل من حولها يرتعد خوفا من السيف والكرباج.

وأمضت كل وقتها تترجم القرآن من اللغة العربية إلى اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية وكتبت شعرا باللغة الفرنسية عن حب قيس وليلى، وعن حب إيزيس

لأ زوريس وكتبت كتابا بالفرنسية بعنوان «مع دانتي في الجحيم» وفيه تقارن بين الجحيم الذي عاش فيه الشاعر دانتي، وبين جحيم حياتها...

وعندما كتبت عن ليلى وعن إيزيس كانت تكتب عن حبها...

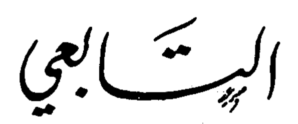
وكانت تعشق نهر النيل، كانت تقول لي: «عندما أشعر بالضيق وأرى النيل أنسى كل مضايقاتي»! وكتبت شعرا بالفرنسية أذكر منه قطعة بعنوان «أشكر ربي» جاء فيها كما أذكر «أشكرك يا رب لأنني ولدت في بلاد السحر والجمال والخيال وكبرت في ظل النخيل العالي الطويل... وعشت بين ذراعي الصحراء الفاتنة التي تحرس الأسرار، ورأيت بريق الشمس الذي يملأ الدنيا بالحياة وشربت منذ طفولتي من مياه النيل المقدسة»!

وكتبت في أثناء تحديد إقامتها ١٦ كتابا طبعت مطابع فرنسا أربعة كتب منها.

* * *

وبعد ظهر يوم ٢٠ سبتمبر ١٩٧٥ عدت إلى بيتي بعد أن تناولت الغداء في أحد الفنادق، وفي ردهة العمارة رأيت جمعا من الناس يلتف حول ملاءة بيضاء، وسألت ماذا حدث؟ قالوا: إن سيدة ألقت بنفسها من شرفة الطابق السادس.

ورفعت الملاءة البيضاء ووجدت جثة جارتي درية شفيق!



شيعت جنازة الزعيم مصطفى كامل في عام ١٩٠٨ ، كان يسير في مقدمة الجنازة أصغر تلميذين في المدرسة السعيدية الثانوية في الجيزة، كانا يحملان باقتين كبيرتين من الأزهار..

الطالب في السنة الأولى الثانوية في تلك الأيام كان لا يقل عمره عن ١٤ سنة..

كان التميذان الصغيران هما .. محمد التابعي وفكري أباظة.

وكانت الصورة التي التقطت في الجنازة تحدد يوم ميلادهما الحقيقي، ولكن الكاتبين الكبيرين عاشا طول حياتهما ينكران سنهما الحقيقي، وبلغ الأمر بالأستاذ التابعي أن حصل على جواز سفر جديد في الأربعينيات أنقص به عمره عشر سنوات وكان فكري أباظة إذا ووجه بصورته وهو يشيع جنازة مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ ادعى أنها صورته وهو يشيع جنازة الزعيم سعد زغلول!

وقد مات سعد زغلول في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ وكان فكري أباظة يومها نائبا في مجلس النواب منذ عامين، وكان عمر النائب، كما ينص الدستور في ذلك اليوم، يجب أن يزيد عن ثلاثين عاما على الأقل!

وهكذا لا يجوز أن نتهم المرأة وحدها بأنها هى التي تحاول إخفاء عمرها الحقيقي!

وعلى هذا الأساس يكون الكاتب الساخر الكبير محمد التابعي قد ولد في عام ١٨٩٤ وهو الأمر الذي كان ينكره التابعي طول حياته!

كان التابعي أحد ملوك الصحافة في مصر، عاش حياته بالطول والعرض، ذاق الفقر والحرمان واستمتع بحياة أصحاب الملايين، عشق الراقصات والأميرات، نام على مقعد في «بدروم» عمارة الشاعر أحمد شوقي بشارع «جلال» حيث كانت إدارة

مجلة روز اليوسف في أيامها الأولى، ونام في الجناح الملكي بفندق «جوج سانك» بباريس، كان يركب «بسكليت» و يتنقل بهذه الدراجة من إدارة المجلة إلى المطبعة، وامتلك السيارات من أحدث طراز في زمن كانت السيارات وقفا على الباشوات وأصحاب الملايين!

عرف الجوع، وكان طعام عشائه في بعض الليالي هو «سميطة» و بيضة ثمنها في تلك الأيام خمسة مليمات، ثم بعد سنوات قليلة أصبح يقيم في بيته مآدب ملكية يحضرها الوزراء والعظماء، وتغني فيها «أم كلثوم» أو «اسمهان» أو «ليلى مراد».

لم يحدث في تاريخ الصحافة المصرية أن عاش صحفي في المستوى الملكي الذي عاش فيه التابعي، أذكر أنني سافرت معه مرة إلى باريس وصحبني إلى فندق «البرنس دوجال» وسأل عن الجناح الملكي فقيل له إنه محجوز، فرفض أن ينزل في جناح آخر، وصحبني إلى فندق «جورج الخامس» المجاور، وسأل موظف الاستقبال عن الجناح الملكي فأجاب الموظف: إن صاحب السمو الملكي الأمير «امبرتو» ولي عهد إيطاليا يقيم فيه، وأصر التابعي أن نحمل حقائبنا ونذهب إلى فندق ثالث ورابع وخامس وسادس.. وكان الفندق السابع هو فندق «ماجستيك» ووجدنا الجناح الملكي خاليا وعندئذ خرجنا وأحضرنا حقائبنا من سيارة التاكسي التي داخت معنا!
و بعد ذلك أراد التابعي أن يسافر إلى «سان موريتز»، وأصر أن ينزل كذلك في الجناح الملكي الذي كان ينزل فيه الملك «فاروق»!

ومع أن التابعي كان لا يعرف كيف يتزحلق على الجليد فقد أصر أن يشتري الملابس الخاصة بهذه اللعبة، وأن يرتديها شأن أبطال هذه اللعبة..

وكان كل أصدقاء التابعي في هذه الرحلة من الأمراء والأميرات والدوقات والكنتيسات، وكان التابعي يجد متعة غريبة إذا جلس معهم في مقهى أو في مشرب أن يدفع هو الحساب! وكان يجد متعة أن ينافس البارون «روتشيلد» على غرام حسناء..

ولم يخطر ببال أحد من هؤلاء الأميرات والكونتيسات أن التابعي استدان

مصاريف هذه الرحلة قبل سفره من الخواجا «ساسون» تاجر الورق المشهور في تلك الأيام! ولم يكن «الدين» في نظر التابعي ذلا في الليل وهما في النهار، بل كان شامبانيا في الليل وكافيارا في النهار!

كان شخصية غريبة.. طرد من مدرسة الحقوق، وعمل موظفا صغيرا بمصلحة التموين أثناء الحرب العالمية الأولى بستة جنيهات في الشهر، كان ينفق خمسة جنيهات منها في اليوم الأول، ويعيش التسعة والعشرين يوما الباقية على جنيه واحد، بواقع ثلاثة قروش في اليوم، قرش في الإفطار وقرش في الغداء وقرش في العشاء.. وتبقى عشرة قروش يدخل بها إلى دارين من دور السينما، ويحصل على مقعد «لوج» بأربعة قروش ويدفع في كل مرة قرش صاغ بقشيشا لعامل السينما!

واستطاع وهو موظف أن يستذكر دروس مدرسة الحقوق، ويدخل امتحان الليسانس من الخارج، ويكون ترتيبه الأول بين الناجحين.

وكان يقرأ كثيرا باللغة الإنجليزية، واستطاع أن يجيد الكتابة بهذه اللغة، وتقدم بطلب وظيفة في جريدة «الاجيبشيان جازيت» التي كانت تصدر باللغة الإنجليزية في مدينة القاهرة، وأعجب به مستر «أوفاريل» رئيس التحرير فاختاره ناقدا فنيا للجريدة باللغة الإنجليزية بثلاثة جنيهات في الشهر! وفرح الشاب بالمبلغ التافه وكأن ثروة هائلة هبطت عليه من السماء..

وهكذا ارتفع ايراد التابعي إلى تسعة جنيهات في الشهر.. وشعر التابعي أن هذا المبلغ الصغير نقله من طبقة الفقراء إلى طبقة كبار الأثرياء! وأحب على الفور إحدى راقصات الأوبرا الأجنبيات ودعاها للعشاء معه في فندق «شبرد» أكبر فنادق المدينة في تلك الأيام، وفتح لها زجاجتي «شامبانيا»، وأعطى الجرسون جنيهين بقشيشا.. وبهرت الراقصة بالشاب المليونير، ولم تعرف أنه في تلك الليلة عاد إلى بيته مشيا على القدمين لأنه لم يبق من مرتبه ستة مليمات يدفعها ثمنا لتذكرة الترام إلى غرفته الصغيرة!

وكان هذا أول حب كبير في حياة الكاتب الكبير..

وأنقذ الموقف افتتاح البرلمان المصري سنة ١٩٢٤، وأعلنت سكرتارية مجلس

النواب عن حاجتها لمترجم من اللغة العربية إلى اللغة الإنجليزية بمرتب ١٢ جنيها في الشهر.

وحددت موعدا للامتحان.. وتقدم التابعي وتقدم معه حاملو درجات علمية من جامعتي «اكسفورد» و«كامبردج» في انجلترا.. وإذا بالتابعي يصبح أول الناجحين، وعين على الفور في الوظيفة المطلوبة..

ولم يكتف بالوظيفة بل خطر بباله أن يصبح ناقدا مسرحيا لجريدة الأهرام وكتب ينقد إحدى المسرحيات وذهب بها إلى «داود بركات» رئيس تحرير «الأهرام» وفوجىء في صباح اليوم التالي بمقاله ينشر في الصفحة الأولى، وكانت هذه أول مرة في تاريخ الصحافة المصرية أن ينشر مقال نقد مسرحي في الصفحة الأولى!

ولم يجرؤ التابعي أن يوقع المقال باسمه الصريح خشية أن يرفت من وظيفته في مجلس النواب، إذ لا يليق بالبرلمان الوقور أن يكون أحد موظفيه ناقدا مسرحيا ينقد الروايات الكوميدية والدرامية! ولهذا وقع المقال باسم «حندس» وهو الإسم الذي كان يدلله به أصدقاؤه وزملاؤه..

وأصبح «حندس» في يوم وليلة ناقدا مشهورا، وأطلق عليه الفنان «يوسف وهبي»: «الكاتب الذي يسقيني السم في برشامة».

وكان التابعي معجبا بتمثيل السيدة «روز اليوسف» الممثلة الأولى في روايات يوسف وهبي على مسرح رمسيس، كان يثني على «روز» في كل مقال و يسخر من يوسف وهبي في كل نقد.. وهكذا بدأت الصداقة الوطيدة بين «روز اليوسف» و«التابعي».

وعندما أصدرت «روز اليوسف» مجلتها في عام ١٩٢٥ عرضت على «التابعي» أن يعمل معها فتردد وقال إنه لا يصلح إلا للكتابة في الصحف اليومية! وعندما عرف أن زملاءه في الكتابة في المجلة هم «عباس محمود العقاد» و«ابراهيم عبدالقادر المازني» و«محمد لطفي جمعة» و«ابراهيم رمزي» ذعر وأصر على أن لا مكان له بين هؤلاء العمالقة!

و بعد إلحاح قبل أن يكتب صفحة مسرحية واحدة!

وصدرت المجلة وفشلت .. وهوى توزيعها ..

وبعد أسابيع قليلة تخلص التابعي من «العقاد» و«المازني» و«لطفي جمعة» و«ابراهيم رمزي» وأصبح يكتب المجلة من الغلاف إلى الغلاف!

وارتفع توزيع المجلة، وأصبحت مجلة خفيفة الدم، واستطاعت أن تشق طريقها بين المجلات الأسبوعية في البلاد!

وأصبح التابعي رئيس التحرير الحقيقي، ولكنه لم يجرؤ أن يعلن اسمه في المجلة حتى لا يفقد وظيفته في مجلس النواب، واتفقت السيدة «روز اليوسف» مع صديق لها يعمل كاتب حسابات في جريدة «البلاغ» أن يكون رئيس التحرير الصوري للمجلة، ويختفي خلفه «التابعي».

وعاش «التابعي» مجهولا مغمورا ثلاث سنوات بينما كانت مقالاته الساخرة متعة القراء..

وذات يوم كتب التابعي سلسلة مقالات عن حياة ملوك وملكات أوربا السابقين، واحتجت المفوضيات الأوربية لأنها اعتبرت هذه المقالات تشهيرا بحياة ملوكهم الخاصة.

وقبضت النيابة على «ابراهيم خليل» رئيس التحرير المسؤول وإذا برئيس التحرير يقول أمام النائب العام إنه «طرطور» وإن رئيس التحرير الحقيقي هو محمد التابعي..!!

وقبضت النيابة على «محمد التابعي»، وقدمته هو ورئيس التحرير إلى محكمة الجنايات فحكمت عليهما المحكمة بالسجن ستة أشهر مع إيقاف التنفيذ!

وعندما صدر الحكم استدعاه فؤاد كمال بك سكرتير عام مجلس النواب واستجوبه.. كيف وهو موظف يعمل في الصحافة؟ وأجاب التابعي أنه أرسل هذه المقالات للمجلة كهاو لا كمحرر.. ونشرتها المجلة عملا بحرية النشر..

وكان فؤاد كمال معجبا بكفاءة التابعي في الترجمة فحفظ التحقيق!

واستمر التابعي رئيسا للتحرير من وراء الستار، وكان يرفض أن يكتب في

السياسة بحجة أنه لا يفهم في السياسة! وقال إنه يفضل الكتابة عن الفنانة «زينب صدقي» أكثر من أن يكتب عن «عبدالخالق ثروت» باشا رئيس الوزراء.

وأرغمته السيدة «روز اليوسف» على الكتابة في السياسة فكتب فيها مضطرا، ولم يلبث أن تألق، وأدت مقالاته السياسية الساخرة إلى انتشار مجلة «روز اليوسف» وبدأ التابعي يهاجم خصوم الوفد بعنف، وإذا بنواب حزب الأحرار الدستوريين يتقدمون بشكوى إلى مجلس النواب يقولون كيف يسمح لموظف في مجلس النواب أن يشتم النواب! وحقق مكتب المجلس مع التابعي، فأنكر أنه يكتب في «روز اليوسف»! ولما كانت غالبية مكتب المجلس وفدية قررت حفظ الشكوى ضد «التابعي»!

وأقيلت وزارة الوفد، وحلت الوزارة الجديدة مجلس النواب، ورأى التابعي أن يستقيل من وظيفته و يتولى رسميا رئاسة التحرير!

وصادرت الحكومة مجلة «روز اليوسف» فتضاعف التوزيع، ولمع اسم «التابعي»، فقد أصبح يوقع مقالاته بإمضائه الصريح.. لأول مرة!

وأصبح باعة الصحف ينادون على مجلة «روزاليوسف» «روزا والتابعي ياجدع!».

وهكذا أصبح اسم التابعي على كل لسان، وكانت مقالاته الساخرة حديث البلاد العربية كلها!

وكان أسلوب التابعي لاذعا في بساطة، يحول بجملة الوزير إلى «بلياتشو»، والزعيم إلى «بهلوان»، قادرا أن «يسخط» المشروع الحكومي الهام ويجعله «نكتة» على أفواه الملايين، استطاع بعبقرية غريبة أن يجعل حكومة «محمد محمود» تفقد أعصابها، وتضرب مجلة «روز اليوسف» وتبطش بها وتهددها وتتوعدها وكلما سعت الحكومة في اضطهادها للمجلة كلما انطلقت المجلة في توزيعها وسعة انتشارها!

إن الكلمة كالطبلة، إذا ضربت عليها بشدة دوى صوتها وارتفع ضجيجها!

وفي يوم وليلة أصبح التابعي أحد كبار كتاب مصر والشرق العربي، وأصبح أكبر كاتب ساخر من الخليج إلى المحيط.

كان التابعي قويا مع الرجال ضعيفا مع النساء، كان لا يثق في أي رجل

بسهولة، وكان يثق بأية امرأة بمنتهى السهولة! وكان أستاذا في جذب النساء بكل اللغات ومن كل الأجناس!!

لم يترك دولة أوربية إلا وله فيها حبيبة، يبرق لها بالتهنئة في عيد ميلادها، ويقدم لها الأزهار في ذكرى لقائهما الأول، وكان سخيا مع النساء إلى درجة الإسراف، ومقتصدا مع الرجال إلى درجة التقتير، فهو يجد متعة لا حد لها في أن يقدم لسيدة يعرفها لأول مرة خاتما سوليتير، ولكنه يستكثر على صديق حميم قلم حبر أمريكانيا!

وكان يستثني من هذا «الاقتصاد» رجلا واحدا هو الموسيقار «محمد عبدالوهاب».

فقد اكتشف التابعي موهبته وهو في بداية حياته، وكرس قلمه للاشادة به ومعاونته على الصعود على سلالم المجد.

وكان «عبدالوهاب» إذا زار التابعي في بيته ذهب إلى غرفة نومه وفتح دولاب ملابسه وأخذ منه أي رباط رقبة يعجبه، ويفتح خزانة اسطواناته ويختار أية قطعة موسيقية يريدها!

وكان الشعب منقسما بين «أم كلثوم» و«عبدالوهاب» وانضم «التابعي» إلى حزب «عبدالوهاب»، وأصبح ينتهز كل فرصة للسخرية بـ«أم كلثوم»!.

ثم أصبح بعد ذلك من أصدق أصدقاء أم كلثوم..

وذات يوم وقع التابعي في هوى المطربة «اسمهان».. وقرر أن يتزوجها ووافقت اسمهان، ووضع في أصبعها دبلة الخطبة، ووضعت في اصبعه دبلة الخطبة!

وكنت يومئذ رئيس تحرير مجلة «آخر ساعة»، وكان «علي أمين» سكرتيرا للتحرير.. وكنا نعارض هذا الزواج بشدة لأن اسمهان كانت مطربة عظيمة، ولكنها امرأة هوائية، تحب في الصباح وتكره في المساء.

ولاحظنا أن التابعي منذ أحب اسمهان أصبح يهمل عمله، ويتابع أخبار «اسمهان»، ولا يتابع أخبار الوزارة! وكان له أكثر من مندوب في بيت

«اسمهان» ، يوافونه بأخبارها ، ومن يزورها ، ومن يتكلم في التليفون ، ومن ضحكت له . .

وكان التابعي يحرص على مقابلة هؤلاء المندوبين أكثر من حرصه على مقابلة مندوبي الجريدة والمحررين فقد أصبحت الفنانة الجميلة دنياه كلها !

وكان «التابعي» غيورا على «اسمهان» ، وكانت هى غيورة عليه ، وكان «التابعي» إذا غار احترق ، وكانت «اسمهان» إذا غارت اختفت . . ثم يحل الوفاق بعد الخصام ، وبعد أيام تعود الحرب من جديد بين العاشقين ، و يتبادلان الكلمات والاتهامات . . وبعد يومين يتبادلان القبلات !

كان التابعي روميو وعطيل ومجنون ليلى في وقت واحد !

وذهبت أنا و«علي أمين» إلى «أم كلثوم» وكانت صديقة لنا . . وطلبنا منها أن تنقذ أستاذنا «التابعي» من أن يغرق في بحر اسمهان !

وقالت «أم كلثوم» : وماذا تريدون منى أن أفعل ؟

قلنا : أن تتزوجي أنت «التابعي» لتنقذيه من الغرق !

وضحكت «أم كلثوم» وقالت : أنقذ «التابعي» من الغرق . . لأغرق أنا ؟! «التابعي» لا يصلح زوجا لي ! التابعي تزوج الممثلة «زوزو حمدي الحكيم» ولم يدم الزواج سوى شهر واحد وطلقها . . وذهبنا إلى التابعي وقلنا له إذا تزوج من «اسمهان» فانني سأستقيل من رئاسة التحرير ، و يستقيل «علي أمين» من منصب سكرتير التحرير . .

وفوجىء «التابعي» بهذا التهديد الصبياني ، وأصر أن يتزوج «اسمهان» لتذهب «آخر ساعة» إلى الجحيم !

وفجأة . . اكتشف «التابعي» في نفس اليوم أن اسمهان أحبت شخصية كبيرة من وراء ظهره فمات الحب الكبير بالسكتة القلبية !

وفي اليوم التالي بدأ قصة غرام مع ابنة أحد الباشوات !

فقد كانت حياة التابعي عشقا مستمرا ، يخرج من حب إلى حب ، وكان قلبه

يتغير مع فصول السنة! كان يسافر مرتين إلى أوربا كل عام، وفي كل مرة يقع في حب جديد، حبيبة للصيف وحبيبة للشتاء! وكان يمضي ستة أشهر من السنة في مصر، فيحب مصريات وفسطينيات ولبنانيات وسوريات، كان قلبه مثل الأمم المتحدة فيه ممثل لكل دولة من دول العالم!

وكان شخصية متناقضة، كان يتولى بنفسه مراجعة حسابات مجلة «آخر ساعة» يدقق في كل مليم، و يعيد جمع وطرح وضرب كل عملية حسابية عدة مرات..

أذكر أنه ذات يوم أبقانا معه في مكتبه من الساعة الثامنة مساء إلى منتصف الليل يبحث عن ثلاثة قروش ناقصة في حساب المجلة، ووجد الغلطة الحسابية في آخر الأمر، فأخذني أنا وجميع محرري المجلة بعد منتصف الليل إلى صالة «بديعة» وكانت يومئذ في شارع «عماد الدين» وأنفق في تلك السهرة مائة جنيه عندما كانت مائة جنيه تساوي عشرة آلاف جنيه في هذه الأيام!

وهو يحرص أن يكتب في «أجندة خاصة» كل مبلغ أنفقه، وفي صفحات الأجندة تجد مفارقات غريبة مثل خمسة مليمات ثمن جريدة «الأهرام» مائة وعشرين جنيها سهرة «بديعة مصابني».. خمسة قروش فنجان قهوة في قهوة «الأنجلو».. مائة وخمسين جنيها ملابس من الخياط «ماركو».. خمسة مليمات مسح الحذاء.. ثلاثة قروش بن.. خمسين قرشا مصاريف المطبخ.. سبعين جنيها هدية لـ«جولييت»!

وإذا قرأت أجندات التابعي طوال السنوات الماضية استطعت أن تعرف تطور سعر كيلو البامية الخضراء من سنة ١٩٣٠ إلى سنة ١٩٧٦..

وقلم التابعي رشيق أنيق.. أحيانا يشبه أغصان الفل والياسمين، وأحيانا يشبه السيف، أو الخنجر، أو المدفع الرشاش..

لا يحب الذين يدافع عنهم، ولا يكره الذين يهاجمهم.. لا يحقد على عدو ولا يطمئن إلى صديق.. يندفع كالسهم، و يصمد كالجبل.. يهوى المعارَضة ويمقت التأييد.. وإذا عارض أشفق على خصمه وهو يذبحه، وإذا أيد سخر بزعيمه وهو يدافع عنه.. وفدي متحمس على الورق، ومستقل الرأي في الحقيقة، صادق الملك

«فاروق» وخاصمه، وتحمس لـ«النحاس» وانتقده، وأحب «النقراشي» وعارضه، وطالب بالدستور والديمقراطية ثم طالب بوقف الحياة النيابية في مصر لمدة ثلاثين عاما!

هو فنان أكثر مما هو صحفي.. كانت هوايته أن يجمع قلوب الممثلات والراقصات وكأنه يجمع طوابع البريد.

وذات يوم أحب سيدة من أسرة كبيرة حبا جارفا، وسألته عن كل امرأة عرفها في حياته.. وقال لها إنه سيكتب مقالا كل أسبوع في مجلة «آخر ساعة» عن كل امرأة عرفها، وجمع هذه المقالات كلها في كتاب «بعض من عرفت».. وكان من أروع ما كتب.

عرفته سنوات طويلة، عرفته عبقريا، إذا كتب.. وشابا إذا عشق.. ومقاتلا عنيفا إذا حارب وعاشقا مجنونا إذا أحب..

وعرفته رجلا له مزاج في الكتابة.. إذا حوصر عمل ١٨ ساعة كل يوم.. وإذا أفلت من الحصار مكث ستة أشهر دون أن يكتب مقالا واحدا.. التحدي يثير نشاطه ويقوي خياله ويبرز عبقريته، والرخاء يجعل قلمه يسترخي، وعقله يستريح، ويفضل أن يتمدد على شاطىء البحر في كابري على أن يجلس في مكتبه بميدان التحرير.

كتب سلسلة مقالات رائعة نشرها في مجلة «آخر ساعة» عن قصة غرامه باسمهان، هذه المرأة الساحرة التي فتنت القلوب..

وقد غيرت هذه المقالات تاريخ حياته!

فقد أحب قارئة أعجبت بمقالاته، أطول قصة حب في حياته!

ومن الغريب أن تخلق قصة حب قديم قصة حب جديد!!

وتزوج من قارئة قصة حبه لاسمهان، بعد أن كان قد أقسم ألا يتزوج إلى الأبد، بعد أن فشلت زيجته لاسمهان!

وعاد التابعي شابا من جديد ودامت قصة زواجه السعيد من سنة ١٩٤٦ إلى أواخر السبعينيات، كان عندما تزوج في الخمسين من عمره، وكانت القارئة التي أحبته في العشرين من عمرها.

ومات بين ذراعي المرأة التى أحبها أكثر من ثلاثين عاما!

وقبلها كانت أطول قصة حب في حياته لا تدوم أكثر من ستة شهور!

هذه قصة أحد سلاطين الحب في القرن العشرين!





أم كلثوم الأخرى

عرف الناس أم كلثوم، وأنا عرفت أم كلثوم الأخرى، عرفوا الأسطورة وعرفت الإنسانة! عرفوها بخيلة وعرفتها كريمة، عرفوها فوق المسرح والأضواء مسلطة عليها، وصوتها يملأ الدنيا متعة وهناء، وعرفتها في غرفتها الصغيرة في الطابق العلوي من بيتها منزو ية فوق كنبة صغيرة تبكي في صمت!

وتحدثت الدنيا كلها عن جريمة هدم فيلا أم كلثوم في الزمالك، وأصبحت ألسنة الناس مشانق يعلق فيها ورثة أم كلثوم العاقون الذين باعوا فيلا أم كلثوم الخالدة! وقد يذهل الناس إذا عرفوا اليوم أن أم كلثوم لم تعتبر «فيلتها» هذه أثرا تاريخيا يجب أن تحافظ عليه الأجيال القادمة، بل الذي حدث أنها أخبرتني أنها تريد هدم هذه الفيلا و بناء عمارة من عدة طوابق، وأخبرت الأستاذ أحمد عناني مدير شركة مصر للتأمين في ذلك الوقت عن رغبتها وجاءها بالمهندس محمد رياض مدير بلدية القاهرة في ذلك الوقت و وضع رسومات العمارة الجديدة.

و بدأت أم كلثوم تبحث فعلا عن شقة تقيم فيها، واختارت أن تقيم في شقة في الزمالك تملكها ابنة عبدالفتاح يحيى باشا رئيس الوزراء السابق و بدأت مفاوضات استئجارها، وفجأة قامت ثورة ٢٣ يوليو و بعد فترة قليلة ذاعت شائعات أن الثورة تفكر في تأميم العمارات، وعندئذ عدلت أم كلثوم عن هذا المشروع!

و يستطيع ورثة أم كلثوم أن يجدوا في أوراقها الخاصة رسوم عمارة من عدة طوابق وقد اختارت فيها أم كلثوم شقة في الطابق العلوي على الناحية البحرية تطل على النيل لأن أم كلثوم كانت تكره الحر كرها شديدا.

أما البيت الذي كانت أم كلثوم تشعر أنه بيت تاريخي شهد كفاحها الأ ول فهو بيت صغير، مبنى بالطوب النيء، له عدة أبواب تطل على حوش، وكان وراء كل باب حجرة صغيرة طولها ثلاثة أمتار وعرضها متران، وفي واحدة من هذه الغرف

ولدت أم كلثوم وعاشت مع أبيها الشيخ ابراهيم، وأمها فاطمة وأخيها خالد وأختها سيدة!

وفي هذه الغرفة عاشت أم كلثوم وكبرت وتعلمت الغناء، ومنها طافت كل قرى مصر فوق ظهر حمار تغني في الأفراح وتنشد الأناشيد في الموالد والأعياد، ومن هذه الغرفة الصغيرة، انطلقت إلى القاهرة بعد أن ذاع صيتها في كل قرى مصر في الوجه البحري والصعيد!

ولهذا فإن أم كلثوم كانت تعتز بهذه الحجرة و بأرضها التي نامت عليها قبل أن تغتني وتشتري المرتبة الأولى في حياتها، وكان والدها يصر على أن تنام هي وأختها وأمها فوق المرتبة، و ينام الأب وابنه خالد على الأرض، إلى أن استطاع الشيخ ابراهيم شراء المرتبة الثانية!

فرجل الأعمال السعودي الذي اشترى فيلا أم كلثوم لم يهدم الفيلا، وإنما فعل بعد ثلاثين سنة ما تمنت أم كلثوم أن تفعله سنة ١٩٥٢!

وكانت مصر كلها تقول: إن أم كلثوم بخيلة شحيحة، في الوقت الذي كانت تدفع في الخفاء مرتبات شهرية لعشرات الأسر، وتعتبر هذا سرا من الأسرار الحربية التي لا يجوز افشاؤها لأقرب المقربين لها، وكم من مهندسين وأطباء وقضاة ساعدتهم حتى وصلوا إلى مناصب مرموقة.

وحدث مرة أن جاءني أحد أفراد فرقة أم كلثوم وقال لي:

ـــ أنا أعرف أنك صديق لأم كلثوم، هل يرضيك أن أذهب إليها صباح اليوم وأقول لها إنني أريد أن أقترض منها خمسة جنيهات، لأن ليس في بيتي قرش واحد لإطعام زوجتي وأولادي، وإذا بأم كلثوم ترفض أن تقرضني الخمسة جنيهات، مع أنني أعمل في فرقتها منذ ١٥ سنة!

وهالني موقف أم كلثوم المخزي واستنكرته، و بعد خروج الموسيقي طلبتها في رقم تليفونها وكان ٨٠٨٠٨٠ وسألتها:

ـــ هل صحيح أنك رفضت أن تقرضي فلانا خمسة جنيهات؟

قالت: نعم رفضت.

قلت: وهل فعلت ذلك بعد أن قال لك أن ليس في بيته قرش واحد؟!

قالت: نعم.

سألتها معاتبا: كيف تفعلين هذا يا أم كلثوم؟

قالت: لأنني امرأة بخيلة!

قلت: أنا أعرف العكس وأعرف أن أهم صفاتك الوفاء لمن عملوا معك!

قالت: أنت لا تعرفني..

قلت: بل أعرفك تماما..

وضحكت أم كلثوم وقالت: سأقول لك الحقيقة بشرط ألا تقولها لمخلوق، إن مصلحتي أن يقول الناس عني إنني بخيلة حتى يبتعد عني النصابون والأفاقون، إنني علمت أن هذا الموسيقي كان يسهر في بيت الموسيقار فريد الأطرش أمس، وخسر على مائدة القمار ثلاثمائة جنيه، فأردت أن أؤدبه ليعرف ذل لعب القمار ورفضت أن أعطيه الخمسة جنيهات، وبعد خروجه اتصلت بزوجته تليفونيا وأخبرتها بأنني سأرسل لها مع سائقي خمسين جنيها، بشرط ألا تخبر زوجها، وتتركه يدوخ ويتعذب ويشحذ حتى يعرف مرارة عقاب لاعب القمار!

وكان الموسيقي يحكي لكل من يقابله قصة بخل أم كلثوم، وأم كلثوم فرحة وسعيدة بانتشار قصة بخلها حتى إن بعض الناس أطلق عليها «أم إسرائيل لا أم كلثوم».

وكانت إذا سمعت عن فنانة مريضة أسرعت إليها ونقلتها إلى المستشفى ودفعت مصاريف علاجها، وحذرتها أن تفتح فمها وتقول لإنسان ما فعلت، وأنذرتها بأنها إذا تكلمت فإنها ستقاطعها إلى الأبد!

وسكتت من تعلم وتكلمت من لم تعلم، وكانت أم كلثوم تقول: إن الذين يتحدثون عن بخلي يدافعون عني، يبنون حولي سورا عاليا يصد النصابين والأفاقين

والطامعين!

وكان أسعد يوم في حياتها يوم أنعم عليها الملك فاروق بنيشان الكمال.

فقد كان النادي الأهلي بالجزيرة يقيم حفلة في حديقة تغني فيها أم كلثوم وفوجئنا أثناء الحفلة بالملك فاروق يدخل الحفلة ويجلس على المائدة التي كان فيها أحمد حسنين باشا رئيس النادي، وكنت في ذلك الوقت عضوا في مجلس إدارته وغنت أم كلثوم أغنية «هلت ليالي القمر»، ولما انتهت الأغنية ناداني الملك وطلب مني أن أصعد إلى المسرح وأعلن.. أن الملك أنعم على أم كلثوم بوسام الكمال، وكانت الاذاعة تذيع الحفلة فسمع النبأ سكان مصر وسكان البلاد العربية، وكانت أم كلثوم سعيدة بهذا الوسام، فقد كانت أول مرة في مصر ينعم فيها على فنان برتبة أو نيشان.

و بقدر سعادة الشعب بهذا الوسام فقد كانت تعاسة الأميرات وزوجات رؤساء الوزارات بأن ينعم الملك بوسام الكمال على مغنية.. فقد كان لا ينعم بهذا الوسام إلا على الأميرات وزوجات رؤساء الوزراء..

وقالت إحدى الأميرات: أنا سأرد إلى الملك «النيشان بتاعه» وقالت زوجة رئيس وزارة سابق: بكره سينعم فاروق بنيشان الكمال على الراقصة تحية كاريوكا!

وقالت زوجة رئيس وزارة آخر: يجب أن تجتمع كل حاملات وسام الملك لنكتب خطاب احتجاج إلى الملك.

وسمعت أم كلثوم أنباء الاحتجاجات وتحول فرحها إلى شقاء و بكت لهذه الاهانات التي تنهال فوق رأسها وترددها صالونات المجتمع الراقي.

و بينما كانت تبكي دق جرس التليفون، ورفعت السماعة، وسمعت صوتا يقول لها:

ـــ أنا صفية زغلول! مبروك يا أم كلثوم بنيشان الكمال، أنا يشرفني يا أم كلثوم أنك تحملين نيشان الكمال الذي أحمله!

وقالت أم كلثوم والدموع تملأ عينيها: المكالمة التليفونية دي عندي أهم من نيشان الكمال.

وأحست أم كلثوم بالفخر بأن أعظم سيدة في مصر وهى أم المصريين وزوجة سعد زغلول تقوم بهذه المبادرة النبيلة وسط الاهانات التي تسقط على رأسها !

وذهبت أم كلثوم إلى أم المصريين تشكرها ، ومنذ ذلك اليوم أصبحت أم كلثوم تتردد باستمرار على صفية زغلول .

وكانت صفية زغلول تطرب لأغانيها الوطنية والدينية وخاصة لأغنيتها « اذكروا سعداً » التي نظمها « أحمد رامي » بعد وفاة سعد وغنتها أم كلثوم !

ولم تكن أم كلثوم تعيش في بيتها وحدها قبل أن تتزوج ، بل كانت تعيش مع قبيلة ، في الطابق الأرضي كانت تقيم أمها فاطمة إلى أن توفيت ، وأختها سيدة إلى أن انتقلت في شقة مستقلة ، وأخوها خالد إلى أن كبر أولاده واستأجر لهم شقة في الزمالك ، وكان يقيم معها في الطابق العلوي ابنة أختها سعدية وزوجها وجدان طاهر الذي كان وكيلا للنيابة وأصبح بعد ذلك مستشارا .

وكانت متعة أم كلثوم في أطفال سعدية ، وعندما كان طفلها الأول « وجدي طاهر » مولودا صغيرا احتضنته أم كلثوم ، وغمرته بحبها ، وأحاطته برعايتها ، وإذا استيقظت من نومها طلبته ، وإذا عادت إلى بيتها استدعته .. وكان وجدي الصغير شيئا هاما في حياة أم كلثوم فقد أبرز أمومتها وسيطر على اهتمامها .. و بعد سنوات قليلة بدأت تزهده ولم تعد تهتم به الاهتمام العجيب الذي كانت تحيطه به ، فلاحظت ذلك وسألتها عن السبب فضحكت وقالت : « أصبحت له إرادة » ! فقد عشقته أم كلثوم عندما كان بلا إرادة ، تناديه فيلبي وتأمره فيطيع ، وتستدعيه فيحضر ، وعندما بدأ يكبر فقدت أم كلثوم سيطرتها عليه فبدأت تفقد اهتمامها به .

ثم رزقت سعدية بمولود آخر أسمته « أحمد » وإذا بأم كلثوم تجن بأحمد الصغير ، وتعشقه ، فإذا سافرت افتقدته وإذا عادت كانت أول من تسأل عنه .. ثم تتكرر المأساة ، و يتكرر العشق كلما رزقت سعدية بمولود جديد ، و ينتهي العشق عندما تصبح للمولود إرادة و يقول لها « لا » !

وقبل ذلك كانت تحس بهذه الأمومة مع أبناء شقيقها دسوقي ومحمد وسعدية وسكينة وممدوح ورفعت .. كانت تعاملهم كبناتها وأولادها ، وكانت تفرح إذا رزق

واحد منهم بولد وتصيح وهى تحدثني وتقول: أصبح لي حفيد! إياك أن تنشر الخبر حتى لا يسموني «ست كلثوم بدل أم كلثوم!».

ولكن هناك شخصية مجهولة في حياة أم كلثوم وهى سنية اسماعيل وهى طفلة من طماي الزهايرة قرية أم كلثوم، وكان أبوها ابن عم والد أم كلثوم، جاءت الفلاحة الصغيرة إلى مصر وعمرها سبع سنوات، وما كادت أم كلثوم ترى الفلاحة الصغيرة حتى طلبت منها أن تبقى معها ولا تعود إلى قريتها أبدا! وكانت أم كلثوم تقيم في شقة في عمارة بهلر بالزمالك، وأصبحت سنية أمينة أم كلثوم الخاصة وسكرتيرتها وكاتمة أسرارها وكرست سنية حياتها لأم كلثوم ورفضت أن تتزوج، وأصبحت أم كلثوم تأتمنها على أموالها وجواهرها وأعطتها كل مفاتيح أدراجها التي تحوي أوراقها الخاصة، وكانت سنية هى التي ترد على كل تليفون يدق، واستطاعت بذكائها الفردي أن تعرف من الذي تريد أم كلثوم أن تكلمه ومن الذي تقول له «الست نائمة» أو «الست خرجت» وأصبحت سنية أهم شخصية في حياة أم كلثوم، إذا اختلفت أم كلثوم مع أي من أقاربها كانت وسيطة الصلح وإذا طلب أحد أقاربها شيئا من أم كلثوم كانت سنية هى الرسول الوحيد، واستطاعت سنية أن تفهم أم كلثوم جيدا، تعرف متى تكون أم كلثوم مستعدة لإجابة أي طلب، ومتى تكون في حالة نفسية ترفض فيها أي طلب، حتى من أعز إنسان لديها، كانت أم كلثوم وهى سعيدة مستعدة أن تصبح «خاتم الطائى» فإذا كانت في حالة نفسية سيئة أو في حالة مرضية اسودت الدنيا في عينيها وتحول الناس إلى خناجر وسكاكين!

وذات يوم شعرت أنها على فراش الموت وكانت قد أجرت جراحة خطرة واستدعتني وهى تفيق من المخدر وقالت لي:

ـ إنني أشعر أنني سأموت وأريد أن أكتب وصية لسنية أعطيها ثلث ثروتي حسب الشرع الإسلامي.

ونجت أم كلثوم من الموت الذي كانت تتوقعه وعاشت بعد ذلك ٣٣ سنة... وذات يوم قالت لي أم كلثوم: احضر حالا... حدثت في بيتي مصيبة! وتركت مكتبي وذهبت إليها في بيتها، ووجدتها في حالة ثورة غاضبة وقالت:

ـــ حدثت مصيبة! إن سنية تحب موظفا صغيرا عند زوج سعدية، رأته وهو يحمل دوسيهات القضايا كل يوم إلى زوجها وجدان طاهر، وأحبته وقررت أن تتزوجه، وأنا كنت أتمنى أن تتزوج سنية من وكيل نيابة أو قاض لا من هذا الموظف الصغير جدا! وأنا أعتقد أنه لن يسعدها، إنني أحس أن سنية ابنتي، وأنا أتمنى أن تتزوج رجلا يسعدها، وسوف أعيش قلقة طول حياتي وسنية في رعاية رجل لا أثق به ولا أأتمنه عليها.

وقلت لها: إن من رأيي أن نترك سنية تختار الرجل الذي يعجبها، فهي راشدة وعاقلة، وربما تكون أتعس امرأة في مصر إذا تزوجت ابن باشا، وربما تكون أسعد امرأة في مصر وهي متزوجة هذا الموظف الصغير جدا!

قالت: المسألة ليست وظائف وإنما المسألة إنني واثقة بأن هذا الشاب لن يسعدها بل سوف يتعسها! إن تجربتي في الحياة تعطيني الحق أن أتدخل لأن سنية لا تجارب لها وهذا أول رجل غريب تراه في حياتها! وأنت تعرف أنني كنت سأعطي سنية ثلث ما أملك، ولكن لو تزوجت هذا الشاب فلن أعطيها مليما..

وطلبت مني أم كلثوم أن أستدعي سنية في غرفة مجاورة وأتحدث معها على انفراد وأحاول إقناعها ـــ واستدعيت سنية وقلت لها: إن أم كلثوم ثائرة على هذا الحب أولا لأنك أخفيتيه عنها، وهي تأتمنك على كل شيء فكيف لا تأتمنينها على سرك؟

قالت: إنني فضلت أن تخبرها سعدية بنت شقيقتها بذلك لأنني لم أشأ أن أصدمها!

قلت: إن أم كلثوم قالت لي: إنها أوصت لك بثلث ثروتها، وإنك إذا تزوجت هذا الشاب سوف تحرمين من هذه الثروة الطائلة!

قالت سنية: أنا لا تهمني الثروة..

قلت: هل تعرفين أنك تضحين بمليون جنيه؟

قالت: إنني أفضل عبدالحميد على المليون جنيه!

وكان عبدالحميد هو اسم الموظف الصغير الذي أحبته!

قلت لها: أنا أعرف أنك تحبين أم كلثوم، وهى الآن مريضة ومحتاجة إليك فكيف تتركينها في هذه الظروف؟!

قالت سنية: لن أتركها سأبقى معها وأنا مستعدة أن أقيم في غرفة في البدروم مع زوجي!

وعُدْتُ إلى أم كلثوم وقلت لها: إن سنية فضلت الموظف الصغير جدا على المليون جنيه!

قالت أم كلثوم: كنت واثقة أنها ستفضل ذلك، ولكني أعتقد أنها ستندم في يوم من الأ يام، إنها تعيش هنا «ست» وسوف تعيش مع هذا الشاب «خادمة»!

قلت لها: أنت تعرفين أن الحب هو قصر ملكي! العاشق يتصور أنه يعيش مع حبيبته في الجنة حتى ولو كان في الجحيم!

وسمع عبدالحميد برفض أم كلثوم فاستقال من وظيفته الحكومية ليعمل سائق سيارة أم كلثوم!

وقالت لي أم كلثوم: إن سنية ترغمني أن أرى وجه عبدالحميد كل يوم بعد أن كنت لا أريد أن أرى وجهه أبدا!

وخضعت أم كلثوم لإرادة أمينتها التي تحبها، وأقامت مع عبدالحميد في بيت أم كلثوم، وقليلا قليلا بدأت تطمئن إلى عبد الحميد وتراه في غير الصورة المشوهة التي رأتها في أيامه الأ ولى.

وكانت أم كلثوم تشعر بأنها مدينة بحياتها لسنية، فقد حدث في يوم من الأ يام أن كانت أم كلثوم في حالة نفسية سيئة وقالت لسنية أريد أن أتمشّى قليلا على شاطىء النيل، وخرجت أم كلثوم من الفيلا، وأحست سنية بانقباض شديد، ووجدت سنية نفسها تجري خلف أم كلثوم على شاطىء النيل، وأمسكت بأم كلثوم قبل أن تلقي بنفسها في النيل...

وقالت لي أم كلثوم: لا أعرف كيف حدث هذا؟ إنني مؤمنة بالله، ولكن في صباح هذا اليوم رأيت أن الدنيا كلها تسود في وجهي، يئست من الحياة، فقدت عقلي

في لحظة يأس قاصمة، ووجدت نفسي أمام شاطىء النيل أحاول أن ألقي بنفسي فيه وإذا بيد غليظة تمسك بي وتجذبني.. والتفت ورائي فزعة فوجدت سنية تحتضنني وأفقت من جنوني وكانت هذه أول مرة في حياتي أفكر فيها أن أنهي حياتي!

وفي سنة ١٩٥٤ تزوجت أم كلثوم الدكتور حسن الحفناوي الأستاذ بكلية الطب ورحبت بأن يحتفظ بأم أولاده ولا يطلقها، وأقام الدكتور الحفناوي معها في فيلتها، وغادرت بنت أختها سعدية الفيلا مع زوجها وأولادها وانتقلت إلى شقة قريبة، وبقت سنية وحدها هى وزوجها يقيمان مع أم كلثوم..

وكان عبدالحميد يحس أنه جزء من عائلة أم كلثوم فهوزوج ابنتها سنية!

وكان الدكتور الحفناوي يعامله كسائق سيارة أم كلثوم.

وهنا بدأ التصادم وطلب الدكتور الحفناوي طرد عبدالحميد ووافقت أم كلثوم على أن تستمر سنية في خدمتها.

وقالت أم كلثوم لسنية: معلهش يا سنية! لازم عبدالحميد يمشي من البيت.

قالت سنية: إذا خرج عبدالحميد سأخرج معه.

ومشت سنية، ورفضت أن تأخذ شيئا معها «لا فستان ولا مكافأة ولا مليم» كل ما أخذته هوزوجها عبدالحميد!

وكانت قد عاشت مع أم كلثوم أكثر من ثلاثين عاما، بينها ثلاث سنوات وهى متزوجة الدكتور الحفناوي.

وسمعت من أم كلثوم موقف سنية ورفضها أن تتخلى عن الرجل الذي أحبته وكنت في ذلك الوقت أحد صاحبي أخبار اليوم.. فاستدعيت عبدالحميد وعينته في «أخبار اليوم» بنفس المرتب الذي كان يتقاضاه من أم كلثوم.

ومضت الأيام وأصبح عبدالحميد يتقاضى مرتبا كبيرا من أخبار اليوم.

وأرسلت أم كلثوم واستدعت قريبة لها اسمها «إحسان» وهى فلاحة من طماي الزهايرة وعينتها أمينة خاصة لها، وبقت تخدمها من عام ١٩٥٧ إلى عام ١٩٧٨

وتفانت في خدمتها والإخلاص لها، و بعد وفاة أم كلثوم اختارتها أميرة عربية من صديقات أم كلثوم وجعلتها وصيفة لها..

* * *

ودخلت السجن، ووضعوني تحت الحراسة، وصادروا أموالي في البنك وكان القرار أن أموت جوعا، وسدوا عليّ جميع المساعي حتى لا يصلني قرش واحد من أخي «علي» الموجود في لندن، كنت أعرف أن كثيرين من أصدقائي سوف يقبلون أن يقرضوني في هذه المحنة، ولكنني رفضت أن أحرجهم لأنني أعرف أنهم كانوا يقبضون على كل من يمد يده لمساعدة مسجون سياسي، وفكرت أن ألجأ إلى أم كلثوم وقلت لها: إنني محتاج فورا إلى مائتي جنيه، وأحب أن أنبهها أن هذا المبلغ سوف يعرضها لتوضع أموالها كلها تحت الحراسة، وقلت لها إنني لن أتضايق إذا رفضت أن تدفع هذا المبلغ وأن الظروف لا تسمح لها بأن تقرضني هذا المبلغ وقلت في ختام رسالتي: إنني قد لا أستطيع أن أردّ المبلغ قبل عشر سنوات، وقد لا أستطيع أن أرده لها أبدا.

وأرسلت لي أم كلثوم خمسمائة جنيه وقالت: إنها مستعدة أن ترسل لي خمسة آلاف!

وحدث أثناء سجني: أن جلست أم كلثوم مع الرئيس جمال عبدالناصر والمشير عبدالحكيم عامر والموسيقار محمد عبدالوهاب يتناولون العشاء على مائدة في نادي الضباط في مساء يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٦٥ وكان هذا عقب القبض عليّ بيومين وقال عبدالناصر لعبدالوهاب: طبعا انت زعلان علشان قبضت على مصطفى؟ وقال عبدالوهاب: أبدا يا أفندم.. المسيء يلقى جزاءه.. والتفت عبدالناصر إلى أم كلثوم وسألها رأيها هامسا فقالت: أعرف مصطفى طول حياته وأعرف وطنيته وأعرف كيف دخل كل مليم في أخبار اليوم، وأشاح عبدالناصر بوجهه فاستمرت تدافع عني.

ثم سعت أم كلثوم عند عبدالناصر والمشير عامر للإفراج عني وفشلت.

وذات يوم كنت في زنزانتي في ليمان طره، وجاء عسكري يقول لي: الدكتور

عبدالقادر إسماعيل كبير أطباء السجن يريدك فورا.

وذهبت إليه، ونظر لي كبير الأطباء شزرا وقال لي: اخلع الجاكتة! ودهشت من لهجة وغطرسة الأمر فقد كان رجلا وديعا مؤدبا، وتضايقت أنه يكلمني بهذا الجفاء أمام المسجونين الآخرين الذين يملأون غرفة العيادة، وخلعت الجاكتة وإذا بكبير الأطباء يقول لي، بنفس اللهجة القاسية: ارقد على مائدة الكشف.

وخضعت ونمت على المائدة، ووجدت الطبيب يضع سماعته على جسمي العاري، و ينحني عليّ و يقول لي هامسا: «أم كلثوم تقول لك: اسمعها يوم الخميس القادم، إنها ستغني قصيدة فيها بيتان أوثلاثة توجههم لك..!

وفهمت عندئذ سرَّ الشخط والنطر، فقد كان كبير الأطباء يريد أن يبلغني الرسالة السرية!

وجلست في زنزانتي أياما أنتظر قصيدة أم كلثوم والأبيات الثلاثة.. وفي مساء الخميس غنت أم كلثوم قصيدة الأطلال، وكانت إذاعة السجن تذيع الحفلة كلها بناء على الحاح المسجونين.

وفجأة سمعت أم كلثوم تغني:

أعطني حريتي! أطلق يديا!
إنني أعطيت ما استبقيت شيئا!
آهِ من قيدك، أدمى معصمي!
لِمَ أبقيه؟ وما أبقى عليا؟
ما احتفاظي بعهود لم تصنها!
وإلى ما الأسر والدنيا لديا!

انتفضت في فراشي وأنا أسمع هذه الأبيات، أحسست كأن أم كلثوم تغني لي وحدي، أحسست أنها ترفع صوتي الخافت، تدوي بصوتي المحبوس، تقول ما كنت أتمنى أن أقوله للدنيا كلها!

أحسست أنني أتلقى من أم كلثوم رسالة تقتحم أسوار السجن، وتكسر قضبان

الزنزانة وتحطم القيود والأغلال!

وقد بقي صوتها يدوّي في أذني وهي تغني هذه الكلمات أياما طويلة، بغير إذاعة وبغير راديو وغير اسطوانة!

ولم تتوقف أم كلثوم عن المطالبة بالإفراج عني..

وذات يوم صحبت أم كلثوم ابنتي رتيبة وابنتي صفية إلى بيت الرئيس «أنور السادات» وقابلت معهما السيدة «جيهان».

وتلقت وعدا من السادات بأنه سيفرج عني بعد المعركة مباشرة! وأنه يعرف أنني مظلوم! وأرسلت أم كلثوم في السجن ما قاله السادات، ولم أصدق السادات يومها فقد كنا يئسنا يومها أنه سيحارب!

وتم عبور ٦ أكتوبر وانتصرت مصر، وأفرج عني أنور السادات، وذهبت أشكر أم كلثوم في بيتها وأعيد لها الخمسمائة جنيه ورفضت أن تسترد المبلغ وغضبت غضبا شديدا لإصراري على رد الدين... وفشلت في تسديد الدين!

وكنت أتحدث إليها كل يوم تقريبا، وكانت أحيانا تكلف أمينتها إحسان أن تطلبني في بيتي أو مكتبي و يستمر حديثنا ساعة كاملة!

وذات يوم طلبتني أم كلثوم وقالت لي إنها تريد أن أعد لها وصية بشرط ألا يعرف بأمرها أحد، وألا أطلع عليها أحدا.

وقلت إنني يجب أن أطلع عليها محاميَّ الأستاذ شوكت التوني، وسألتني: هل تثق به؟ قلت: كما تثقين بي! قالت ضاحكة: أنا لا أثق بك! إنني أريد أن أوصي بثلث ما أملك، طبقا للشريعة الإسلامية لسنية، ولأولاد أخي المرحوم خالد، ولإحسان التي تعمل «أمينة لي» وكل شرطي ألا يعرف إنسان بهذه الوصية، قلت: إن هذا يلزم أن توثقي الوصية في الشهر العقاري، أو أن يجيء مندوب من الشهر العقاري إلى بيتك.

واجتمعت مع الأستاذ شوكت التوني وكتبنا الوصية، وإذا بأم كلثوم تمرض وتطلب أن تؤجل الوصية إلى أن تشفى.

وماتت أم كلثوم دون أن توقع الوصية، ولم تأخذ سنية ولا إحسان ولا أولاد وبنات أخيها خالد مليما واحدا!

* * *

ومنذ أيام التقيت بسنية وسألتها هل هى نادمة أنها فضّلت زوجها عبدالحميد على المليون جنيه؟

قالت: إن بناتي عندي «عفاف وعزة» أهم كثيرا من المليون جنيه!





وزير " المقالب " !

منذ أكثر من ثلاثين سنة كتبت كلمة تحت عنوان « سياسي بوهيمي » وقلت « رجل سياسي من الطراز الأول ، مهارته في أنه يستطيع أن يبني أصناما ، يطلب من الناس أن يعبدوها ، ثم يحطمها فجأة دون مناسبة ! لو كتب التاريخ على حقيقته لعرف الناس أنه كان يلعب بالزعماء ، وكان بعضهم في يده كقطع الشطرنج ، ينقلها من مكان إلى مكان ... وكثيرا ما قال « كش الوزير » فكش الوزير ! ولكنه سياسي بوهيمي ، كثيرا ما يسير في مقدمة المواكب ، والناس معجبة به مؤيدة له ... وفجأة تراه « يتشقلب » أمام الموكب ، أو يصفع أحد الزعماء على قفاه ... فيضحك الناس و « يبوظ » الموكب ! سره إنه يعرف نقط الضعف في الناس فيدخل منها ، يحدث العجوز عن شبابه ، و يثني على ذكاء الغبي ، و يوهم المنافق أنه أخلص المخلصين ، كل الناس يعرفون أنه رجل مقالب ، ولكنهم مع ذلك يصدقونه .

نزل من اللعب الكبير إلى اللعب الصغير ، ولعله وجد أن كل شيء في مصر قد انقلب رأسا على عقب ، فكان ضحية هذا المقلب ، فاذا به بين « الذيول » ومكانه بين « الرؤوس » .

وصدر هذا الكلام عام ١٩٥١ ولم أذكر يومها اسم السياسي الذي أعنيه ، وإذا بحفني محمود باشا يقبل عليّ و يسألني : من هو السياسي البوهيمي ؟ قلت له : شخصية خرافية !

قال : إن زوجتي وأولادي يقولون إن هذه الأوصاف تنطبق عليّ كل الانطباق !

قلت ساخرا : لعلها مصادفة ! يخلق الله من الشبه أربعين !

قال حفني باشا : لا أعتقد انها مصادفة ! ــ بيني و بينك ــ انني عندما أتطلع إلى الصورة أشعر أنني أتطلع في المرآة ! ولكني أوافقك أن سر نزولي إلى اللعب الصغير انني

لم أعد أرى في مصر كبيرا أضحك منه أو أسخر، انني لا أرى حولي في المناصب إلا أطفالا لهم شوارب ، وهم يبدون «مسخرة» كما هم ، وليسوا في حاجة إلى من يسخر منهم! ولهذا اتجهت إلى الصغار من الناس لعلي أكتشف فيهم كبيرا بعد أن يئست من وجود رجل كبير بين الكبار!

* * *

عرفت الرجل سنوات طويلة ، عشت لياليه الحلوة، قاسمته مقالبه الساخرة، حضرت أزماته الساخنة، عرفته شخصية لا تتكرر، يهرب من الأمراء ليعاشر الصعاليك ، يسخر من العظماء ويحتضن الفقراء ، شقيق رئيس وزراء مصر و يهاجمه ، متعته أن يعبث بالرجال الكبار، فيوقعهم في مأزق، و يدبر لهم المقالب ، ويحفر لهم الحفر ليقعوا فيها ، و يضحك ملء شدقيه وهو يرى ضحاياه الكبار نكتة في أفواه الصغار!

رجل بوهيمي يستيقظ من النوم عندما ينام كل الناس، يخرج من بيته عندما يعودون إلى بيوتهم ، يحارب الحاكم إلى أن يهوى من كرسيه ، وعندئذ يهرع و يتفانى في صداقته ، عدو للقادمين وحبيب للذاهبين ، يكره الرجل عندما يتولى السلطات ، و يعشقه عندما يهوى من مقعد السلطان.

كاتب ساخر ساحر، أديب يحفظ الشعر، فنان يعشق الجمال ، رجل كريم يعطي كل ما بجيبه لأول فقير يلقاه ، ثم يعيش باقي الشهر مدينا محتاجا محروما! كان في شبابه يملك ثروة هائلة ، أضاعها كلها على الناس، كانت متعته أن ينقذ غريقا في دين ، أو ينجد مظلوما من يد طاغية ، أو يسلط الأنوار على موهبة ضائعة في الظلام.

كانت مقالبه حديث الدنيا ، حدث مرة أنه كان يشهد مائدة قمار في كازينو سان استفانو برمل الاسكندرية ، وكان يجلس فيها المسيو شارول وكيل البارون امبان أغنى أغنياء مصر في تلك الأيام، وصاح أحد اللاعبين في شارول: أنت تغش في اللعب! .. وانتفض شارول اليهودي غاضبا ثائرا مزمجرا محتجا وقال: لو كان معي مسدس الآن لأفرغته في رأسك... وإذا بحفني محمود باشا يخرج بهدوء مسدسه من جيبه و يقول له: اتفضل مسدس يا مسيو شارول!

وتراجع مسيو شارول إلى الوراء مذعورا وهو يقول: بلاش هزار ياحفني! انت عاوز تودينى في داهية!

وهكذا كشف حفني باشا وكيل المليونير الذي كان أجبن من أن يضرب قلما لا أن يطلق رصاصة!

* * *

وأراد حفني محمود باشا أن يعين شابا محتاجا فقيرا في وظيفة صغيرة في وزارة الحربية وذهب إلى أحمد خشبة باشا وزير الحربية يوصي به خيرا!

وهاج وزير الحربية وقال إنه ألغى الوسائط ورفض المحسوبيات ومنع التوصيات وأنه لا يقبل وساطة ولا شفاعة ولا استثناء...

وفجأة قرأ حفني بك إعلانا في الصحف عن أن وزارة الحربية في حاجة إلى مترجم ممتاز يشغل وظيفة كبير المترجمين بمرتب كبير.

و بحث حفني محمود عن شاب يجهل القراءة والكتابة، وأعطاه إحدى بدلاته وحذاءه وقميصه ورباطة رقبة وصحب الشاب الجاهل معه إلى مكتب خشبة باشا وزير الحربية وقال له: أنت أعلنت في الصحف أنك تريد كبيرا لمترجمي وزارة الحربية يجيد العربية والإنجليزية؟

قال وزير الحربية: نعم!

قال حفني محمود: هذا الشاب يترجم بسبع لغات، الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والأسبانية والروسية واليابانية! ويمكن لمعاليك أن تعطيه أي مذكرة وتكلفه بترجمتها بأي لغة في خلال ٢٤ ساعة!

وأعطى الوزير المترجم مذكرة ضخمة باللغة العربية ليترجمها إلى اللغة الإنجليزية.

وصحب حفني محمود الشاب الذي يجهل القراءة والكتابة إلى بعض أصدقائه خريجي جامعة اكسفورد وسهروا طوال الليل يترجمون المذكرة إلى اللغة الإنجليزية،

وعاد حفني في الصباح ومعه الشاب إلى وزير الحربية وقدما له المذكرة فأعجب الوزير بالترجمة البليغة، وأعطى وزير الحربية المترجم مذكرة أخرى ليترجمها إلى الفرنسية وصحب حفني باشا الشاب إلى بيت عبدالرازق حيث يجتمع أعظم أدباء مصر الذين تخرجوا من فرنسا أمثال الدكتور طه حسين والدكتور محمود عزي والدكتور أحمد ضيف وعكفوا على ترجمة المذكرة، وأذهلت الترجمة وزير الحربية.

وحدث نفس الشيء في الترجمة الإيطالية والأسبانية واليابانية، وأسرع وزير الحربية وعين المترجم النابغة كبيرا لمترجمي وزارة الحربية بمرتب كبير..

وانتظر حفني محمود باشا أسبوعا وطلب عدلي يكن باشا رئيس الوزراء وقال له إن هناك فضيحة كبرى وقعت في يد المعارضة وهي أن وزير الحربية عين رجلا لا يقرأ ولا يكتب كبيرا لمترجمي وزارة الحربية!

وطلب عدلي باشا رئيس الوزراء خشبة باشا وزير الحربية تليفونيا وقال له: هل صحيح أنك عينت رجلا لا يقرأ ولا يكتب كبيرا لمترجمي وزارة الحربية! قال خشبة باشا محتدا: هذا كلام غير صحيح يا دولة الباشا أنا امتحنت هذا الشاب بنفسي! إنه عبقرية!

قال رئيس الوزراء: إنني أريد أن يجيء هذا الشاب فورا إلى مكتبي.

وتصور وزير الحربية أن رئيس الوزراء ينوي أن يسرق المترجم العبقري من وزارة الحربية و يأخذه إلى مجلس الوزراء فقال: إن وزارة الحربية في أشد الحاجة إلى هذا المترجم العبقري ولا تستطيع الاستغناء عنه ساعة واحدة! وقال عدلي باشا: إنني أريده لنصف ساعة فقط!

واستقبل رئيس الوزراء كبير المترجمين في مكتبه، وأراد أن يمتحنه، فإذا بالرجل يعترف أنه لا يقرأ ولا يكتب، ولا يعرف من اللغة الفرنسية إلا كلمة «بونجور»، ولا من اللغة الإنجليزية إلا «جود مورننج» ولا من اللغة الإيطالية إلا كلمة «مكرونة»!

وكانت فضيحة في مجلس الوزراء.

وخاصم خشبة باشا قريبه حفني محمود عدة سنوات، لا يزوره ولا يصافحه ولا

يكلمه!

* * *

وكانت متعة حفني محمود أن يدبر المقالب في الأصدقاء الذين يحبهم، وكان الفريق محمد حيدر باشا مديرا لمصلحة السجون، وكان حفني يعرف عنه أنه لا يحب السهر، و يذهب إلى فراشه في الساعة التاسعة مساء، ولا يكاد يستقر فيه حتى يستغرق في نوم عميق، وكان دائما يضع تليفونه بجوار فراشه استعدادا للطوارىء.

واتفق حفني محمود مع النائب يوسف الشريعي أن يوقظ حيدر باشا من نومه و يدق له التليفون بعد أن ينام و يتحدث معه النائب باللهجة الصعيدية، و يستيقظ وزير الحربية منزعجا و يرفع السماعة و يسمع صوتا صعيديا يقول له: آلو.. سعادة الباشا؟

ــ أنا حيدر..مين؟

ــ أنا ابوطالب!

ــ أبوطالب مين؟

ــ أيوه أبو طالب بلدياتك من المنيا ياباشا، ربنا يخليك ياسعادة الباشا، أنا ليّ شقيقان محكوم عليهما بالسجن المؤبد، واحد في سجن قره ميدان وواحد في سجن اسيوط، فيا تنقلهم الاثنين في أسيوط، ياتنقلهم الاثنين في قره ميدان، علشان أعرف أزورهم.

و يصرخ حيدر باشا بلهجتة العسكرية المطلوبة

ــ اسمع ياأبوطالب.. اقفل السكة واوع تكلمني في المسألة دي تانى!

و يسكت يوسف الشريعي أو أبوطالب، و ينتظر حتى منتصف الليل و يعود و يطلب حيدر باشا، و يوقظه من النوم و يقول إنه أبوطالب، و يصرخ حيدر في وجهه أنه إذا طلبه في البيت مرة أخرى فسوف يضعه مع شقيقيه في السجن!

و يبعد حيدر باشا التليفون عن فراشه و يعود و يستغرق في النوم.

وفجأة يدق حفني محمود باشا التليفون و يقلد صوت احمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكي، ولا يكاد يضع حيدر باشا السماعة على أذنه حتى ينقل يوسف الشريعى السماعة إلى أذنه و يقول: أنا أبوطالب!

وتكررت هذه المداعبة عدة أيام .. وذات يوم جاءه نائب ثقيل الدم يطلب منه أن يتوسط له في خدمة لدى مصلحة السجون.

وقال حفني محمود باشا للرجل الثقيل الدم: اذهب إلى مكتب حيدر باشا في مصلحة السجون وقل للسكرتير كلمة السر وعندئذ ستدخل عند حيدر باشا في الحال وتفتح لك كل الأ بواب!

وسأل الرجل ثقيل الدم: وما هي كلمة السر التي أقولها؟

قال حفني محمود باشا! قل للسكرتير في أذنه: الباشا يعرفني.. بس قل له «أبوطالب .. بره».

ودخل السكرتير إلى مكتب حيدر باشا وقال له: «هناك رجل يقول إن سعادتك تعرفه واسمه أبوطالب»!

وما كاد حيدر باشا يسمع اسم «أبوطالب» حتى قفز من مكتبه وخرج يحمل سوطه وانهال على النائب المحترم ضرباً وصفعاً!

ومن يومها لم يدخل النائب ثقيل الدم إلى مصلحة السجون!

ولم يدخل كذلك مكتب حفني باشا محمود!

* * *

وضاق حفني محمود بالحاح بعض نواب الجيزة ان ينقل مدرساً صغيراً من أهلها من بني سويف إلى الجيزة، وقال حنفي محمود إنه تكلم مع رئيس الوزراء في هذا الشأن فأبى، وتكلم مع هيكل باشا وزير المعارف في هذا النقل ورفض، وان ليس امامهم إلا الشيخ العسكري وهو ولي من أولياء الله الصالحين ورجل مبروك وصاحب خطوة ونصحهم بأن يدعوه لزيارة بلدتهم، وان يتوسلوا إليه ان ينقل قريبهم من بني سويف إلى الجيزة فيفعل ما لم يستطعه شقيقه رئيس الوزراء ولا صديقه وزير المعارف!

واتفق حفني محمود مع الشيخ العسكري وهو محرر القضايا الشرعية في الأهرام، وشيخ «مودرن» بمعنى الكلمة ان يقوم بدور ولي الله.

وسافرنا في موكب من السيارات إلى الجيزة تتقدمنا سيارة فضيلة الشيخ الأكبر ولي الله، واتفقنا فيما بيننا على أن نحترم ولي الله ونجله ونقبل يده، ونتبارك بلمس

جبته! وزغردت النساء وهلل الأطفال وتعالت الهتافات للشيخ العسكري صاحب الكرامات وصانع المعجزات، واجلسوا الشيخ فوق كرسي مذهب كبير، وأحطنا به في صورة المريدين والتابعين، وأقبلت وفود القرية والقرى المجاورة يرجون الشيخ العسكري أن ينقل قريبهم محمد افندي المدرس ببني سو يف إلى الجيزة، وكان الشيخ العسكري يغمض عينيه ويحرك رأسه يمينا و يساراً و يقول «غداً إن شاء الله! غداً إن شاء الله!

وودع الأهالي الشيخ العسكري بنفس المظاهرة الشعبية والهتاف والزغاريد والأعلام وفي اليوم التالي صدرت صحف الصباح وفيها نبأ نقل محمد افندي المدرس من بني سو يف إلى الجيزة!

وهلل أهل القرية وكبروا، فقد تحققت معجزة الشيخ العسكري التي فشل النواب في تحقيقها! ولم تكن الحكاية معجزة للشيخ، فالذي حدث ان حفني محمود اتفق مع الدكتور هيكل باشا على هذا النقل قبل ان يذهب الشيخ العسكري إلى القرية واتفق معه على ان ينشر خبر النقل في اليوم التالي للزيارة!

ولكن أهل القرية صدقوا ان الشيخ العسكري هو رجل المعجزات، وزحفوا إلى بيت حفني محمود يطلبون منه عنوان الشيخ العسكري في القاهرة ليلجأوا إليه في حل مشكلاتهم ومتاعبهم!

وضاق حفني محمود بهم فقال لهم إن الشيخ سافر إلى المدينة المنورة ليتعبد ولن يعود إلا بعد وقت طو يل! ومرت الأ يام وأهل القرية ينتظرون عودة ولي الله بلا جدوى.

وذات يوم كان بعض أهالي القرية يمرون في ظهر أحد أيام شهر رمضان ببار اللواء فوجدوا الشيخ العسكري يلعب الطاولة وأمامه زجاجة بيرة! وكان الشيخ قد نسى كل شيء عن زيارته للجيزة وقيامه بدور أحد أولياء الله الصالحين.

وأقبل أهل القرية على الشيخ العسكري يسألونه: متى عدت فضيلتكم من المدينة قال الشيخ: مدينة إيه؟ مدينة الملاهي!

ذلك ان الشيخ العسكري كان ز بونا دائما لمدينة الملاهي في القاهرة!

* * *

ولعب حفني محمود ادواراً سياسية هامة من وراء الستار، فقد كان وفديا مع سعد زغلول في الوقت الذي كان شقيقه محمد محمود من ألد خصوم سعد، و يتولى منصب وكيل حزب الأحرار الدستوريين، وشعر حفني ان الخلاف بين سعد والأحرار هو الذي مكن لأنصار الديكتاتورية أن يبطشوا بحكم الشعب، فوضع خطة التوفيق بين سعد وعدلي يكن زعيم الأحرار.. وفي كل يوم يذهب إلى سعد و يقص عليه كلاما لم يحدث و يقول إن عدلى قاله مدحا في سعد، ثم يذهب إلى عدلى يكن و يؤكد له ان سعد زغلول نادم على خلافه مع عدلي.. وكان حفني محمود قصصيا بارعاً فاستطاع في أيام أن يحقق معجزة اتفاق سعد وعدلي، وإذا بالشعب كله يتحد في المطالبة بالدستور الموقوف.

ثم استقال حفني محمود من الوفد بعد وفاة سعد زغلول وانتخاب النحاس رئيساً للوفد، وكان حفني يعتقد ان قوة الوفد في وجود ماهر والنقراشي فكرس جهوده في وضع الخطط التي أدت إلى انقسام الوفد.

وجاء صديقه احمد حسنين باشا رئيساً لديوان الملك فاروق، وكان حسنين داهية خطيراً، ولكنه كان ممثلاً بارعاً، يخفى عبقريته السياسية تحت ستار انه رجل جاهل في السياسة، ويخفي قوته وسيطرته مدعياً انه رجل ضعيف لانفوذ له ولا سلطان.

وجاء حفني محمود واكتشف حقيقة احمد حسنين، ونشر مقالاً في جريدة السياسة شبه احمد حسنين بالسياسي الداهية «ريشليو» الذي كان يحكم فرنسا من وراء الستار، ويحرك الحكام والساسة كما يفعل محرك الخيوط في مسرح العرائس.

واستطاع احمد حسنين بدهائه أن ينتصر على حفني محمود فأشاع بين رجال السياسة ان حفني محمود أراد أن يهدمه بهذه الأكذوبة لحساب على ماهر باشا وصدق الناس حسنين باشا وكذبوا حفني محمود.

و بعد عدة سنوات اكتشفوا ان احمد حسنين كان يحركهم جميعاً!

* * *

وكان له «سكرتير» يحبه و يصطفيه، وضاق السكرتير بعمله وأراد ان يبحث عن عمل آخر، فذهب السكرتير إلى تاجر اقطان وعمل عنده، وذهب حفني محمود إلى تاجر الاقطان وأوصاه على سكرتيره السابق، وقال له إنه أذكى الشبان وأخلصهم ــ وامتدح نزاهته وأمانته ــ ومثلا يحتذي بين الشباب، وميزته الكبرى أنه يفرق بين عقيدته السياسية وعمله.

فسأل التاجر حفني محمود! وما هي عقيدته.

قال حفني: إنه شيوعي.. ولكنه قسماً بالله لا يدخل مذهبه في عمله!

وفي اليوم التالي ذهب السكرتير إلى مكتب التاجر فوجد نفسه مفصولاً!

وقرر السكرتير ان يترك البلد كله لحفني محمود فذهب إلى بلد عربي وعمل في وظيفة سكرتير لوزير المالية.

وفي كل يوم كان وزير المالية العربي يتلقى البرقيات التالية:

«نهنئكم بتعيين فلان الفلاني في وزارة ماليتكم، لقد زاد هذا من سمعة بلادكم المالية، الامضاء أهالي بولاق!».

«أبشر.. أبشر إن تعيين فلان الفلاني رفع سعر عملتكم في خارج البلاد، الامضاء اهالي الاسكندرية!».

«مصر من أقصاها إلى أقصاها مبتهجة بتعيين فلان الفلاني في وزارتكم والشعب المصري أصبح مطمئنا على حالة الميزانية في بلادكم، الامضاء أهالي مديرية جرجا وأسيوط والمنيا!».

مئات البرقيات بهذا المعنى، وكل برقية كان يرسلها من بلد مختلف!

و بعد أيام أصدر وزير المالية قراراً بفصل السكرتير!

وقابلت السكرتير بعد عودته من البلد العربي فوجدته غاضبا، وهو يقسم انه سيضرب حفنى محمود.

ولكنه عندما سمع ان حفني محمود توفى كان يبكي كالأطفال!

ذلك ان الجميع كانوا يحبون حفني محمود.. وفي مقدمتهم ضحاياه!

❁



صراع بين المطربة والزعيمة

كانت السيدة هدى هانم شعراوي زعيمة النهضة النسائية في مصر راقدة في فراشها بسبب اصابتها بالبرد الشديد، واندفعت خادمتها إلى غرفة نومها وهي تقول :

ــ سيدتي! سيدتي! مندوب جلالة الملك يريد ان يقابلك فورا!

قالت هدى هانم : ألم تقولي له إنني مريضة ومعتكفة في فراشي .

قالت الخادمة : قلت له كل ذلك، ولكنه أصر أن الأمر هام ومستعجل ويجب أن يراك فورا فهو يحمل رسالة ملكية خطيرة .

وقامت هدى هانم من فراشها وارتدت.. روبا دي شامبر.. يخفي قميص النوم، وتوكأت على خادمتها إلى غرفة جانبية .

ودخل اسماعيل تيمور باشا الأمير الأول يتعثر في مشيته و ينحني بين يدي هدى هانم محييا بالتحية العثمانية للملوك والسلاطين وقال :

ــ إن مولاى جلالة الملك فاروق أوفدني إليك ليقول إنه لم يجد في مصر سيدة يلجأ إليها في هذه الأزمة سوى أنت، وهو أن جلالة الملكة فريدة مصرة على الطلاق فورا، وجلالة الملك يرى أن الوقت غير مناسب للظروف السياسية التي تجتازها البلد، ولهذا اختارك لتذهبي اليها في قصر المنتزه بالاسكندرية وتقنعيها بتأجيل هذا الطلاق .

قالت هدى شعراوي : أنا ضد الطلاق، وأنا أرى أن ليس من مصلحة البلاد طلاق الملك والملكة، و بالرغم من أن الأطباء نصحوني بالتزام الفراش لمدة أسبوع، إلا أنني سأرتدي ملابسي فورا وأسافر بأول قطار إلى الاسكندرية .

وسافرت هدى شعراوي إلى الاسكندرية وقابلت الملكة، وأثارت الموضوع الشائك برقة وأناقة وأدب، وإذا بالملكة فريدة تقفز من مقعدها، وتهب واقفة تصرخ وتبكي

وتهدد وتتوعد، وتعلن بصوت عال أنا مصرة على الطلاق فورا، ولا تقبل أي تأجيل أو وساطة أو صلح.. وحاولت هدى هانم أن تهدىء ثورة الملكة الغاضبة فاذا بالملكة تزداد ثورة، تهدأ الريح لتبدأ العاصفة، وتسكت العاصفة ليهب الإعصار، إنها أعلنت الحرب ولا صلح ولا هدنة ولا فض اشتباك.

وعادت هدى هانم إلى القاهرة حزينة منكسة الرأس، وقالت لصديقاتها المقربات إن الملكة فريدة مصابة بهستيريا اسمها «ضرورة الطلاق فورا» ولا فائدة من اقناعها أو علاجها أو تهدئتها.

وبعد وقت قليل صدر البلاغ الرسمي من القصر الملكي باعلان طلاق حضرة صاحبة الجلالة الملكة فريدة من حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول.

وإذا بالسيدة هدى هانم تجمع زعيمات النهضة النسائية في مصر ورئيسات الجمعيات النسائية للاجتماع بسرايتها بالقاهرة على الفور.

وقالت هدى هانم: إن الملكة فريدة طلقت وإنها تركت القصر الملكي وذهبت إلى بيت أبيها بالقاهرة، وإنها ترى أن تقوم سيدات مصر بمظاهرة نسائية بالسيارات تذهب إلى الملكة فريدة وتعلن ان نساء مصر يقفن إلى جوارها في هذه اللحظة التي تخلت فيها عن كل مظاهر العز والأبهة والسلطان.

واعترضت بعض السيدات وقلن لها:

ـ ولكنك قلت لنا من أيام إن الملكة مصابة بهستيريا اسمها ضرورة الطلاق فورا، وإنها هي التي تريد الطلاق وليس الملك، وإنها هي التي ركبت رأسها وطلبت الطلاق فكيف نذهب نؤيدها وقد رفضت نصيحتك؟

قالت هدى شعراوى:

ـ نعم أنا وقفت ضدها وهي ملكة.. ولكن الآن يجب أن نقف كلنا بجانبها وهي امرأة مطلقة.. واجب المرأة المصرية أن تقف بجوار أي امرأة مظلومة.

ووافقت السيدات بالاجماع على اقتراح هدى هانم وأمرت باعداد ثلثمائة سيارة، وأطل منها طابعها الارستقراطي وهي تقول: يجب أن تكون كل سيارة من السيارات

الثلثمائة كبيرة وأنيقة حتى يعرف الناس كلها أن أحسن نساء مصر ضد هذا الطلاق!

وعندما رأت الملكة فريدة هذه المظاهرة الضخمة تحاصر بيتها بكت من التأثر وقالت:

ــ أنا فخورة بنساء بلادي!

وفي الوقت نفسه أضربت جميع مدارس البنات في القاهرة والاسكندرية والأقاليم وخرجت الفتيات في الشوارع هاتفات بحياة الملكة!

والغريب أن هدى هانم لم تنظم هذه المظاهرات ولم تفكر فيها، ولكن نساء مصر جميعهن كن متحمسات للملكة فريدة.

وأبرز صفات هدى شعراوى جرأتها وحبها للتحدى، وقد فوجئت بوفاة أبيها وعمرها ٩ سنوات، وتولى ابن عمها على باشا شعراوي الوصاية عليها وعلى شقيقها القاصر عمر سلطان. وادخل الوصي الأخ الصغير عمر إلى المدرسة، ورفض تعليم هدى الصغيرة، وكان عمر الصغير يعطي كتبه سرا لهدى لتقرأها، وذات يوم دخل باش اغا القصر غرفة هدى وضبطها تقرأ في كتاب الحساب، واسرع يبلغ الوصي بالفضيحة الكبرى والجريمة النكراء ــ واهتز القصر غضبا لأن كتابا ضبط في غرفة نوم بنت سلطان باشا! وانقذ الموقف شقيقها عمر سلطان عندما تقدم وقال إنه نسى كتاب الحساب في غرفة شقيقته!

وفوجئت البنت الصغيرة بأن الوصى الذي يدير ثروتها الطائلة يقتر عليها و يدقق في نفقاتها و يشطب كل مبلغ تطلبه، وحدث مرة ان دعيت لحضور فرح فلم تجد فستانا عندها يصلح لحضور حفلة زفاف فاضطرت أن تأخذ ملاءة سوداء كوريشيه.. من ملاءات خادمتها، وقصتها وخيطتها وزينتها وحولتها إلى فستان سواريه وذهبت به إلى الفرح الذي كان مليئا بالأميرات وزوجات الوزراء والباشاوات. وتضحك هدى هانم وتقول: إن المدعوات بهرن بالفستان الأنيق وتصورن أنه من صنع أكبر خياط في باريس، ومن غير المعقول أن ترتدي ابنة أغنى رجل في مصر فستانا عاديا.. وأصبحت موضة أن تحول الملايات اللف السوداء إلى فساتين سواريه.

وكان اسم هدى شعراوي الحقيقي هو «نورالهدى شعراوي» وضاقت بالاسماء الطويلة واختارت اسم هدى فقط.

وعندما اتمت التاسعة من عمرها استدعتها امها وقالت لها: إن عندي خبرا محزنا لك!

وامتقع وجه هدى عندما قالت لها امها إن علي باشا شعراوي تقدم لخطبتها!

علي باشا شعراوي؟! الوصي على التركة؟! الرجل الذي تخافه وترهبه وتكرهه.. العابس الذي لا يبتسم، الذي يرفض كل طلب تطلبه، الذي اضطرها أن تأخذ ملاية خادمتها اللف وتصنع منها فستان سواريه!

مستحيل! مستحيل!

وفوجئت هدى بأن العريس متزوج من سيدة أخرى ولها ابن يبلغ عمره نفس عمرها بالضبط!

وقالت الأم: سوف أشترط في العقد أن يطلق علي باشا شعراوي زوجته الأولى فاذا لم يطلقها يكون العقد باطلا، وأنا أعلم أنه لن يقبل هذا الشرط التعسفي.

وفرحت هدى بهذا الحل.

واذا بعلي شعراوي باشا يقبل أن ينص عقد زواجه على طلاقه من زوجته الأولى.

وتم الزفاف في حفلات تشبه ليالي ألف ليلة وليلة.

وبعد أن انتهى شهر العسل بأيام بدأت الشائعات تتناثر في مدينة المنيا أن الزوجة الأولى تطوف بيوت الأعيان في المدينة وتقول إن علي باشا شعراوي أعادها إلى عصمته، وتضع يدها على بطنها مشيرة إلى أنها تنتظر مولودا جديدا!

وجن جنون هدى هانم واصرت على الطلاق.

واضطر علي شعراوي باشا ان يطلق زوجته على مضض.. واستمر الطلاق سبع سنوات.

ثم عقد علي شعراوي زواجه للمرة الثانية على هدى هانم بعد ان وافق على كل

شروط هدى هانم بلا قيد ولا شرط ، واهم هذه الشروط ان تكون هناك زوجة واحدة فقط لاغير.

ومع ان الفرق بين عمر العريس وعمر العروس حوالي الاربعين سنة إلا ان شعراوي باشا حرص دائما ان يقول لهدى هانم مالايعجبه.. وحرصت هدى هانم دائما ان تفعل مالا يعجبه.

ورزقا بنتا اسمياها «بسمة» وولدا اسمياه «محمدا» على اسم محمد سلطان باشا والد هدى.

وانضم علي باشا شعراوي إلى سعد زغلول وأصبح أمين صندوق الوفد، وتبرع بمبالغ طائلة للثورة، واشترك في قيادة ثورة ١٩١٩، وانضمت هدى هانم إلى الثورة واشتركت في قيادة مظاهرات السيدات في الشوارع هاتفة ضد الانجليز، وحدث أن كانت تقود مظاهرة أرادت أن تحتج بها على نفي سعد زغلول إلى مالطة، واعترض زوجها على أن تخرج المرأة المصرية إلى الشوارع ولكن هدى شعراوي تحدت زوجها، واجتمعت النساء في بيت سعد زغلول، وكان عبدالرحمن فهمي بك سكرتيرعام اللجنة المركزية للوفد رجلا محافظا فجاء بنفسه يقول للسيدات المجتمعات إن خروجهن في الشوارع متظاهرات هو «قلة أدب» وإنه يتوقع أن الرجال سيوجهون إليهن عبارات الغزل أو كلمات وقحة، وقد يتجرأ البعض منهم على الامساك بكتف سيدة من المتظاهرات أو محاولة لمس يدها، ورفضت صفية زغلول اعتراض سكرتير لجنة الوفد وانضمت اليها هدى شعراوى وصاحت: «هذا وقت ثورة لا وقت بصبصة»! واستدعى عبدالرحمن فهمي الاستاذ توفيق صليب عضو الجهاز السري وأمره أن يمشي بجانب المظاهرة، ومعه صفارة، فاذا لاحظ أن الرجال يغازلون المتظاهرات أو يسخرون منهن نفخ في الصفارة فأسرع جنود حرس الثورة يحمون النساء من وقاحة الرجال، وحاصر الجنود الانجليز المسلحون مظاهرة السيدات، وسدوا الشوارع بالمدافع تمنع المتظاهرات من الوصول إلى دار الحماية البريطانية في قصر الدوبارة لتقديم احتجاج المصريات على نفي سعد زغلول، واذا بجندي بريطاني يصوب فوهة بندقية إلى صدر هدى شعراوي، وعندما اندفعت بصدرها جذبتها سيدة من الخلف لتمنعها من التقدم فقالت هدى شعراوي، بصوت عال: «دعيني أتقدم ليكون لمصر اليوم

مس كافل» وكانت مس كافل بطلة أيرلندية قتلها الانجليز فأشعلوا الثورة في أيرلندا، وما كاد الجندي الانجليزي يسمع اسم مس كافل حتى تراجع إلى الوراء.

كان اسمها الحقيقي «نور الهدى» ثم حذفت النصف الأول من الاسم وجعلته «هدى» وكان أبرز صفاتها أنها كانت امرأة قوية في عهد لم يعرف قوة النساء، امرأة صلبة عنيدة متمسكة بآرائها في زمن اشتهرت فيه المرأة الشرقية بالنعومة والضعف والركوع امام جبروت الرجل واستبداده، واصطدمت أول ما اصطدمت مع أمها فقد تركها والدها في السادسة من عمرها وشقيقها عمر سلطان في الرابعة، ولاحظت أن أمها تفضل الولد في المعاملة عن البنت فذهبت إليها تحتج وتقول إنها الابنة الكبرى وإن من حقها أن تعامل أحسن من أخيها فأفهمتها أمها أن شقيقها مريض وهو لهذا السبب يحتاج لعناية أكبر ثم لاحظت أن أمها تحضر لأخيها المدرسين وتحرمها من التعليم فثارت على هذا الحرمان وطالبت بحقها في التعليم وكان شقيقها يحضر كتبه سرا و يسلمها لها، فتنكب على الدراسة والتعليم في خفية عن أمها، وذات يوم ضبطها الأغا.. تقرأ في كتاب «النحو» وثار وهاج وماج، وقال لا يجوز لبنت محترمة أن تقرأ في كتاب «نحو» وتصورت هدى لسذاجتها أن النحو يحوى أمورا جنسية لايجوز ان تقرأها البنات!

وبرغم هذا الحصار استطاعت هدى شعراوي ان تجيد العربية والفرنسية والتركية وكتبت شعرا وتحدت زوجها وجعلت قصرها صالونا ادبيا يجمع الكتاب والسياسيين والأدباء والشعراء، وتحدت زوجها مرة أخرى عندما استقال من الوفد وأصرت أن تبقى رئيسة لجنة الوفد للسيدات ثم ما لبثت أن اختلفت مع الوفد عندما اختلفت مع سعد زغلول ومع أصدقائها الذين يمثلون الارستقراطية المصرية العريقة أمثال عدلي يكن باشا وعبدالخالق ثروت وأحمد لطفي السيد بك وعلى ماهر بك والدكتور حافظ عفيفي ومحاميها ابراهيم الهلباوي بك الذي كانت تثق به ثقة عظيمة ووجدت نفسها فكريا ووجدانيا وعراقة وأصلا تنضم إلى الارستقراطية أعداء سعد زغلول.

وكان سعد زغلول من أنصار عرابي، وكان العرابيون يتهمون محمد سلطان باشا والد هدى هانم بأنه خائن للثورة العرابية وكان مصطفى كامل زعيم الحزب الوطني

يقول إن «عرابي» خائن وإنه هو الذي أدخل الانجليز إلى مصر، وكانت هدى هانم وشقيقها عمر سلطان باشا من أكبر ممولي حركة مصطفى كامل، ولهذا وجدت هدى هانم نفسها في المعسكر الآخر ضد سعد زغلول، ولكن عندما نفى الانجليز سعد زغلول إلى جزيرة سيشيل في المحيط الهندي أيدت سعد زغلول وهاجمت الانجليز، وأرادت أن تدبر خطة تقوم بها السيدات المصريات متنكرات بخطف سعد زغلول من منفاه وأعادته إلى مصر تحديا للانجليز، ولكن الخطة لم تنجح بسبب الصعوبات التي كانت في طريقها وخاصة أنه تبين أن جزيرة سيشيل فيها قوات انجليزية هائلة تقوم بحراستها.

ثم اختلفت هدى مع سعد زغلول في وزارته وانضمت إلى خصومه.

وفي هذا الوقت بالذات حدث حادث غير سياسي زاد حدة الخلاف.

فقد حدث ذات يوم أن دق جرس التليفون في منزل المطربة الممثلة فاطمة سري، وقال المتحدث إنه ابراهيم الهلباوي بك المحامي المشهور وإن زعيمة النهضة النسائية تدعوها لتغنى في سرايتها في اليوم التالي في حفلة ساهرة، واعتذرت المطربة عن عدم الحضور لارتباطها بحفلة في تياتروا رمسيس في نفس الوقت، وألح الهلباوي بك بأن حضور المطربة مسألة ضرورية هامة جدا، وذهبت فاطمة واستأذنت الأستاذ يوسف وهبي أن تغني في بداية المسرحية بدلا من نهايتها فوافق، وبذلك تحضر حفلة هدى هانم شعراوي، وأذن يوسف وهبي، وبدأت السهرة ولاحظت فاطمة وهي تغني أن شابا يقف في آخر الصفوف ينصت باهتمام غريب ويلهب يديه بالتصفيق، ولم تعرف فاطمة هذا الشاب، وشكرتها هدى هانم واعطتها عشرين جنيها في مظروف، وبعد ثلاثة أيام دعاها محمد شعراوي لتناول الشاي معه في فندق مينا هاوس ورفضت، وذهبت فاطمة تغني في صالة سانتي بحديقة الأزبكية ففوجئت بأن محمدا اشترى كل كراسي الصالة لأصدقائه ومحاسيبه يهتفون لها ويهللون ومحمد شعراوي ينظر لها في صمت ووله، وبعد ذلك دعاها محمد شعراوي إلى وليمة في منزل المحامي الكبير ابراهيم الهلباوي ورفضت، وتابعها محمد من سهرة إلى سهرة، ومن حفلة إلى حفلة ومن كازينو إلى كازينو كان لا يتكلم بشفتيه كان دائما يتكلم بعينيه، وكانت عيناه بليغتين في التعبير عن الوله والشوق والحب والغرام، وذات ليلة انهت غناءها فوجدته ينتظرها عند سيارتها فنهرته وانطلقت بسيارتها إلى بيتها، وعند البيت وجدته

هو يفتح لها باب السيارة وعادت تؤنبه وتوبخه على هذه المطاردة، ووعد أن يفك سراحها إذا دخلت بيتها لتبدل ملابسها وتنزل تركب معه سيارته، وصعدت إلى بيتها حائرة هل تنزل معه أم تتركه واقفا على الباب؟ ولكن النظرة الحزينة المتوسلة في عين محمد دفعتها ان تغير ملابسها بسرعة وتندفع إلى الباب وتجلس بجانب محمد في السيارة، وانطلقت السيارة والحب ثالثهما، وبدأت قصة الحب تتطور بسرعة وتنتقل بين الاسكندرية والقاهرة، وكان حبا شريفا بدأ بقبلة في السيارة. ثم حدث ان اشارت مجلة الصباح إلى هذا الحب فلم ينزعج محمد ولم يغضب وقال لها: اريد ان تعرف الدنيا انني احبك! وكانت فاطمة سري مطلقة من مهندس اسمه سيد البشلاوي رزق منها بولدين تركهما مع أمهما، ولما عاد من بعثة دراسية في المانيا إلى مصر، وعلم بقصة الحب بين مطلقته ومحمد شعراوي، ثار وانتزعهما من امهما.

وتعذبت فاطمة لحرمانها من ولديها واذا بمحمد شعراوي يكتب لها شيكا بمبلغ ضخم ثمن الأوقات السعيدة التي أمضياها معا، فمزقت الشيك، ورمته في وجهه، وداست بقايا الشيك بأقدامها وخرجت من البيت غاضبة وغادرت مدينة الاسكندرية بأول قطار، ولحق بها محمد شعراوي في القطار التالي، واسرع إلى بيتها واعتذر لها عن سوء تصرفه وعرض عليها الزواج واستدعى الشيخ محمد عطية محامي الدائرة ليكتب صيغة العقد.

وعارضت فاطمة لأن العقد عرفي وهي تريد عقدا شرعيا فطلب محمد شعراوي منها مهلة ليحول الزواج العرفي إلى زواج رسمي بعد استرضاء والدته هدى شعراوى وشعرت بالحمل وقررت اجهاض نفسها، وذهبت عند الدكتور ابراهيم الشوربجي طبيب الولادة المشهور ليجهضها، فقال لها: إذا أجهضت نفسك ستقتلين نفسك، ولجأت إلى الأوصاف البلدية فمنعها محمد شعراوي وتمسك بالجنين وكتب الاقرار التالي بخط يده وإملاء محامي دائرة شعراوى.

إقرار

أقر أنا الموقع على هذا محمد علي شعراوي نجل المرحوم علي باشا شعراوي من ذوي الأملاك و يقيم بالمنزل شارع قصر النيل رقم ٢ قسم عابدين بمصر أنني تزوجت الست فاطمة كريمة المرحوم سيد بيك المرواني المشهورة باسم فاطمة سري، من تاريخ أول سبتمبر سنة ١٩٢٤ ألف وتسعمائة وأربعة وعشرين أفرنكية، وعاشرتها معاشرة

الأزواج، وما زلت معاشرا لها إلى الآن، وقد حملت مني مستكنا في بطنها الآن فاذا انفصل حيا فهذا ابني، وهذا اقرار مني بذلك، وأنا متصف بكافة الأوصاف المعتبرة بصحة الاقرار شرعا وقانونا، وهذا الاقرار حجة عليّ تطبيقا للمادة ١٣٥ من لائحة المحاكم الشرعية، وإن كان عقد زواجي بها لم يعتبر، إلا أنه صحيح شرعي مستوف لجميع شرائط صحة عقد الزواج المعتبرة شرعا.

محمد على شعراوي

القاهرة في ١٥ يونيو ١٩٢٥

وعلمت هدى شعراوي بزواج ابنها الوحيد من مطربة فثارت ثورة عارمة واتهمت ابنها بأنه يحاول قتلها بهذا الزواج، واحتاط بحجة الكبراء والعظماء والوزراء يضغطون عليه أن يفترق عن المطربة التي أحبها، فزواجه من مطربة سيلوث اسمه وسيقضى على مستقبله السياسي، فلا يمكن أن يكون زوج مطربة وزيرا، وسوف يسيء هذا الزواج إلى اسرة سلطان باشا وأسرة شعراوي باشا وهما أعرق أسر الصعيد، وأهل الصعيد قوم محافظون يأبون أن يتزوج ابن الباشا من راقصة، وعبثا حاول محمد إفهامهم أن فاطمة سري مطربة ممثلة وليست راقصة ولا غانية، ولكنهم أصروا أن وقوف امرأة على المسرح هو عمل فاضح في الطريق العام.. وبدأوا يهددون فاطمة سري، وجاء موظف بوزارة الداخلية يقول لها: إنه سوف يلفق لها ملفا في شرطة الآداب يتهمها بالدعارة، وتحدتهم فاطمة أن يفعلوا ذلك وقالت لهم إنها ستطلق بنفسها الرصاص على أي وزير داخلية يقوم بهذا التزوير!

ورأى أعداء هذا الزواج المثير أن الحل هو أن يسافر محمد شعراوي مع والدته إلى أوربا و يترك فاطمة سري، ولكن محمدا العاشق تظاهر بالقبول واتفق مع فاطمة أن تلحقه في سويسرا بعد خمسة أيام، وفي ١٦ يوليو سنة ١٩٢٥ سافرت فاطمة إلى أوربا على الباخرة الايطالية «اسبيريا» يصحبها خادم محمد شعراوي الخاص وكان اسمه سليمان داود، وعوملت فاطمة على ظهر الباخرة كأنها أميرة.

وصلت فاطمة إلى ميناء جنوا فلم تجد محمدا ينتظرها و يأخذها بالأحضان، وإنما وجدت رسالة منه أن تسافر إلى مدينة لوزان وتنزل في فندق ميرابو، وصلت إلى مدينة لوزان فلم تجد حبيبها بل وجدت خطابا فيه صورتان لمحمد يقول في الخطاب: «ضعي الصورتين في حقيبة يدك، كلما فتحت حقيبتك سترين صورتي»، ومكثت فاطمة

أياما طويلة تفتح الحقيبة وتغلقها ولا تجد «محمداً» فيها ! ثم طلب منها محمد أن تسافر إلى مدينة كارلسباد وتنزل في فندق امبريال ففعلت ثم طلب منها أن تعود إلى لوزان ثم طلب منها أن تسافر إلى مدينة مونترو وطلب منها أن تكتب له كل يوم ولم تتلق كلمة فسافرت إلى باريس، ثم لحق بها في باريس وأقبل عليها يقبلها و يعانقها، و بينما هي بين ذراعيه قال إنه يشك في اخلاصها، وسألته: هل تريد مني الاقرار لتكون على يقين من صدق حبي؟ فقال لها: نعم.. قالت إنها تركت الاقرار في مصر وإنها ستعيد له الاقرار بعد وصولها إلى القاهرة، وقال لها إنه سيسافر إلى أمريكا وإنه ينصحها بالانتقال إلى فيينا لتضع مولودها هناك، لأنه لايريد أن يسجل اسم المولود في القنصلية المصرية بباريس حتى لا يعلم به الوزير المفوض محمود فخري باشا، فيبلغ به الملك فؤاد، وقد كان فخري باشا زوج ابنته، وانتقلت فاطمة إلى عاصمة النمسا ووضعت مولودتها وأطلقت عليها اسم «ليلى محمد شعراوي» وأثبتت الولادة في القنصلية المصرية في فيينا بتاريخ ٧ سبتمبر سنة ١٩٢٥.

وتصادف أن كان مصطفى النحاس باشا المحامي يومئذ في فيينا فقابلته فاطمة وروت له القصة وقالت: إنها كذبت على محمد شعراوي، عندما قالت له إن الاقرار في مصر، فقد كان الاقرار معها في حقيبتها، فنصحها النحاس أن تذهب إلى محل زنكوغراف وتحصل على صورة مطابقة للإقرار، وتسلم زوجها صورة الاقرار وتحتفظ بالصورة الأصلية، ففعلت فاطمة تماما ما نصحها به المحامي مصطفى النحاس! وأخذت فاطمة ابنتها ليلى إلى مصر وأخفتها عن العيون، وعاد محمد شعراوي إلى مصر وزارها في بيتها وسأل عن المولود، فأخبرته أنها طفلة أسمتها ليلى محمد شعراوي وأحضرتها له، فأظهر الأسف وقال لها: ياليتها كانت ولدا! وإذ به يسألها عن الاقرار؟ وسألته: هل يهمك جدا الحصول على هذه الورقة؟ قال محمد: بهذا الدليل تثبتين إخلاصك لي إلى الأ بد، وكانا جالسين على كنبة في غرفة المائدة، فأخرجت فاطمة الورقة من تحت خشبة المقعد وسلمتها له، وظهرت الدهشة على وجه الزوج لأنه لم يكن يتوقع أن تفرط في هذا الاقرار الهام بهذا السهولة، وفحص الورقة فحصا دقيقا فوجدها بخطه و بلون الحبر الذي كتب به، ولم يتمالك نفسه وقال لفاطمة: أنت أشرف امرأة في مصر، ثم جثا على قدم فاطمة وقبلها، وطلبت منه فاطمة أن يمزق الورقة فرفض وقال: سأحفظها في مكان أمين لترثني ابنتي إذا عاشت بعدي، ثم قبل فاطمة

واحتضن ابنته وقبلها وخرج وهو يقول إنه سيعود في صباح اليوم التالي.. ولم يعد أبدا!

اتصلت به فاطمة في التليفون فأنكر نفسه، فاذا وجدته انهال عليها سبا وشتما وأغلق في وجهها التليفون.

وكتبت فاطمة سري الخطاب التالي إلى السيدة هدى هانم شعراوي زعيمة النهضة النسائية في مصر.

سيدتي:

سلاما وبعد، إن اعتقادي بك وبعدلك، ودفاعك عن حق المرأة يدفعني كل ذلك إلى التقدم إليك طالبة الانصاف، وبذلك تقدمين للعالم برهانا على صدق دفاعك عن حق المرأة، ويمكنك حقيقة أن تسيري على رأس النساء مطالبة بحقوقهن، ولو كان الأمر قاصرا عليَّ لما أحرجت مركزك، لعل أنك أُم تخافين على ولدك العزيز أن تلعب به أيدي النساء، وتخافين على مستقبله من عشرتهن، وعلى سمعته من أن يقال إنه تزوج امرأة كانت فيما مضى من الزمان تغني على المسارح، ولك حق إن عجزت عن تقديم ذلك البرهان الصارم على نفسك، لأنه يصيب من عظمتك وجاهك وشرف عائلتك، كما تظنون يامعشر الأغنياء، ولكن هناك طفلة مسكينة هي ابنتي وحفيدتك، إن نجلك العزيز، والله يعلم، وهو يعلم، ومن يلقي عليها نظرة واحدة يعلم و يتحقق من أنها لم تدنس ولادتها بدم آخر، والله شهيد، طالبت بحق هذه الطفلة المعترف بها ابنك كتابيا، قبل أن يتحول عني و ينكرها و ينكرني، فلم أجد من يسمع لندائي، وما مطالبتي بحقها وحقي كزوجة طامعة في مالكم، كلا! والله فقد عشت قبل معرفتي بابنك، وكنت منزهة محبوبة كممثلة تكسِب كثيرا، وربما أكثر مما كان يعطيه لي ابنك، وكنت متمتعة بالحرية المطلقة وأنت أدرى بلذة الحرية المطلقة التي تدافعين عنها، ثم عرفت ابنك فاضطرني أن أترك عملي وأنزوي في بيتي، فأطعته غير طامعة بأكثر مما كان يجود به، وما كنت لأطمع أن أتزوج منه، ولا أن ألد منه ولدا، ولكن هذه غلطة واسأليه عنها أمامي، وهو الذي يتحمل مسؤوليتها، فقد كنت أدفع عن نفسي مسألة الحمل مرارا وتكرارا، حتى وقع ما لم يكن في حسابي، هذه هي الحقيقة الواقعة وانتهى الأمر.

والآن يتملص ولدك من كل شيء، ولا يريد الاعتراف بشيء، وقد شهد بنفسه من حيث لا يدري بتوسيطه كثيرين في الأمر، وما كنت في حاجة لوساطة، ولو كان تقدم إليّ طالبا فك قيده لفعلت، وكانت المسألة انتهت في السر، ولم يعلم بها أحد، فعرض عليَّ في الأول قدرا من المال بواسطة علي بك سعد الدين (سكرتير عام وزارة الأشغال)، و بواسطة الهلباوي بك (المحامي الكبير) وغيرهم ممن حضروا إليّ ظانين أنني طامعة في مالهم، وأنه في إمكاني إنكار نسب ابنتي إذا أغروني! ولكنني أخاف إلها عادلا بأنه سيحاسبني يوما عن حقوقها ــ إن لم تحاسبني هي عليها ــ فلم يجد محمد مني قبولا للمال، وعندما وجد مني امتناعا عن إنكار نسب ابنته سكت عني تماما، فوسطت حضرة فهيم أفندي باخوم محاميه، فاجتهد في إقناعه بصحة حقوقي وعقودي واعترافه بابنته، وتوسط في أن ينهي المسألة على حل يرضي الطرفين، فلم يقبل نجلك نصيحته بالمرة، وكان جوابه أن ألجأ برفع دعوى عليه ومقاضاته، وهو يعلم تماما أن نتيجة الدعوى ستكون في صالحي، فلا أدري ماذا يفيده التشهير في مسألة كهذه سيعلم بها الخاص والعام، وسنكون أنا وأنتم مضغة في الأفواه، وأنت أدرى بجونا المصري وتشنيعه خصوصا في مسألة كهذه، وهذا ما يضطرني إلى أن أرجع إليك قبل أن أبدأ أي خطوة قضائية ضده، وليس رجوعي هذا عن خوف أو عجز، فبرهاني قوي ومستنداتي لا تقبل الشك وكلها لصالحي، ولكن خوفا على شرفكم وسمعتكم وسمعتي، ولو أنني كما تظنون لا أبالي، فربما كانت مبالاتي في المحافظة على سمعتي وشرفي أكثر من غيري في حالتي الحاضرة، فهل توافقين يا سيدتي على رأى ولدك في إنهاء المسألة أمام المحاكم؟ أنتظر منك التروي في الأمر، والرد عليّ في ظرف أسبوع، لأنني قد مللت كثرة المتداخلين في الأمر.. ودمت للمخلصة فاطمة سري.

ما كادت الزعيمة هانم تتلقى خطاب المطربة حتى ثارت ثائرتها، اعتبرته إعلانا لحرب واعتبرته إنذارا نهائيا مدته أسبوع واحد، واعتبره المحيطون بالزعيمة قلة أدب ووقاحة وتطاول من «المغنية» ودفعوا هدى هانم أن تدخل الصراع الهائل، وأن تجند كل قواها ونفوذها وسلطانها ومالها لتسحق هذه المطربة قليلة الأدب، إنها أهانت ابراهيم الهلباوي بك أعظم محامي في مصر ألقت في وجهه العشرة آلاف جنيه والعشرين ألف جنيه التي حملها لها لتتنازل عن القضية، وتحمس الكبراء والعظماء ضد فاطمة سري هذه الصعلوكة الفلاحة التي تتطاول على المقامات العليا وتلوث

شرف أعرق الأسر والعائلات! وفي كل يوم تتضاءل المطربة وتتضخم الزعيمة، يدوس الناس قضية المطربة بالأقدام، و يرفعون قضية هدى هانم فوق الرؤوس، وانقسم الرأي الفقراء والصعاليك مع المطربة الصعلوكة والعظماء والكبراء والأثرياء مع الزعيمة العظيمة.

وفجأة برز شاب محام وصحفي اسمه فكري أباظة ووقف بجانب فاطمة، ورفع صوتها الهامس، وحول قضيتها من قضية طفلة إلى قضية أمة، وطلب مقابلة سعد زغلول زعيم الأمة وقص عليه القصة وطلب منه أن يستدعي محمد شعراوي الطالب بالحقوق وعضو لجنة الطلبة التي تدين بالزعامة لسعد ليطلب إليه أن يعترف بابنته ولا يكون مثلا سيئا للشباب، ولكن سعد رفض أن يتدخل وقال إنه لا يحب أن يتدخل في المسائل الشخصية وزيجات وطلاقات أنصاره! وعاد فكري أباظة إلى سعد يقول له إنني هذه المرة جئت لك لتحمي فلاحة مصرية من الدولة، إن عدلي يكن باشا رئيس الوزراء وعبدالخالق ثروت باشا وزير الداخلية طلبا من وزير العدل أن يتدخل في هذه القضية و يضغط على القضاة، وأجاب سعد أنه سوف يحقق المسألة، واستدعى أحمد زكي أبوالسعود باشا وزير الحقانية وسأله فأكد رواية فكري أباظة وأضاف أن الملك فؤاد شخصيا طلب أن يكون الحكم لصالح هدى هانم وسأله سعد: وما رأيك أنت؟

قال وزير العدل: رأيي أن هذا ظلم، قال له سعد: لوحدث هذا التدخل في القضاء سوف تصبح المسألة سياسية لا شخصية، وسأقف بنفسي في مجلس النواب أطالب بإسقاط الوزارة! فليس من حق إنسان أيا كان أن يظلم مواطنة ضعيفة، الحق معها! هذا اعتداء على الدستور.. وتراجعت القوى الهائلة التي قررت ان تسحق المطربة، ووكلت هدى هانم أعظم المحامين لدى المحاكم الأهلية والشرعية في مصر، وانفقت مئات الألوف من الجنيهات لتثبت ان فاطمة سري افاقة ونصابة ومحتالة، ولم تضعف فاطمة، ولم تتردد أو تنهار، كانت تدخل المحاكم وهي تحمل ابنتها فوق كتفها كأنها تحمل علما يمشي خلفه الأنصار والأصدقاء! وكان وجه ليلى الصغيرة عجيبا لا تكاد تنظر إليه حتى تجد التشابه العجيب بين محمد وابنته، نفس العينين، نفس الشفتين، نفس النظرة، نفس الابتسامة! كان وجه ليلى شعراوى أهم وثيقة رسمية تؤكد بالدليل القاطع أنها ابنة محمد شعراوي، واستمر الصراع سنوات

وسنوات، معارك ومرافعات، وضغوط وتدخلات، وقضاة يصمدون للاغراء، ومحامون يتصيدون الأدلة والمستندات، واذا بالمحكمة الشرعية العليا تحكم بأن ليلى هي ابنة محمد شعراوي وفي الحال خضعت هدى شعراوي لحكم القضاء، فتحت سرايتها لحفيدتها الجديدة، ضمتها إلى صدرها وكأنها تعتذر لها، جاءت لها بأحسن المدرسات من أنحاء العالم لتعليمها، لم تحرمها أبدا من رؤية أمها، أرسلتها إلى أمريكا لتصبح أستاذة في الجامعة!

ومن سخرية القدر أن محمد شعراوي تزوج من سيدة من أسرة عريقة رزق منها بعدة بنات وولد ولم يوفق معها، ثم تزوج في نهاية الأمر بالراقصة أحلام ورزق منها بثلاثة أولاد!

ولم تعلم هدى هانم بالكارثة الجديدة فقد ماتت بالسكتة القلبية وهي جالسة تكتب بيانا في فراش مرضها تطالب فيه الدول العربية بأن تقف صفا واحدا في قضية فلسطين.

ولم يتم من البيان سوى ثلاثة سطور وسقط القلم من يدها وأسلمت الروح!



رئيس الوزراء الذي مات من الفرح

كان محاميا ممتازاً، وشخصية جبارة وكفاءة نادرة، ولكنه كان رجلاً سيىء الحظ! ما ارتفع حتى وقع، وما صعد حتى سقط، وما أضاء حتى أظلم، أختير سفيراً لمصر في لندن مخترقا صفوف المرشحين لهذا المنصب الكبير، وما كاد يستقر في الكرسي الكبير حتى قامت قيامة الصحف عليه، السفير متزوج من زوجتين، فماذا يفعل ملك انجلترا إذا دعا السفير المصري في بلاط سان جيمس هل يدعو الزوجة الأ ولى؟ أم يدعو الزوجة الثانية؟ أم يدعو الزوجتين معاً؟

وراحت الصحف تتساءل وتقول إن القانون الانجليزي يعاقب بالسجن الرجل الذي يتزوج من سيدتين.. فهل يقبض البوليس على السفير المصري بتهمة تعدد الزوجات؟ أم تحميه الحصانة الديبلوماسية التي تمنع القبض على السفراء.

واقترحت جريدة حلاًوسطاً أن يطلق السفير المصري إحدى الزوجتين ورفض السفير أن يطلق إحدى الزوجتين.

ووجد الملك فؤاد أن الحل هو أن يحيل السفير المصري إلى المعاش وكفى الله المؤمنين شر القتال!

هذه قصة من قصص حسن صبري باشا رئيس وزراء مصر.

كان رجلاً سيىء الحظ، عاش يحلم أن يكون وزيراً، ورشح للوزارة عدة مرات، وفي كل مرة كان يجيء القلم الأحمر و يشطب اسمه بين المرشحين!

وكان محاميا بارزاً في المحاكمات السياسية، و يفاجأ بأعظم المحامين ينضمون إلى صفوف المحامين، فتضيء اسماؤهم ويخبو اسمه، وتتغلب شهرتهم على شهرته فيذكرهم الناس و ينسوه، فهو أشبه برجل يموت في يوم القيامة فلا يشيع جنازته أحد، أو ولد يولد في يوم البعث فلا يهتم أحد بأن يسجل اسمه في سجل المواليد!

وفي شبابه استطاع أن يسقط وزارة ثروت باشا ، فقد قابل الملك فؤاد بعد عودته من رحلة في أوربا ، وقال للملك إنه قابل الخديوي السابق وقال له : «إن ثروت بتاعنا» ! وما كاد الملك فؤاد يسمع رأي عدوه في رئيس الوزراء حتى طرده من رئاسة الوزارة واعتقد حسن صبري باشا أنه لابد أن يدخل الوزارة الجديدة ما دام استطاع أن يسقط الوزارة الحالية ولكن رئيس الوزراء الجديد اعترض على أن يضمه إلى وزارته بعد أن عرف أنه قادر أن يسقط الوزارات !

وانتخب نائباً وفدياً وحاول أن يكون وزيراً ففشل ، وحدثت ازمة وزارية وفوجيء سعد بمظاهرة تهتف بحياة حسن صبري في فناء بيت الأمة وسمع سعد الضجة فأرسل سكرتيره يتبين سبب الضوضاء ، وجاء السكرتير يقول إن ناخبي حسن صبري جاءوا في مظاهرة تطالب بأن يكون حسن صبري وزيراً ، وشطب سعد زغلول اسم حسن صبري من أسماء المرشحين للوزارة قائلا : «إن الرجل الذي يتصور أن مظاهرة تعينه وزيرا ومظاهرة تسقطه من الوزارة لا يصلح أن يكون وزيرا» .

ولم ييأس الرجل ، كان صديقاً حميماً لكل رئيس وزارة قادم ، ولكن في كل مرة تؤلف وزارة جديدة كان اسمه يسقط من كشف الوزراء !

وفي كل «تسويدة» تجد اسمه ، وفي كل «تبييضة» لأسماء الوزراء يسقط اسمه .

كأن عفريتا من الجان يتعقبه ليحذف اسمه من كشوف الوزراء !

وذات مرة رشحه اسماعيل صدقي وزيراً ، فقد كان زعيم المعارضة في مجلس الشيوخ ، وكانت المعارضة مؤلفة منه وحده دون سواه !

ووافق اسماعيل صدقي ان يعينه وزيراً بعد ان يعود من اجازته في اوربا ورشحه وزيراً للأوقاف .

وسافر صدقي وانتهز حسن صبري فرصة سفر رئيس الوزراء واتصل بالملك فؤاد وأقنعه أن يعينه وزيراً للمالية في الوزارة التي كان يشغلها اسماعيل صدقي نفسه ! وعاد صدقي وفاجأه الملك بهذا الترشيح ، فرفضه رئيس الوزراء وتمسك به الملك ،

وحدثت أزمة وزارية واستقال اسماعيل صدقي من رئاسة الوزارة، وعين الملك عبدالفتاح يحي باشا رئيساً للوزارة، ومن حسن حظ حسن صبري أن رئيس الوزارة كان غائبا في أوربا فقد اختار له الملك وزراءه وعاد عبدالفتاح باشا ووجد حسن صبري وزيراً للمالية!

وخضع رئيس الوزراء للأمر الواقع، وقال لي يومها إنه لو كان عرف أن حسن صبري سيكون وزيراً لما قبل أن يرأس الوزارة!

وشعر وزير المالية أنه مفروض على رئيس الوزراء فبدأ بينهما الخلاف والشقاق.

ورأى وزير المالية أنه أحق برئاسة الوزارة من عبدالفتاح يحيى باشا ورأى رئيس الوزراء أن حسن صبري هو خميرة العكننة في مجلس الوزراء وتوثقت العلاقة بين حسن صبري باشا وسير مايلز لابسون المندوب السامي البريطاني في مصر، واستغل حسن صبري هذه العلاقة لدق المسامير والخوازيق في مقعد رئيس الوزراء، وأصبح الانجليز مقتنعين بأن رئيس وزارة مصر رجل أحمق تافه وأن العربة في يد زكي الأبراشي باشا ناظر الخاصة الملكية، وكان حسن صبري باشا صديقا حميماً لتوفيق نسيم باشا رئيس الوزراء الأسبق، واستطاع بذكائه أن يدفعه إلى الأمام ويجعله رجل الساعة، وإذا بالمندوب السامي البريطاني يقابل الملك و يطلب إليه تعيين توفيق نسيم باشا رئيساً لوزراء مصر، وكان حسن صبري يبلغ توفيق نسيم أولاً بأول خطواته ومساعيه.

وصدر الأمر الملكي بتعيين توفيق نسيم باشا رئيساً للوزراء واشترك حسن صبري مع توفيق نسيم في اختيار الوزراء الجدد، واحتفظ لنفسه بمنصب وزير المالية، ثم خرج من دار رئيس الوزراء ليغسل وجهه و يغير ملابسه و يرتدي بدلة الردنجوت ليحلف اليمين أمام الملك، وما كاد يخرج حتى وصل مصطفى النحاس باشا رئيس الوفد ليهنىء توفيق نسيم برئاسة الوزارة و يأخذه بالأحضان وانتهت المقابلة، وخرج توفيق نسيم يودع مصطفى النحاس إلى الباب، وعند الباب قال توفيق نسيم إنه اختار حسن صبري وزيراً للمالية وتوقف النحاس على الباب! وقال: مستحيل أن نؤيد وزارة فيها حسن صبري! إنه خالف قرار الوفد بعدم التعاون ودخل مجلس الشيوخ، وسكت توفيق نسيم وقد اصفر وجهه وأخرج النحاس من جيبه قلمه الحبر وأعطاه إلى

رئيس الوزراء وقال له: أشطب اسم حسن صبري، ورضخ توفيق نسيم وشطب اسم حسن صبري.. وخرج النحاس وعاد حسن صبرِي من بيته بالردنجوت واكتشف أنه أصبح وزيرا سابقاً!

وعاش حسن صبري في الظل ٤ سنوات إلى أن ألف محمد محمود باشا سنة ١٩٣٨ وزارة ائتلافية، واختار حسن صبري وزيراً للحربية، فاختلف مع كبار الضباط، واختلف مع زملائه الوزراء واستقال من الوزارة وظن الناس انه انتهى! ثم تولى علي ماهر باشا رئاسة الوزارة واختلف مع الانجليز وارغموه على الاستقالة، وتولى حسن صبري باشا رئاسة الوزارة!

وقال الناس إنها «باضت له في القفص» وإنه تحققت له أحلام عمره! وفوجىء أن الانجليز يؤيدونه، والملك يناصره، والبرلمان يثق به، والوفديون يهادنونه!.. والدنيا كلها تقول إنه رجل الساعة.

* * *

ودخل الوزراء يهنئون رئيس الوزراء بالانعام عليه بالوشاح الأكبر من نيشان محمد علي.

وصرخ رئيس الوزراء فيهم:

ــ لا تهنئوني! عزوني! عزوني! هذه مصيبة! هذه كارثة! هذه دسيسة! هذا مقلب! اخرجوا! اخرجوا! سيبوني في غلبي، اخرجوا! اخرجوا!

وخرج الوزراء مطرودين من مكتب رئيسهم، وهم في دهشة، فقد قرأوا في جريدة الأهرام اليوم نبأ الانعام على حسن صبري باشا بالوشاح الأكبر من نيشان محمد علي، فماذا حدث؟ ما سبب انزعاج رئيس الوزراء! ماسبب هياجه وغضبه.

ولكن حسن صبري باشا راح يصرخ و يصيح: هذا كذب! هذا افتراء! هذا اختلاق!

وخرجت الصحف في مساء نفس اليوم تكذب كلها نبأ جريدة الأهرام وكنت أنا صاحب الخبر الذي أزعج رئيس الوزراء.

وكان للخبر قصة:

فقد كان حسن صبري باشا في تلك الأيام يلقى حرباً شعواء في الخفاء وهجوماً عنيفا من وراء الستار، وكان الفرسان الثلاثة الذين يسعون لاسقاطه هم علي ماهر باشا رئيس الوزراء السابق، ومحمد محمود خليل رئيس مجلس الشيوخ، وعبدالوهاب طلعت باشا وكيل الديوان الملكي.

واتهمه بعضهم عند الملك بأنه يرغب في إلغاء الاحتفال بافتتاح البرلمان الذي يحضره الملك، وكان لهذه التهمة ضجة كبيرة كادت تودي بالوزارة كلها، وجرى تحقيق دقيق تولاه أحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكي أثبت فيه حسن صبري باشا رئيس الوزراء أن صاحب الاقتراح هو عبدالحميد باشا بدوي كبير المستشارين الملكيين ورئيس لجنة قضايا الحكومة، وكانت تهمة رئيس الوزراء أنه أراد باعياز من الانجليز الغاء الاحتفال الملكي بافتتاح البرلمان!

وكانت وجهة نظر بدوي باشا أن ظروف الحرب تقتضي الاختصار في مراسم الاحتفال وثبتت براءة حسن صبري باشا، ولكنه ما كاد يتنفس الصعداء حتى فوجىء بتصريح منسوب له في جريدة الأهرام، وأحدث هذا التصريح استياء في القصر الملكي، فقد كان فيه بعض الجليطة وقلة الذوق، كان رئيس التحرير قد تحدث به على سبيل الدردشة مع أحد الزملاء من محرري جريدة الأهرام، فنشره باعتباره تصريحاً رسمياً.

وكذب رئيس الوزراء التصريح ببلاغ عنيف، ولم يكتف بذلك بل قرر أن يستولى بصفته الحاكم العسكري على ورق الأهرام، وأصدر أمره بمقاطعة جميع محرريها.

واجتمعنا ــ جبرائيل تقلا باشا صاحب الأهرام، وانطون الجميل باشا رئيس تحرير الأهرام وأنا رئيس قسم الأخبار لنبحث كيف نرد على عدوان رئيس الوزراء، واتفقنا على أننا لا نستطيع أن نهاجمه في مقال لأن الرقابة الصحفية كانت مفروضة وقتئذ وكان الرقيب موجوداً في كل جريدة وسوف يشطب بطبيعة الحال أي هجوم على رئيس الوزراء!

واتفقنا أن نعاقب رئيس الوزراء حسن صبري باشا بأن نحذف اسمه من كل خبر ينشره الأهرام، وان نحذف صورته من كل صورة تنشرها الأهرام! فكانت الجريدة إذا نشرت صورة للملك وحوله وزراؤه حذفت من الصورة صورة حسن صبري وأبقت الملك و باقي الوزراء، وإذا نشرت الاهرام اجتماعاً لمجلس الوزراء حذفت من الصورة صورة حسن صبري وحده!

وجن جنون رئيس الوزراء.. وتدخل بعض الكبراء للتوسط في الخلاف وأصرت «الأهرام» أن ينشر حسن صبري اعتذاراً عن إهانته للجريدة ورفض حسن صبري أن يعتذر رئيس الوزراء للأهرام!

و بقي العقاب مستمراً، ولم يستطع الرقيب أن يضيف اسم حسن صبري إلى الجريدة لأن مهمته في تلك الأ يام كانت الحذف فقط!

وذات يوم علمت أن حسن صبري باشا قد استدعى لمقابلة الملك في قصر القبة في الساعة الثالثة ظهراً، وأسرعت إلى هناك، وانتظرت حتى خرج رئيس الوزراء من المقابلة الملكية، وتقدمت إليه أحدثه بكل احترام، وأسأله عن المقابلة.

ولكنه أشاح بوجهه وقال لسائق سيارته:

ـــ إلى وزارة الخارجية.

وكان رئيساً للوزراء و وزيراً للخارجية في نفس الوقت.

وتركني، وترك يدى ممدودة في الهواء!

وعجبت.. فما ذنبي أنا؟ لنفرض أن محرراً أخطأ في نقل حديث، فلماذا يعاقب جميع المحررين؟ أم أن رئيس الوزراء يعاقبني لأنني أحد الثلا ثة الذين أصدروا قراراً بحذف اسمه من صفحات الأهرام!

وأسرعت وراء حسن صبري باشا إلى وزارة الخارجية، فلم أجد أحداً، لا سكرتيراً، ولا ساعياً، ولا حارساً، ولا بوابا!

وجلست أنتظر في غرفة السكرتير.

وفجأة دق جرس التليفونات في مكتب السكرتير، وتناولت سماعة التليفون فإذا حسن صبري يطلب مني، أي من سكرتيره أن أوصله برقم معين، وأوصلته بالرقم المعين، وإذ بي أسمع رئيس الوزراء يقول للسيدة زوجته:

ــ هناك خبر مهم جداً، سري جداً، جلالة الملك تفضل فأنعم عليّ بالوشاح الأكبر من نيشان محمد علي، وطلب مني أن أبقي الأمر سراً بيننا، ولا أخبر به أحداً إلى يوم افتتاح البرلمان.

وأسرعت إلى «الأهرام» ونشرت النبأ.

وقامت الدنيا رأساً على عقب، وذهب الوزراء يهنئون رئيس الوزراء وطردهم.

وأمر الملك باجراء تحقيق مع رئيس الوزراء!

واتصل علي ماهر باشا بالملك وأبلغه أنه علم أن حسن صبري نفسه هو الذي أعطاني الخبر الممنوع!

وفوجئت بحسن صبري باشا يستدعيني إلى مكتبه في رئاسة مجلس الوزراء وقال لي:

ــ أنا أتهم علي ماهر باشا بأنه هو الذي أعطاك الخبر!

قلت له: أبداً!

قال: إذن هو عبدالوهاب طلعت باشا وكيل الديوان الملكي؟

قلت: أبداً.

قال: لا.. أنا واثق ان أحدهما مصدر الخبر، وقد نتج عن هذا أنني لن آخذ النيشان.

قالها بحسرة وألم، ودهشت من أن نيشاناً يعني كل هذا الألم في نظر رئيس وزراء مصر!

وما كدت أصل إلى مكتبي بجريدة الأهرام حتى طلبني حسنين باشا في مكتبه

بقصر عابدين، وقال لي وقد بدا على وجهه الجد والاهتمام:

ــ إن جلالة الملك كلفني أن أتولى التحقيق في مسألة النيشان، وقد أستدعيك كشاهد، وعلى أساس شهادتك سوف يتقرر مصير الوزارة وأنا أعلم أن من حقك أن ترفض الاجابة متمسكا بسر المهنة، ولكن المسألة أخطر كثيراً من هذا، المسألة أن خصوم حسن صبري يتهمونه بأنه هو الذي أعطاك الخبر برغم تعهده بكتمانه.

وأنا أعلم أنه إذا أثبت أنه هو الذي أعطاك الخبر ستسقط الوزارة وأعلم أيضاً أنكم في جريدة الأهرام أعداء لحسن صبري وتعملون على إسقاطه لأنه شتمكم واستولى على ورق الأهرام، ومع ذلك فانني أثق بشرفك، هل هو الذي أعطاك هذا الخبر؟

قلت له: لا.

قال: هل تقسم بشرفك أنه ليس هو الذي أعطاك الخبر؟

قلت له: أقسم بشرفي أنه لم يعطني هذا الخبر.

ولو أن حسن طلب مني أن أقسم بشرفي أنني لم أسمع هذا الخبر من رئيس الوزراء، لما استطعت أن أقسم!

وفي الوقت نفسه جاءني محمد محمود خليل بك رئيس مجلس الشيوخ وكان صديقا للأهرام إلى غرفة انطون الجميل رئيس تحرير الأهرام واقفل بابها عليّ، وراح يرجوني أن أقول إن حسن صبري هو الذي أعطاني هذا الخبر! ورفضت أن أدعي شيئاً لم يحدث، ولو أدى هذا الادعاء إلى إسقاط وزارة تحاربها الجريدة التي أعمل بها!

وكان محمد محمود خليل بك مهتماً بهذه الشهادة، لأنه كان يعلم أنه إذا سقط حسن صبري فسوف يؤلف هو الوزارة!

وعلم حسن صبري باشا بشهادته، فاستدعاني إلى مقابلته وقال لي آسفا: هل تضايقت من أنني تحدثت معك بعنف في المرة الماضية.

قلت: أبداً، لو كنت مكانك لأمسكت «بزمارة رقبتي»!

فقال رئيس الوزراء: أنا معذور، لقد كنت أتمنى طول حياتي أن يجيء اليوم

الذي أصبح فيه رئيساً للوزارة، أما الآن فانني أتمنى أن أخرج منها! لا يمضي يوم بغير دسائس ومؤامرات، إنني لا أقوم من خازوق إلا لأجلس فوق خازوق، إن في يدى أن أعتقل خصومي جميعا بأمر عسكري، ولكني لا أريد أن أنتقم لشخصي، إنني لو فعلت ذلك فانني أحتقر نفسي، ولا أريد أن أكون حقيراً لأنني رئيساً للوزارة، إنني أكاد أختنق هنا في مقعد رئيس الوزراء، إن هذا الجو المسموم يكاد يخنقني!

فرويت له ما جرى بيني وبين حسنين باشا فانبسطت أساريره وقال لي:

ــ لا تظن أنني فرحان بالنيشان لأنه نيشان، إن له مغزى سياسيا، إذا أخذت النيشان فستبقى الوزارة، وإذا لم آخذه فسوف تستقيل الوزارة، إما النيشان وإما الاستقالة، إن خصومي أقوياء، ولكن ربي معي!

قلت له: إن كل قيمة هذا النيشان هو أن جنازة حامله تشيع في جنازة عسكرية!

قال حسن صبري: أنا لا يهمني الجنازة العسكرية! ولكن المسألة سياسية، إما جنازتي أنا وإما جنازة خصومي!

وفي يوم افتتاح البرلمان كنت في قصر عابدين، عندما وصل حسن صبري، واستقبله حسنين باشا وقال له إن الملك تفضل وأنعم عليه بالوشاح الأكبر من نيشان محمد علي، فسأل رئيس الوزراء: هل أصعد إلى الدور العلوي لأتسلم النيشان من الملك! قال حسنين باشا: إن الملك قرر ألا يتعبك وسينزل إلى الطابق الأول ليقلدك الوشاح بنفسه وصافح الملك حسن صبري وسلمه الوشاح، وطلب منه أن يتقلده أمامه، وأمسك رئيس الوزراء بالنيشان وحاول أن يحيط به عنقه، فاضطرب قليلاً ثم قال للملك:

ــ تسمح يامولانا ألبسه بره، لأنه عاوز شغل كتير.

وضحك الملك وطلب من فايق يكن بك الأمير الرابع أن يصحب حسن صبري باشا إلى غرفة أخرى ليساعده في عملية تثبيت الوشاح بالدبابيس.

ووصلت إلى دار البرلمان قبل الموكب الملكي، وكان النواب يتساءلون قبل وصول الملك، هل صحيح أن حسن صبري باشا سينال وشاح محمد على أم لا؟ فريق

يؤكد وفريق ينفي، فريق يصدق خبر جريدة الأهرام وفريق يقسم أنه كلام جرائد، وكان كل من الفريقين يستنتج سياسة هامة من الانعام أو عدم الانعام، وكان حديث الأروقة يدور حول الوشاح، وما شكله وما لونه، ولما أقبل زيور باشا وأخذ مقعده بين كبار الزائرين تطلعت العيون إلى صدره ليروا لون الوشاح الأخضر!

ودخل كبير الأمناء يعلن قدوم الملك، فوقف الحاضرون، ودخل في أثر الملك حسن صبري باشا فاشرأبت العيون إلى صدره لترى هل هناك وشاح أم لا، وإذا صدره يزينه الوشاح، ففرحت عيون وعبست عيون.

وبدأ حسن صبري يلقي خطاب العرش، وكان صوته قويا في أول الأمر، وشعرت وأنا أجلس في المقصورة التي كانت فوق رأسه أنه يتنفس بصعوبة ثم يتلعثم، ثم يقفز سطراً، ثم يسقط على الأرض ميتا.

وأسرع الدكتور علي ابراهيم باشا وزير الصحة يفحص رئيس الوزراء ثم رفع رأسه وقال!

ـــ إنه مات من الفرح!



الثائرة الصغيرة!

فوجىء القراء ذاتّ يوم في العشرينيات بمقالات نارية عنيفة تحتل صفحات الصحف بامضاء «منيرة ثابت» كلمات كالمدفع الرشاش، وجمل كالقنابل، وعبارات خلت من نعومة النساء ورقة المرأة وسحر الجنس اللطيف.

واعتقد القراء أن منيرة ثابت هذه هو اسم مستعار لرجل، فغير معقول أن تكتب امرأة بهذا الأسلوب العنيف، فهي لا تلوّح بأغصان الزهور، وإنما تلقى على الحكومة الطوب، وتطلق على الوزراء الرصاص، وتحارب ولا تسالم، وتهاجم ولا تتوقف، وتضاعفت دهشتهم عندما اكتشفوا أن منيرة ثابت هذه هي امرأة حقيقية من لحم ودم، وأنها ليست سيدة حاصلة على شهادة جامعية، وإنما هي فتاة شابة طالبة بمدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة!

كانت منيرة ثابت فوق ذلك آنسة جميلة، رشيقة القد، ساحرة العينين، فاحمة الشعر، خفيفة الدم، إذا جلست في مجلس سيطرت عليه بحماسها وجاذبيتها وقوة شخصيتها، وكانت مقالاتها تشبهها أو كانت هي التي تشبه مقالاتها.

وكان رؤساء التحرير في تلك الأيام يجدون مشقة في أن يضعوا «فرامل» لاندفاعها، أو يخففوا من عنف لهجتها، أو يشطبوا العبارات التي تؤدي بهم إلى محكمة الجنايات، وكأنها تحرص في كل مقال أن ينطبق عليه قانون العقوبات، وعلى الرغم من محاولات الشطب والحذف وسكب بعض الماء على الكلمات الملتهبة كانت تخرج مقالاتها جمرة من نار تحتاج إلى استدعاء فرقة المطافىء! وكانت تكتب تهاجم الديكتاتورية وتهاجم الرجال، وكانت تطالب بالحرية للشعب وبحق الانتخاب للنساء المصريات.

وكانت لا تيأس ابداً، تحتل مكتب رئيس التحرير إلى أن يوافق على نشر مقالاتها، تدافع عن كل كلمة يريد رئيس التحرير حذفها، وتقاتل دفاعاً عن كل سطر

كأنها جيش يستبسل في الاحتفاظ بالأرض التي استولى عليها، وكان بعض الكتاب والمحررين في جريدة الأهرام يهرعون إلى إنقاذ الأستاذ داود بركات رئيس تحرير الأهرام من براثنها، و يقذفونها بعبارات السخرية، أو يسلقونها بألسنتهم الحادة، أو يلوحون لها بقانون العقوبات، أو يحذرونها من السجن فكانت لا تبالي بكل هذا، ترد على السخرية بالسخرية أو تقابل الهجوم بالهجوم، وكأنها تحمل عشرة سيوف في لسانها تبارز به عشرة رجال في وقت واحد، وكان يساعدها في المعركة خفة دمها، وسعة صدرها، وإيمانها العجيب بقضية المرأة ولم يكن معروفاً في ذلك الوقت أن تجرؤ امرأة وتهاجم رئيس الوزراء فقد كانت المرأة المصرية معروفة بشدة الخفر والحياء، إذا هوجمت أحمر وجهها و بكت أو انسحبت من الميدان، أما منيرة ثابت الطالبة الصغيرة فقد كانت امرأة مختلفة هوايتها الطعن والنزال إذا سقط السيف من يدها، استعملت أسنانها، وإذا تهشمت أسنانها استعملت أظافرها!

وكان الزعيم سعد زغلول معجباً بجرأتها وحماستها، و يشجعها على صمودها وإصرارها.

وأرادت الحكومة أن تخرس صوتها، فأرسل وزير المعارف واستدعى ناظر مدرسة الحقوق الفرنسية إلى مكتبه وطلب منه أن يمنع التلميذة منيرة ثابت من الكتابة السياسية في الصحف، وأن هذا هو رأي مجلس الوزراء.

واعترض ناظر المدرسة، وقال ان مدرسته تسير على غرار مدارس الحقوق في فرنسا التي تمنح تلاميذها حق الكتابة في الصحف ومعارضة الحكومة والهجوم عليها أيضاً وإن المحامي مهمته أن يدافع عن الشعب أولاً قبل أن يدافع عن الأفراد.

وهكذا انتصرت التلميذة الصغيرة على مجلس الوزراء.

وفي سنة ١٩٢٤ جرت أول انتخابات حرة للبرلمان وحصل الزعيم سعد زغلول على الأغلبية الساحقة وألّف أول وزارة شعبية!

وذهبت منيرة ثابت إلى رئيس الوزراء سعد زغلول تحتج عليه لأن وزارته لا تمثل الشعب!

ودهش سعد زغلول وسألها: لماذا؟ إن وزارتي أول وزارة في مصر يدخلها الأفندية!

قالت منيرة ثابت: لأنه ليس فيها امرأة وزيرة!

قال لها سعد زغلول ضاحكا: جميع الوزراء متزوجون، وكل وزير منهم ينوب عن زوجته!

ولم تضحك منيرة ثابت من سخرية الزعيم، ومضت في حماسها مطالبة بمنح المرأة المصرية حق الانتخاب بحجة أنها اشتركت في ثورة ١٩١٩ جنباً إلى جنب مع الرجال، وسقطت نساء شهيدات برصاص الانجليز.

وقال لها الزعيم سعد زغلول: أعدك عندما يخرج آخر جندي انجليزي من مصر أن أعطي المرأة المصرية حق الانتخاب.

قالت منيرة ثابت: نريد حق الانتخاب للمرأة فوراً!

قال سعد: أخشى إذا أثرنا حكاية منح المرأة حق الانتخاب الآن أن يحدث انقسام في الأمة، فلا تزال نسبة كبيرة من السكان لا توافق على اشتراك النساء في السياسة، ولا أريد انقساماً في الأمة أثناء المعركة مع الأنجليز، وعندما يخرج آخر جندى أجنبي من مصر أعدك بأن أنضوى تحت زعامتك وأطالب للمرأة المصرية بحق الانتخاب!

وشاءت الأقدار أن تتحقق نبوءة سعد زغلول، فبعد ٣٢ عاماً فقط ــ في سنة ١٩٥٦ خرج الانجليز من مصر ودخلت راو ية عطية وأمينة شكري البرلمان لأ ول مرة بعد أن حصلت المرأة المصرية على حق الانتخاب.

ولكن منيرة ثابت رفضت أن تنتظر خروج الانجليز من مصر، وفوجىء سعد بعد ذلك بوفد من طالبات مدرسة الحقوق الفرنسية في القاهرة، وتقدمت منيرة إلى سعد زغلول وقالت له: إن نساء الأمة لم يقتنعن برأي زعيم الأمة بتأجيل منح المرأة حقوقها إلى أن يخرج الانجليز.

قال سعد: أنا لم أعارض حق المرأة وإنما طلبت التأجيل إلى أن يتم جلاء الانجليز

لأن التقاليد لا تسمح بدخول المرأة البرلمان في الوقت الحاضر.

وانبرت منيرة ثابت بطول لسانها تقول: التقاليد منعت الأفندية أن يصبحوا وزراء وأنت عينت واصف أفندي غالي وزيراً للخارجية ونجيب الغرابلي أفندي وزيراً للعدل والدكتور أحمد ماهر أفندي وزيراً للمعارف وعلي الشمسي أفندي وزيراً للأوقاف، إنك رئيس وزارة ثورة و واجبك أن تمنح المرأة حق الانتخاب وتسمح لها بدخول البرلمان.

وقال لها سعد! ابدئي واكتبي رأيك في الصحف لتمهدي الرأي العام.

قالت منيرة ثابت: ولكن الرجال يحاربونني ورؤساء تحرير الصحف لا ينشرون كل ما أكتب!

قال لها سعد: إذن اصدري أنت مجلة واكتبي فيها ما تشائين وكوني أنت رئيسة التحرير فلا يشطب لك أحد رأياً.

وأصدر سعد أمره بصفته وزير الداخلية باعطاء الآنسة منيرة ثابت ترخيصاً باصدار مجلة أسبوعية سياسية انتقادية.

وما كاد سعد يوافق على التصريح، حتى حدث مصرع السردار حاكم السودان البريطاني، و وجه الانجليز إنذارهم المشهور، وأخرجوا زعيم الأمة من الحكم وجاءوا بأحمد زيور باشا رئيسا للوزارة لينفذ طلبات الانجليز و بدأت عمليات القبض والقمع والاعتقال وتحول البلد الديموقراطي إلى بلد ديكتاتوري في ٢٤ ساعة.

وفي هذا الجو المخيف الملبد بالغيوم بدأت منيرة ثابت تستعد لاصدار مجلتها الجديدة «الأمل».

وكان العدد الأول قنبلة، هجوم على الانجليز والمندوب السامي البريطاني، هجوم على القصر والملك فؤاد، هجوم على الحكومة وأحمد زيور باشا رئيس الوزراء.

وأصبحت «الأمل» من العدد الأول أوسع مجلة أسبوعية انتشاراً في مصر، اصبحت مجلة سعد زغلول الأولى!

ولم تكتف منيرة الشابة بهذا النجاح الساحق، فأصدرت جريدة يومية باسم «لسبوار» تصدر باللغة الفرنسية، و«اسبوار» هو الترجمة الفرنسية لكلمة «الأمل» وإذا بالجريدة الفرنسية الجديدة تزيح جميع الجرائد الأجنبية التي تصدر في مصر وتتصدر الصحف اليومية الأجنبية كلها.

وقامت قيامة الملك فؤاد ودار المندوب السامي البريطاني والحكومة على منيرة ثابت، وانهالت عليها التحقيقات والمصادرات والكاتبة الثائرة صامدة لا تتزحزح، لا يغريها وعد ولا يرهبها وعيد.

ولكن ما عجز عنه الانجليز والحكومة وقوى الرجعية استطاعه شيء آخر لم يخطر على بال أحد.. وهو الحب!

كانت منيرة تطبع مجلتها الأسبوعية وجريدتها اليومية في مطبعة «البلاغ» وهي جريدة الوفد الأولى في تلك الأيام، وكانت منيرة تلتقي يومياً في دار البلاغ بعبد القادر حمزة باشا الصحفي الأول في مصر بشهادة سعد زغلول ولسانه الرسمي، وأعجب عبدالقادر حمزة بشجاعة الكاتبة الثائرة وبحماسها وصمودها، وتطور الاعجاب إلى حب.

ووجدت منيرة في عبدالقادر حمزة باشا فتى أحلامها! صحيح انه كان يكبرها بأكثر من عشرين عاماً، لكنها كانت تراه أكثر شبابا من كل الشباب، كان رجلاً أنيقا، جميل الصورة، ممشوق القوام، في عينيه سحر جذاب، وعندما يتكلم عن الحب يبدو كأنه أبلغ ألف مرة مما يكتب في السياسة!

وبدأ الحب بالنظرات التي تتكلم وبالاشارات التي تنطق، ثم بالخطابات التي تشبه المقالات، ثم بالاعتراف.. وتسربت قصة هذا الحب العظيم إلى صحف الحكومة فأرادت أن تشهر بالصحفي الوفدي الكبير وبالصحفية الثائرة!

وقرأ الزعيم سعد زغلول محاولة تلويث الأقلام التي تحارب معه فاستدعى عبدالقادر حمزة وسأله: هل صحيح أنك تحب الآنسة منيرة ثابت؟ واعترف عبدالقادر بهذا الغرام الجارف.

وقال سعد: إما أن تتزوجها .. وإما أن تتركها! أنا لا أتدخل في حياة أنصاري الشخصية، ولكنك أنت ابني ومنيرة بنتي ولا أريد أن يستمر هذا الوضع يوماً واحداً.

ورضخ عبدالقادر حمزة لرغبة الزعيم وتزوج منيرة ثابت.

ولكن منيرة طلبت من زوجها أن يطلق زوجته الأولى لأنها بحكم مبادئها ضد تعدد الزوجات، فكيف تقبل هي «ضرة» وهي زعيمة المطالبات بمنع تعدد الزوجات!

ورفض عبدالقادر حمزة أن يطلق زوجته الأولى التي شاركته كفاحه وأم أولاده وبناته.

وبدأ النزاع من اليوم الأول، واحتكما إلى سعد زغلول فحكم بأن يحتفظ عبدالقادر حمزة بأم اولاده.

وخضعت منيرة ثابت لأمر الزعيم وتنازلت عن مبدئها بعدم تعدد الزوجات!

وعاد عبدالقادر حمزة باشا يشترط على زوجته الكاتبة الثائرة أن تطلق الصحافة، وتغلق مجلة الأمل الأسبوعية، وتوقف جريدة لاسبوار اليومية وتعيش زوجة في البيت .. زوجة فقط لا تزور ولا تُزار، ولا تكتب مقالات ولا تشترك في أي عمل سياسي.

وثارت الكاتبة الثائرة، ثم اخضعها الحب، واستسلمت بلا قيد ولا شرط وأغلق الحب مجلة الأمل وجريدة «لسبوار» وأطفأ ثورتها العارمة وأصبحت «ست بيت»!

واختفت منيرة ثابت من الحياة الصحفية، والحياة النسائية، والحياة السياسية، وأصبحت «ست بيت».

وبعد سنوات قليلة انطفأ الحب الكبير، كان جمال منيرة ثابت في نظر عبدالقادر حمزة هو الهالة التي كانت تحيط بها، الكاتبة الثائرة، الزعيمة الجريئة، الصحفية الشجاعة صاحبة الجرائد الواسعة الانتشار، فلما جردها من هذه الأضواء الساطعة أصبحت منيرة زوجة عادية، هنا انطفأ بريقها، وهدأت ضوضاؤها، واختفى سحرها وقد كانت كل هذه الصفات تصنع صورة الأسطورة، فلما تخلت عنها أصبحت

الزوجة الثانية في مرتبة أقل من مرتبة الزوجة الأولى شريكة الكفاح وأم الأولاد والبنات وأحست منيرة أنها فقدت بريقها مع الرجل الذي تحبه عندما فقدت صحفها وفقدت شهرتها وفقدت كفاحها المثير وعندما انطفأ الحب أو خمد بدأت تشعر بفرق السن و بفرق العقلية عقلية الكاتب الناضج المتأني العاقل، وعقلية الكاتبة الثائرة المندفعة التي لا يظهر جمالها إلا في المعارك والحروب!

وانزوت منيرة بضع سنوات، واشتركت في كثير من الجمعيات النسائية، وطالبت كل حكومة جديدة بحقوق المرأة، ولكن صوتها عندما شاب فقد عذوبته الحلوة، و بريق عينيها عندما خبأ لم يعد له سحره وتأثيره في السامعين.

و بعد سنوات عادت وأصدرت مجلة الأمل، ولكنها كانت مجلة صغيرة متواضعة فقد نسيت أجيال الخمسينيات نجوم العشرينيات، ولم تعد الأمل الجديدة تهز المقاعد من تحت الوزراء، ولا تثير ثائرة السلطات واضطرت منيرة أن تبيع كل ما ورثت لتصدر مجلة الأمل الجديدة.

ولكنها لم تكتف بالمطالبة بحقوق المرأة في مجلتها، بل كانت تمطر الصحف بمقالاتها النارية التي تطالب بحقوق المرأة، وكانت الصحف تنشر هذه المقالات أحيانا وتهملها أحيانا، فقد كانت البلاد مشغولة وقتئذ بمعركة الجلاء عن مصر وحرب فلسطين، ولكن منيرة كانت تعتبر عدم نشر مقال لها موقفا عدائيا من المرأة وإعلانا بالحرب على الجنس اللطيف وأذكر أنها أرسلت لي في ١٤ ابريل سنة ١٩٤٩ خطابا تقول لي فيه:

«كان يبدو لي في الماضي ــ وكم كان هذا يؤلمني ــ أنكم تحاربون قضيتي الكبرى المقدسة، التي حملت اعباءها وحدى ــ ودون كلل خلال خمس قرن، كما لو كنت جئت إلى هذه الحياة وعشت من أجلها، وهي كما تعلمون قضية حقوق المرأة السياسية والاجتماعية، فكم يسرني اليوم أن أراكم تخصون قضيتي هذه بعنايتكم، وتخرجون بها من النطاق الصحفي إلى الميدان الرسمي ــ البرلمان ــ والمحدد طبعا بسؤال واستجواب ثم انتقال إلى جدول الأعمال، فتسألون الحكومة في البرلمان عن هذه الحقوق المسلوبة، حقوقنا في الحياة، نحن النساء!

أجل، انكم اليوم تسألون الوزارة أن توضح موقفها من ذلك الكتاب الذي صفعتنا به هيئة الأمم المتحدة، إذ تطالب حكومتنا وهي تعرك أذنها! ، بضرورة تحقيق المساواة السياسية والاجتماعية في مصر بين الرجل والمرأة.

فكم أنا سعيدة بهذا الاجراء الجديد من نوعه الذي تتخذونه الآن في البرلمان دفاعا عن قضيتي المزمنة.

إنكم في غير حاجة لأن تتلقوا شكري واعترافي بالجميل، إنكم تدركون أن من واجب شباب رجالنا النابه المثقف، الذي أودعت فيه مصر كل رجاء وأمل، أن يبادر بمعونتنا نحن النساء في الدفاع عن قضيتنا»

وختمت منيرة خطابها بأنها سوف تنتظر حتى شهر ديسمبر فإذا لم يوافق البرلمان على سؤالى فانها سترفع قضية على مجلس الوزراء تتهمه بمخالفة ميثاق الأمم المتحدة!

ولكن البرلمان لم يوافق على المساواة بين الرجال والنساء، والقضاء رفض قضية منيرة ضد مجلس الوزراء، ولم تيأس منيرة وقامت ثورة ٢٣ يوليو وانتهزت فرصة قيام الثورة وذهبت إلى اللواء محمد نجيب قائد الثورة في تلك الأيام لتقنعه بمنح المرأة حق الانتخاب، ولكن قائد الثورة قال لها إن الوقت غير مناسب.

وعادت تكافح من جديد إلى أن منح الرئيس جمال عبدالناصر المرأة المصرية حق الانتخاب، وحق الترشيح لعضوية مجلس الأمة، وتقدمت منيرة ورشحت نفسها في دائرة الزيتون في شهر مايو سنة ١٩٥٧، وتصورت منيرة أن الشعب سيقبل على انتخابها، وسيذكر جهادها وسوف يستعيد أمجادها، يوم كانت نجمة في سماء السياسة المصرية، الأصابع تشير إليها، الفتيات يهتفن بحياتها، الشبان يحاولون أن يحملوها على الأعناق!

ومرت منيرة في دائرتها الانتخابية، لم يعرفها أحد، المعجبون انتقلوا إلى رحمة الله، الفتيات الثائرات كبرن وأصبحن أمهات مشغولات بمتاعب الزواج وتربية الأطفال، الدنيا تغيرت، لا أحد يتذكر معاركها الضارية ضد الرجال، فنحن في بلد كل شيء ينسى فيه بعد حين!

وسقطت الزعيمة في الانتخابات ولم تحصل في دائرتها الانتخابية إلا على بضعة أصوات!

ولم تيأس منيرة ثابت وعذرت الشعب الذي نساها ولم تحقد عليه، وانتهزت فرصة الانتخابات التالية ورشحت نفسها في دائرة جديدة مليئة بالمتعلمين والمثقفين والشباب وهي دائرة مصر الجديدة ومنشية البكري حيث يقيم الرئيس جمال عبدالناصر.

ووزعت منشوراً انتخابيا على الناخبات والناخبين قالت فيه:

مجلة الأمل تقدم: مرشحة مصر الجديدة ومنشية البكري، منيرة حسن ثابت رقم ٢٥٢ صاحبة مجلة الأمل ورئيسة تحريرها، الشهيرة بمنيرة ثابت عميدة الصحفيات العربيات.

إنها أول قانونية في مصر وقد تخرجت بدبلومين عاليين في جامعة باريس، إنها أول صحفية نقابية، وكانت أول مصرية تولت رئاسة تحرير جريدتين سياسيتين «لسبوار الفرنسية والأمل العربية» إنها الكاتبة الثائرة الأولى المعروفة في مصر، إنها أول مطالبة في مصر والشرق بالمساواة السياسية بين المرأة والرجل، وقد حققت ثورة التحرير هذه المساواة، إنها مؤلفة كتاب «ثورة في البرج العاجي» المعروف وصاحبة مذكرات «جهاد عشرين عاماً من أجل تحرير المرأة والوطن» وكتاب «الدفاع عن عروبة فلسطين» إنها الخطيبة القوية الحجة التي مثلت مصر في المؤتمر الثالث عشر للاتحاد الدولي في الدنمارك حيث هزت المنابر بثورتها على الاستعمار وبدفاعها عن حريات الشعوب المغلوبة على أمرها، إنها صاحبة مقالات «خواطر ثائرة» والكاتبة الأولى التي بشرت بثورة التحرير حتى انبعثت أضواؤها الباهرة واينع ثمارها، إنها زعيمة ثورة الاصلاح الاجتماعي، وقد وضعت في عام ١٩٤٠ برنامجاً شاملاً لوزارة الشؤون الاجتماعية (الوليدة في ذلك الحين) تضمن عدداً من المشروعات في تنظيم الأسرة والعلاقة الزوجية ورعاية الأمومة والطفولة ومكافحة البطالة والتسول وإصلاح الحياة في السجون، انها ذات خبرة عالمية وثقافة عالية، وهي متفرغة لخدمة الشعب والوطن (ولا يشغلها عنكم زوج ولا ولد).

ولكن كل هذه المآثر والصفات والأمجاد لم تهز الناخبين والناخبات في دائرة مصر الجديدة ومنشية البكري!

٣٥ سنة أفقدت الناس ذاكرتهم، تقلبات الزمان كالرمال غطت قوماً وأظهرت آخرين، العمالقة أصبحوا أقزاماً، وشبان هذه الأيام لم يسمعوا عن الكاتبة الفاتنة التي كانت ترهب الوزراء، وتخيف الحكام وتهدد جيش الاحتلال، أصبحت الشابة الجميلة عجوزاً متهدمة حاربتها السنوات أكثر مما حاربتها الرجعية والديكتاتورية ودار المندوب السامي البريطاني، اختفى شعرها الأسود الجميل وظهر شعر أبيض تحاول أن تصبغه باللون الأصفر حتى تبدو شقراء ولكن الشعر الأبيض يفضحها فيطل من خلال الشعيرات الذهبية، وفقدت عيناها سحرها الجذاب فقد اصيبتا بالمرض، وبدأ نظرها يضعف وكتبت إليّ خطابا في عام ١٩٦١ تقول «انني أبحث عن عمل بأجر لانقاذي، انني مريضة بمرضين خطيرين اثبتهما الفحص في أحد المستشفيات، تم الفحص بمعرفة القومسيون الطبي العام، أحد هذين المرضين مركز في عيني ويهددني بضياع البصر، وهناك علاج حديث ابتكره الدكتور باروكير الأسباني، هذا العلاج يوقف زحف الضباب، الضباب الذي يزحف على عدسة العين، أنا لم أعد أملك غير منقولات «عفش» شقتي، وهذا العفش محجوز لحساب مؤسسة ضاحية مصر الجديدة مالكة العمارة، وهذا خلاف دين مطبعة مصر أجر طبع مجلتي.

إنني أريد أن أعمل بكرامة، أريد أن أكسب أجرا بعرق جبيني لأستطيع به أن أعالج بصري، وساقي، وأسدد ديوني، لقد وقفت مجلتي عن الصدور بعد أن خلفت دينا ثقيلا ما يزال يطحنني، ولكن ليس يفزعني أن يشردني الدائنون على قارعة الطريق وأن أموت جوعاً، إن الموت رحمة، إنما يفزعني أن أعيش عمياء.

لقد عملت طول حياتي بلا أجر ولا مرتب، واليوم أود أن أعمل بأجر، إنني أعيش في ظلام! حتى الآن أستطيع أن أكتب، ولكني أقرأ بصعوبة، ان حالتي النفسية سيئة، قد تتحسن إذا وجدت الرعاية.

أختك المواطنة المؤمنة

منيرة ثابت

وارتعشت يداي وأنا أقرأ الخطاب ، إنها نهاية مروعة لبطلة ! وكتبت في مجلة المصور التي كنت أرأس تحريرها يومئذ وقلت : «إننا نرفض أن تعمل منيرة ثابت في حالتها الصحية المؤلمة ، إن من حقها أن تعالج وأن تستريح وأن تعيش ، إن لها حقا على كل امرأة في بلادنا تعمل أو تزاول حقها النيابي أو تجلس تحت قبة مجلس الأمة ، إنها هي التي أضاءت الطريق أمام ملايين نساء العرب اللاتي رفعن الحجاب وأصبحن يعملن جنبا لجنب بجوار الرجال ، إننا على ثقة أن الدولة لن تترك منيرة ثابت تعيش عمياء.. وهي التي جعلت الملايين يبصرون! فلتضىء كل امرأة عاملة شمعة لهذه السيدة العظيمة التي يهددها الظلام» .

و بعد ساعات من صدور عدد مجلة «المصور» صباح الخميس اتصل بي الرئيس جمال عبدالناصر في مكتبي بدار الهلال وقال لي إنه أمر بسفرها إلى أسبانيا للعلاج على نفقة الدولة واتصل بي حسين الشافعي وزير الشؤون الاجتماعية ونائب رئيس الجمهورية وقال لي إنه أمر بسداد كافة ديونها قبل سفرها إلى الخارج .

وسافرت منيرة إلى برشلونة وطلب منها الدكتور بار وكير استعمال أنواع معينة من الأدو ية لمدة ٦ شهور كاملة ثم تعرض نفسها عليه بعد هذه المدة ، وقطعت منيرة رحلتها بعد ١٢ يوماً فقط ، ولكنها عادت إلى القاهرة تشكو من المعاملة السيئة التي لاقتها من القنصلية المصرية بأسبانيا ، فقد قرر لها الدكتور بار وكير عمل ٣ نظارات طبية لعلاج مؤقت لحين عودتها ، ولكن القنصل المصري رفض دفع ثمنها بحجة أن المبلغ المحول لها مقرر لعلاج عينيها فقط ، وأنه ليس مسؤولاً عن ثمن النظارات حتى ولو كانت طبية !

ولم يكن معها من النقود سوى المال المحول لها للعلاج ، وإزاء هذا الأمر اضطر القنصل إلى أن يسلمها نظارتين اثنتين بعد أن حصل على شهادة من الدكتور بار وكير بأن هذه النظارات امتداد للعلاج الذي حضرت من أجله .

وفي الموعد الذي حدده الدكتور بار وكير لعودتها إلى أسبانيا مرة ثانية حولتها وزارة الصحة إلى القومسيون الطبي ليوافق على سفرها .

وكانت المفاجأة أن القومسيون الطبي رد بأن حالة عيني المريضة لاتحتاج إلى علاج طبي أو تدخل جراحي!

وفي ١٧ سبتمبر سنة ١٩٦٣ استيقظت منيرة ثابت من النوم فوجدت الدنيا ظلاما.. أضاءت النور الكهربائي الذي بجوارها ولكنها لم تر شيئاً وأيقنت أن الكارثة حلت بها وأنها لن تستطيع الابصار.

وكانت منيرة ثابت في شبابها أجمل صاحبة عينين في الوسط الصحفي.

ومن سخرية القدر أن اسمها كان «منيرة» وأمضت بقية حياتها في ظلام!

ريري .. التي فتنت مدينة القاهرة

قبل الأربعينيات ظهرت طبقة اسمها «بنات الذوات» اهتمت الصحف والمجلات بأخبارهن وصورهن وزواجهن وطلاقهن وظهرت في المجلات أبواب جديدة مثل «الطبقة الراقية وغير الراقية» و«أولاد الذوات وأولاد القرية» و«مجتمع الهاى لايف» وكنت أهاجم هذا النوع التافه من الفتيات، التي تهتم بشعرها ولا تهتم بما في رأسها، التي تعنى بزينتها ولا تعنى بثقافتها، التي تمضى ساعات تتحدث في التليفون ولا تمضى ساعة واحدة تقرأ في كتاب وقلت إن من عيوبنا أن نعتبر بنت الذوات بشعرها المصفوف وبأناملها المصبوغة بالألوان وبثوبها المزركش اللامع وبجواهرها الثمينة وليس بثقافتها ولا بعلمها ولا بدورها الانساني في المجتمع المصري، بنت الذوات في رأيي هي التي تخدم الشعب لا التي تبهر الشعب باناقتها هي التي تشارك في تنظيف بيوت الفقراء وأكداح المسحوقين لا التى تمضى اليوم، كله في تزيين وجهها بالاصباغ والمساحيق وإن من السهل جدا أن نحول أى فتاة من الشارع إلى بنت ذوات بالمساحيق والألوان والفساتين!

وثارت ضدى بنات الذوات وبنات المجتمع وبنات الطبقة الراقية وقررت أن أقبل التحدي وانتهزت فرصة أنني توليت رئاسة تحرير مجلة صغيرة اسمها «الاثنين» تصدرها دار الهلال وجمعت المحررين وطلبت منهم أن يبحثوا في الشوارع والأزقة والحارات على فتاة تصلح أن تكون «بنت ذوات» لا يهم من تكون هذه الفتاة، الشرط أن تكون «لمامة سبارس» أى فتاة تجمع أعقاب السجاير الملقاة في الشوارع أو أن تكون خادمة تعمل في أحد البيوت.

وانتشر المحررون والمحررات يبحثون عن الفتاة المطلوبة ورأيت تشكيلة عجيبة من الوجوه والأحجام، هذه فتاة أشبه بفيل صغير، وهذه بنت في حجم الكارت بوستال وكان العيب البارز في أغلب هؤلاء الفتيات حرصهن على وضع «سنة» ذهبية بين أسنانهن وهي موضة كانت منتشرة بين بنات البلد في ذلك الحين.

وإذا بأحد المحررين يقبل ومعه خادمة ترتدي الملاءة اللف وقال إن اسمها «رقية شريف» وإن والدها كان يعمل «صرماتي» في الحسين أي العامل الذي يصلح الأحذية المثقوبة، وإن أمها كانت تعمل غسالة تغسل الملابس في حي الجمالية، وإنهما ماتا منذ سنوات فاضطرت أن تخدم في البيوت.

ولم تعجب الفتاة المحررين الذين تحدثوا إليها ولكنني بعد حديث قصير معها وجدتها تصلح للقيام بالدور المطلوب، كان أبرز صفاتها طاعتها العمياء كانت أشبه بالعجينة في يد مثال يشكلها بأي شكل يريد، وطلبت منها في أول الأمر أن نغير اسمها «رقية» ونختار لها اسما أرستقراطيا واخترنا لها اسم «روكيه» وطلبنا منها أن تخفي أن والدها «صرماتي» يرقع الأحذية فقالت إنها ستقول إن والدها طبيب أحذية! وضحكنا من سذاجتها وطلبنا منها أن تدعى أن والدها هو اللواء محمد شريف باشا وهو شخصية مزيفة لا وجود لها في الحياة!

وجلسنا معها ساعات ندربها على طريقة الجلوس على المقعد، كانت في أول الأمر تجلس وقد فتحت ساقيها فأفهمناها أن بنت الذوات يجب أن تضم ساقيها وهي جالسة، وكانت تتكلم بصوت عال يجلجل فأفهمناها أن المطلوب هو الصوت الخافت، وكانت إذا جلست في الصالون وأقبل أحد المحررين انتصبت واقفة وتتقدم نحوه تحاول تقبيل يديه وأقنعناها أن بنت الذوات لا تقبل أيدي الرجال بل الرجال هم الذين يقبلون يدها، وأنها تمد اليهم يدها في استرخاء وهي جالسة في مقعدها ولاحظنا أنها عندما كانت تصافح بيدها تضع كفها على صدرها على طريقة أولاد البلد، وبعد تدريب طويل أقلعت عن هذه العادة وعلمناها أن تتقدم الرجال في سيرها وكانت في أول الأمر تتأخر لتتبعنا في السير.

وكانت مشكلة المشاكل تعليمها كيفية تناول الطعام وتولت زوجة أحد الوزراء تدريس هذه المادة الصعبة لها وعلمتها كيف تستعمل الشوكة والسكين، وصحبناها إلى دار صديق لنا يعمل في بنك مصر وجلست روكيه لتأكل واستعملت الشوكة والسكين بمهارة طيبة وفجأة أقبل طبق الحمام المشوي وأكل الحمام يتطلب مهارة وتساءلنا بنظراتنا كيف ستتصرف روكيه فقد نسينا أن نعلمها كيف تأكل الحمام بالطريقة الأرستقراطية وبدأت قلوبنا تدق بشدة، وأنقذت روكيه الموقف إذ

اعتذرت عن أكل الحمام وقالت «مرسيه» أي شكرا باللغة الفرنسية كما نبهنا عليها، وهكذا استطاعت بسرعة خاطرها أن تنقذ الموقف الرهيب، وخرجت من المأدبة باسم جديد فقد دلعتها زوجة صاحبنا الموظف الكبير ونادتها «ياريري» وفرحت روكيه بالاسم الجديد وأصرت بأن نسميها ابتداء من تلك اللحظة باسم «ريري»!

وكان اسم الفتاة الحقيقي هو رقية محمد شريف وكانت في السادسة عشرة من عمرها تعمل كخادمة في بيت محام بشارع الدرمللي رقم ١١ وظيفتها أن تكنس وتمسح وتغسل وتكوي وتمسح البلاط وتخدم زوجة المحامي وأطفاله الثلاثة وتتقاضى في نظير ذلك كله ١٥٠ قرشا في الشهر، وقالت إن والدها كان يشتغل عامل بناء ثم ضعفت صحته فاشتغل «صرماتي» يرتق الأحذية إلى أن مات ثم ماتت زوجته التي كانت تعمل غسالة من كثرة العمل والاجهاد والصعود على درجات سلالم العمارات إلى السطوح حيث توجد غرف الغسيل!

وقالت إنه مضى عليها ثمان سنوات تشتغل خادمة وعندما سألناها عن أملها في الحياة قالت إن أملها أن تتزوج رجلا مرتبه ٢٠٠ قرش في الشهر!

وعندما عرضنا عليها أن نحولها إلى بنت ذوات قالت: ما انفعش ياسيدي! الناس كلها راح تقول: خدامة.. خدامة..!

وصحبناها إلى محل شيكوريل وكان أكبر محلات الأزياء في تلك الأيام فاشترينا لها حذاء سهرة بمبلغ ١٣٥ قرشا بدل الشبشب الذي كانت تعتز به واشترينا لها حذاء اسبور بمبلغ ٦٥ قرشا بدل القبقاب التي كانت تضعه في قدميها عندما جاءت للقائنا للمرة الأولى واشترينا فستاني سهرة أحدهما بسبعة جنيهات والآخر بعشرة جنيهات، وفستانا سبور بمبلغ ٢٨٠ قرشا وجوارب وقميصا داخليا وحمالة للصدر وكورسيه ومايوه، وكانت الفتاة سعيدة جدا بهذه المشتريات وقالت إنها ستبقيها ذخرا ليوم زفافها بالعريس المجهول!

ومن الطريف أنه عندما أحضر المحرر الفتاة في أول مرة إلى مكتبي في دار الهلال رفض المحرر أن تركب معه فتاة بملاية لف في المقعد الخلفي فأجلسها في عربة الحنطور

بجوار العربجي!

واقتحمنا بها صالون حلاق السيدات المشهور «سقراط» وكان أكبر حلاق للسيدات في مصر يصفف شعر الأميرات والنبيلات وزوجات كبار الأثرياء وعرضت على سقراط الفكرة وتحمس لها وراح يفحص شعر الفتاة ووجهها بنظرة الرجل الخبير وتوسم فيها النجاح.

وكانت إحدى وصيفات الملكة فريدة في الصالون وعندما رأت الفتاة بالملاءة اللف سألتني عن حكايتها فقلت لها إنها فتاة ستشتغل بالسينما وتمثل دور بنت ذوات فوقفت تحملق فيها ثم هزت كتفيها وقالت:

ـ شكلها شكل فلاحة لا تنفع ابدا!

والغريب أن وصيفة الملكة رأتها بعد ذلك في إحدى الحفلات ولم تعرف أنها الخادمة التي قالت إنها لا تنفع أبدا!

ومع أن الحلاق سقراط كان مشغولا دائما وأنه كان يطلب من زبونته أن تنتظر أسبوعا لكي يحدد لها موعدا يصفف فيه لها شعرها إلا أنه ترك كل أعماله وتحمس للفكرة وأمضى ساعتين كاملتين في تجميل الفتاة، وعندما وضع سقراط المكوى والهواء الساخن على شعر الفتاة ووجهها صرخت وبكت وصاحت «سيحرق شعري! لا ياسيدي لا أريد أن أكون حلوة!».

وتولت مساعدتان لسقراط عمل المانيكير في أظافر أصابعها والبيديكير في أصابع قدميها وتولت عاملة ثالثة تجميلها بالبودرة والكحل والروج.

ورفض الحلاق سقراط أن يأخذ مليما في مقابل هذه العملية الشاقة التي يتقاضى عليها عادة عدة جنيهات فقد كان فخورا أنه خلق من الخادمة الصغيرة فتاة أرستقراطية رائعة الجمال!

وما أن اكتملت زينة الخادمة وارتدت ثوب بعد الظهر الأنيق حتى نظرت في المرآة فلم تصدق أنها هي، أنكرت نفسها، وفي الحال بدأت الفتاة تتغير وشعرنا نحن أن انقلابا تم في مجرى حياتها لم تعد رقية الخادمة بل أصبحت «روكيه» أو على الأصح

ريري شريف ابنة اللواء محمد شريف باشا.

وصحبناها إلى ستوديو مسيو «بلا» مصور الأميرات المشهور فالتقط لها ١٦ صورة مجانا لأنها في رأيه تمثل الجمال الأرستقراطي المصري.

وسمع أحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكي قصة الخادمة التي نحاول أن نجعلها بنت ذوات أرستقراطية، فتحمس للفكرة فقد كان ساخطا على بنات الذوات محتقرا اهتمامهن بالمجوهرات والفساتين وانصرافهن عن العمل الاجتماعي والخيري فتحمس أن يعلم الخادمة قواعد البروتوكول وقد كان أعظم خبير للبروتوكول في مصر ووجد حسنين باشا متعة في وقت فراغه أن يعلم هذه الفتاة الغلبانة كيف تتحدث وكيف تجلس وكيف تمشي وكيف تنحني شاكرة، وكان رجلا صبورا لا ييأس من أغلاطها في البروتوكول ولا من غباوتها في فهم التقاليد المعقدة في بعض الأحيان، ولكنه طلب منا طلبا غريبا وهو أن نعلمها اللغة الفرنسية لأن بنات الذوات عادة يمزجن الكلمات العربية بالكلمات الفرنسية ولم نستطع أن نعلم روكيه إلا ثلاث كلمات هي بنجور و بنسوار ومرسيه!

وأبرز ما لاحظناه في أثناء تجاربنا تغير نفسيتها وطباعها فجأة من النقيض إلى النقيض فقد أقبلت في أول الأمر على القيام بدورها فرحة وسعيدة خاصة عندما عرفت انها ستلتقط لها عدة صور لأنها لم تقف في حياتها مرة واحدة أمام عدسة المصور، وكنت قد اتفقت مع المصور محمد يوسف كبير مصوري دار الهلال في تلك الأيام على أن يلازمها و يلتقط لها كل ما يستطيع من الصور في كل مكان، وقالت إنه لا يهمها كم ندفع لها مقابل قيامها بهذا الدور كل ما يهمها أن تعرف كم صورة سوف نلتقطها لها!

وفي أول الأمر كانت صريحة تقول إنها كانت تشتغل خادمة تغسل وتكنس وتمسح البلاط وتقبض مائة وخمسين قرشا في الشهر ولكنها ما كادت تزين وترتدي الملابس الأنيقة وتشعر بأنها أصبحت بنت ذوات حتى بدأت دون أن تشعر تنسى ماضيها وحدث أن سألها أحد المحررين عقب خروجها من صالون الحلاق سقراط: كم كان «مرتبك»؟ فقالت: كنت أقبض جنيهين ونصف ولكن شقيق البيه وأقاربه كانوا يعطوني بقشيشا فيصل مرتبي إلى خمسة جنيهات!

وأصبحت بعد ذلك وهي تروي قصتها تخفي أنها كانت تمسح البلاط وتدعي أنها كانت مربية الأطفال.. تناول البيه كوب الماء أثناء الطعام فقط لاغير وهكذا تضاعف مرتبها في أيام قلائل وارتفع مستوى عملها، وكنا قد طلبنا إليها ألا تقف احتراما للأغراب ونسيت نفسها واعتبرتنا أغرابا وإذا بها تنسى نفسها وتجلس أمامنا وتضع ساقا على ساق وتحرص في الوقت نفسه على أن يكون كعب حذائها في وجه رئيس التحرير!

وحصلنا لها على بطاقة دعوة في حفلة ساهرة تقيمها السيدة هدى هانم شعراوي زعيمة النهضة النسائية في مصر وقد دعت لها الأميرات والنبيلات وزوجات الوزراء والشخصيات الكبيرة في البلاد.

وأحاط بها الوزراء وأصحاب الملايين وزوجات العظماء وكان أحد الوزراء الحاضرين معجبا بالجنس اللطيف: فتقدم إليها وسألها عن اسم ابيها فقالت: اللواء محمد شريف باشا، وإذا بالوزير يصيح: أوه! شريف باشا إنه صديق عزيز! ولم يخطر ببال الوزير أن اللواء محمد شريف باشا هو شخصية لا وجود لها على الاطلاق واحتضنتها زوجة أحد الوزراء السابقين وقالت لها: إنني سأزوجك من ابني!

والتقط محمد يوسف صورة لزوجة الوزير وهي تحتضن الخادمة التي تمسح البلاط! والتقت بها السيدة أم كلثوم ووقفت تتحدث إليها وتبدي إعجابها باناقتها وتسألها أين صفت شعرها وأين حاكت ثيابها!

وقالت:

ــ خدي بالك! المصوراتي قبل ما يلقط الصورح يضرب مغنسيوم يفرقع! فأوعى تخافي!

وكانت روكيه هي نجمة حفلة الاتحاد النسائي في تلك الليلة!

وصحبناها إلى حمام مينا هاوس وإلى نادي الجزيرة وتناولت الطعام في فندق سميراميس ولم يخطر ببال أحد من تكون هذه الفتاة الجميلة التي لا تكاد تجلس إلى مائدة حتى تغص الموائد حولها بالذين يسارقونها النظر ولا تسير إلا و يتبعها طابور من المعجبين.

وفجأة ظهرت مجلة الاثنين في يوم ١٩ مايو سنة ١٩٤١ وفيها صورة تحتل صفحة كاملة لفتاة جميلة وقد كتب تحتها بالخط العريض هذه الفتاة شوهدت في حفلات الطبقة الراقية.. من هي؟ وفي الصفحة الثانية صورة الفتاة وهي تقود سيارة بويك في نادي الجزيرة وصورة لها تجلس مع أسرة معروفة في حمام مينا هاوس وصورة لها وهي في إحدى حفلات الطبقة الراقية تحتضنها زوجة وزير معروف وصورة كبيرة لها وهي تتحدث مع أم كلثوم في سهرة هدى هانم شعراوي!

وفي الصفحة الثالثة صورة الخادمة رقية وهي تمسح البلاط وصورة ثانية لها بالملاية اللف والشبشب في سوق الخضار وصورة ثالثة لها وهي بالملاية اللف تحاول إخفاء وجهها من المصور.

وفي الصفحة الرابعة صورة للخادمة وهي تجلس بجوار العربجي في العربة الحانطور في طريقها إلى دار الهلال وصورة للحلاق سقراط وهو يفحصها و يدرسها وصورة لعاملات الصالون وهن يحولن الخادمة إلى فتاة أرستقراطية.

وفي الصفحة الخامسة صورة لها وهي تسبح في حمام مينا هاوس وصورة لها بفستان السهرة في حفلة ساهرة أقامها البارون امبان أغنى رجل في مصر في تلك الأيام، في مقره الهندي قرب مطار القاهرة وفي الصفحة السادسة صورة لها في سهرة قصر عنايات هانم سلطان إحدى سيدات المجتمع في تلك الأيام.

وأحدث نشر هذه «الخبطة الصحفية» ضجة في المجتمع الراقي وثارت ثورة بنات الذوات واحتجت الأميرات اللاتي حضرن هذه السهرة مع هذه الخادمة وجلسن معها على موائد واحدة واحتجت زوجات الوزراء على ظهور صورهن مع خادمة تمسح البلاط واحتجت هدى هانم شعراوي لادخالنا خادمة في سهرتها القاصرة على الكبراء والعظماء!

وأصبح موضوع الخادمة حديث الناس طوال الأسبوع وتساءل كثيرون أهذه قصة واقعية أم قصة خيالية؟ فقد عز عليهم أن يصدقوا أن فتاة بنت بلد تستطيع أن تقفز في أيام من قاع المجتمع إلى قمة المجتمع، وأن تتحول فجأة من خادمة تقبل أيدي الأسياد إلى سيدة يهرع الأسياد أنفسهم إلى تقبيل يدها مع أننا حرصنا ألا ننشر صور بعض

وزراء حسين سري باشا وهم يقبلون يد الخادمة رقية! وتساءل غيرهم! ما هو شعور الفتاة الآن؟ وهل أفسدت التجربة حياتها ما هو مصيرها؟ وهل قبلت أن تعود لتمسح البلاط من جديد بنفس اليدين اللتين ازدانتا بالحلي والمجوهرات التي اقترضناها من محلات السرجاني الجواهرجي وأعدناها بعد ثلاثة أيام!

واهتممت بمصير الفتاة وأوفدت إليها المحرر الذي اكتشفها ليطمئن عليها وأقبلت ريري علينا وقد عادت خادمة من جديد، طارت البودرة من وجهها ولم يبق أثر المكياج، غسلت شعرها فاختفى فن الحلاق سقراط، ارتدت الملاءة اللف السوداء فوق الفستان السبور، تجردت من المصوغات الثمينة التي حلت عنقها واذنيها وذراعيها وسألتها هامسا:

ــ ألا تريدين يارقية أن تصبحي دائما بنت ذوات؟

ــ لا أبدا! إنني أشعر أنني كنت سأختنق في هذا الجو المسموم، إنني أحببته أولا ولكنني لم ألبث أن كرهته، شعرت أن أولئك الذين احترموني وتظرفوا معي لم يفعلوا ذلك إلا من أجل البودرة والتواليت والمجوهرات التي استأجرتها المجلة والفستان الذي اشتريتموه لي، شعرت أن كل تحية موجهة إليّ إنما موجهة لهذه الأشياء وحدها شعرت أن الأشخاص الذين قابلتهم في تلك المآدب والسهرات مزيفين مثلي نصابين مثلي يخدعونني كما كنت أخدعهم يغشونني كما كنت أغشهم، سأعود أمسح البلاط من جديد، وقد تدهش أنني أتلذذ من مسح البلاط أكثر من التلذذ في الجلوس في شبرد وسميراميس ومينا هاوس وقصر البارون امبان!

وانهالت الخطابات من القراء والقارئات يشفقون على مصير الخادمة التي ظلمناها بتحويلها إلى بنت ذوات بضعة أيام.

وحرصنا على ألا نتركها في الهواء وسعينا في وظيفة ممرضة في مستشفى الدكتور عبدالوهاب مورو باشا فرحب الطبيب بالفكرة ولكن رقية رفضت! واتصل بي المخرج المعروف محمد كريم وعرض عليّ أن يختارها ممثلة في فيلم عبدالوهاب الجديد، ولكن الخادمة رفضت أن تشتغل بالسينما.

وتقدم لخطبتها قارىء مرتبه ثمانية جنيهات ورفضته الخادمة وزاد قلقي على مصير

الخادمة!

وفجأة علمت أنها تزوجت المحرر الذي كلفته بعمل الموضوع الصحفي وصحبها في كل مراحله.

فقد أحبها المحرر وهي تقوم بدور بنت الذوات وأحبها أكثر عندما عادت خادمة من جديد وعاشا في التبات والنبات ورزقا بالأولاد والبنات!



الحبُ الذي عاش ٥٠ سنة !

كنت طالبا في كلية الحقوق في القاهرة، وكنا نستمع باصغاء تام إلى الدكتور بهجت بدوي وهو يشرح لنا القانون بأسلوبه الشائق الجميل، وفجأة سمعنا صوتاً يدوي كالرعد خارج المدرج وهو يصرخ: الحقوا! أيها الطلبة! يا أبناء مصر البررة! يا حراس الفضيلة! إن جريمة فعل فاضح علني ترتكب الآن في ملعب التنس في حرم الجامعة!

وباعتبارنا أبناء مصر البررة وحراس الفضيلة قفزنا من مقاعد الدراسة وأسرعنا إلى الباب تاركين أستاذنا يكمل محاضرته للمقاعد الخالية!

وأسرعنا نعدو إلى ملعب التنس لننقذ الفضيلة! ووجدنا الآنسة أمينة السعيد تلعب التنس مع ممرن التنس بالجامعة، وقد ارتدت فستانا يغطي جسمها وذراعيها وساقيها إلى ما تحت الركبة! فستان طويل، لا شورت، ولا ميني جوب! ولكن زميلنا حامي الفضيلة رأى في لعب فتاة للتنس عملاً فاضحا في الطريق العام، وجريمة مخلة بالآداب تستوجب أن يقوم لها طلبة جامعة القاهرة ولا يقعدون!

وكان الدكتور منصور فهمي عميد كلية الآداب يومئذ، وكان قد خلف الدكتور طه حسين بعد طرده من عمادة الآداب، وكان وزير المعارف حلمي عيسى باشا يدعو إلى منع اختلاط الطلبة والطالبات في الجامعة وكنا نسميه وزير التقاليد.

وسمع العميد بحكاية لعب أمينة السعيد التنس فثار وغضب وأرسل الأستاذ عباس سكرتير الكلية إلى أمينة يقول لها: إن العميد يقول «بلاش لعب تنس»! وسألته الطالبة: لماذا؟ قال السكرتير: لا يوجد بنات يلعبن التنس!

وذهبت أمينة إلى بيتها غاضبة حانقة، وسألها أبوها ماذا جرى؟ قالت: العميد يهددني! وروت له ما حدث وقال الأب: أذكر أنني دفعت لك رسوم اتحاد الجامعة ورسوم الألعاب الرياضية وما دامت الكلية قبلت هذه الرسوم فمن حقك أن تزاولي

كل رياضة، اذهبي والعبي ولا يهمك، وسأقف إلى جانبك مادمت لا ترتكبين خطأ، وإذا حدث ورفتوك من الكلية ظلما سوف أرسلك إلى انجلترا لاتمام دراستك، وإذا غلطت سأبقيك في البيت لا تخرجين منه إلا إذا تزوجت!

واستمرت أمينة تلعب التنس في ملاعب الجامعة متحدية عميد كلية الآداب.. ووقف الطلبة بجوارها يؤيدونها ضد العميد.

واعتادت الطالبة أمينة أن تقيم في دارها مأدبة بمناسبة قرب انتهاء العام الدراسي تدعو إليها أساتذتها وزملاءها وزميلاتها في الفصل! وسمع عميد الكلية بهذه المأدبة وأرسل واستدعى الطالبة أمينة وسألها.

ــ من حضر هذه المأدبة؟

ــ أبي وأمي

ــ ومن؟

ــ والأساتذة؟

ــ ومن؟

ــ وزميلاتي وزملائي!

وقال العميد: هذه المسائل تثير كلاماً ولا أريد أن تتكرر مرة أخرى!

وفي السنة التالية أقامت أمينة نفس المأدبة الممنوعة.. واستدعاها الدكتور منصور فهمي عميد الكلية إلى مقابلته، واعتقدت أمينة أن العميد سيفصلها أو سينذرها ولكنه قال لها: لماذا لم تدعيني لحضور مأدبتك!

ودهشت أمينة السعيد لأن العميد غيّر موقفه فجأة.. ثم زالت دهشتها عندما علمت أن الوزارة استقالت، وعين وزير آخر للمعارف لا يرى في دعوة طالبة لأساتذتها في حضور أبيها وأمها عملا مخلاً بالآداب العامة!

وانقسمت الجامعة إلى حزبين حزب ينتصر للآنسة سهير القلماوي الطالبة بالسنة الثالثة بكلية الآداب وتلميذة طه حسين المفضلة، وحزب ينتصر للآنسة أمينة السعيد الطالبة بالسنة الأولى بقسم اللغة الانجليزية.

وكنت يومئذ نائب رئيس تحرير مجلة «آخر ساعة» إلى جانب أنني طالب بكلية الحقوق، وكان من رأيي أنه يجب أن تعمل الفتاة بالصحافة، ولم يكن لدينا في مصر يومئذ صحفية واحدة، كان لدينا كاتبات مقالات مثل مي زيادة و باحثة البادية ومنيرة ثابت، وكانت لدينا صاحبات صحف مثل بتسي تقلا أرملة سليم تقلا باشا صاحب الأهرام وروز اليوسف صاحبة مجلة روز اليوسف وكل هؤلاء يدرن الصحف ولا يزاولن الأعمال الصحفية.

وشعرت من نشاط الطالبة أمينة السعيد في الجامعة، واتصالاتها الواسعة بجميع الأنشطة الجامعية وقوة شخصيتها وحدة ذكائها وخفة دمها وقوة ملاحظاتها أنها تصلح أن تكون أول صحفية في مصر تبحث عن الخبر، وتكتب التحقيق الصحفي، وتحترف الصحافة بمعنى الكلمة وعرضت عليها أن تعمل معي في مجلة آخر ساعة فترددت، ثم ألححت عليها فقبلت هذا العمل الغريب، ولكنها طلبت أن تخفي اسمها حتى لا يعرف أبوها وأمها أنها تعمل في الصحافة! وأخذتها من يدها وقدمتها للأستاذ التابعي فعينها بمرتب ثلاثة جنيهات في الشهر، كانت تتقاسمها مع شقيقتها الصغرى عظيمة السعيد، في مقابل أن تتستر عظيمة عليها في عملها الصحفي كلما ذهبت إلى مجلة آخر ساعة!

وأجلستها في مكتب مع الرسام صاروخان والدكتور سعيد عبده، وكانت أمينة تسميهما «صاروخين.. لا صاروخ واحد»!

وكلفتها بأول موضوع صحفي..

في فندق سان استيفانو برمل الاسكندرية حمامان، حمام للرجال فقط، وحمام للسيدات، وهو مكان محرم على الرجال أن يدخلوه أو يقتربوا منه أو يصوروه أو يعرفوا ما يدور فيه، وكان يتردد على حمام السيدات هذا زوجة رئيس الوزراء وزوجات أصحاب المعالي الوزراء، ويخلعن ملابسهن و يرتدين مايوهات تغطي أغلب أجسامهن، وهي مايوهات من قطعة واحدة، ثم ينزلن إلى البحر، و يتعلقن بحبل، لأن أغلبهن لا يعرف السباحة! وتدور بين زوجات الوزراء أحاديث في السياسة: وما يقوله زوجي دولة الباشا، والخبر الذي همس به زوجي معالي وزير المالية وطلب مني

أن أتعهد بكتمانه عن كل الناس!

ودخلت أمينة السعيد حمام السيدات، وارتدت المايوه الأسود الحشمة، وتظاهرت أنها لا تعرف السباحة، وتعلقت بالحبل مع زوجات الوزراء، وكانت زوجة كل وزير تظن أن أمينة ابنة الوزير الآخر!

وخرجت أمينة من حمام السيدات وكتبت موضوعا صحفيا شائقا عن كل ما يدور في الحمام من أحاديث وأسرار وأخبار!

وما كاد يصدر عدد «آخر ساعة» حتى قامت الدنيا ولم تقعد، واجتمع الوزراء برئاسة عبدالفتاح يحيى باشا رئيس مجلس الوزراء ليبحث هذا التعدي الخطير على مجلس الوزراء وزوجات مجلس الوزراء، واتفق الوزراء بالاجماع على تعطيل مجلة «آخر ساعة» فوراً!

واستدعوا محمد لبيب عطية باشا النائب العام ليضع الأسباب الثانوية لقرار التعطيل! وجاء النائب العام وقرأ المقال الذي أثار أعصاب أصحاب المعالي الوزراء، وقال إنه لا يجد فيه أي مخالفة لقانون العقوبات.

وتقرر البحث عن كاتب المقال ــ وقالت التقارير السرية إن طالبة في كلية الآداب اسمها أمينة السعيد تتردد على إدارة مجلة «آخر ساعة» يومياً.. وامتدت أصابع الاتهام نحو أمينة.. وخافت أمينة وطمأنتها أنا والتابعي أن أحداً لن يعرف أنها كاتبة المقال، وأنه يجب أن تنكر وتصر على الانكار.

وفوجئت أمينة بمحمد علي علوبة باشا الوزير السابق والمحامي الكبير وصديق الأسرة يزورها في بيتها و يسألها: هل أنت التي كتبت هذا المقال؟

وكانت أمينة متأكدة أننا سنحميها فقالت: لا؟
وعاد علوبة باشا ليسألها: هل أنت متأكدة؟
وأصرت أمينة على الانكار.
وسألها فجأة: ألا تعرفي التابعي ومصطفى أمين؟
قالت أمينة: لا أعرفهما.. ولم أروجه واحد منهما في يوم من الأيام!

وقال علوبة باشا: سأصدقك، ولكن الكاتبة التي ارتكبت هذه الفعلة كانت غبية، لأنها عرضت نفسها لمشكلة أكبر منها، وكان من الممكن أن يحدث لها ضرر كبير لولا موقف بعض الناس الطيبين!

واتصل بي بدوي خليفة بك وكيل الداخلية وسألني: من هي كاتبة المقال؟

فقلت له إن الكاتب رجل وليس امرأة! وإنه استمد معلومات المقال من زوجة أحد أصحاب المعالي الوزراء، وإنني لا أرغب في ذكر اسم الوزير حتى لا تحدث أزمة وزارية!

وصدق وكيل وزارة الداخلية هذه المعلومات السرية!

* * *

واستمرت أمينة السعيد تعمل في مجلة «آخر ساعة» في الخفاء ولم يكن أي فرد من أسرتها يعلم بهذا السر الرهيب سوى شقيقتها عظيمة التي كانت تأخذ من مرتبها ١٥٠ قرشاً في مقابل السكوت، وخطيبها الشاب عبدالله زين العابدين المعيد بكلية الزراعة.

وكان عبدالله يصحبها في سيارته إلى آخر ساعة بعد ظهر كل يوم، ثم يعود في الساعة التاسعة مساء و يصحبها في سيارته إلى بيتها، وتتصور الأسرة أن الخطيبين كانا يمضيان الوقت في مشاهدة السينما أو تناول الشاي في فندق ميناهاوس!

وذات يوم طلبت أمينة من خطيبها أن يعطيها سيارته لتذهب إلى بيت هدى هانم شعراوي زعيمة النهضة النسائية للحصول على أخبار منها، وأعطاها عبدالله سيارته، وقادتها أمينة.. وأمام منزل هدى شعراوي صدمت أمينة أحد المارة وكسرت ساقه، وجاء البوليس وحرر لها محضراً واستطاعت هدى هانم أن تستصدر قراراً بالافراج عنها، وتسوية الحادث في هدوء وكانت أمينة لا تحمل ترخيصا بقيادة السيارات!

وظنت أمينة أنها نجت من المصيبة بسلام، وفجأة صدرت إحدى المجلات الأسبوعية وفيها الخبر التالي «الآنسة أمينة السعيد الطالبة في الجامعة والمحررة بمجلة «آخر ساعة» صدمت بسيارتها رجلا وكسرت ساقه، وتحرر لها محضر في قسم بوليس

عابدين!

وقرأت أم أمينة السعيد الخبر، وكانت مريضة بالقلب فلم تصدقه، و بدأت تقلق وكان انزعاجها الأكبر على أن ابنتها تشتغل بالصحافة، وليس على أنها كسرت ساق رجل في الطريق العام!

واستدعت الأم أمينة وأعطتها المجلة وقالت لها: أنظري ماذا يقولون عنك!

وأمسكت أمينة بالمجلة واصفر وجه أمينة ذعراً، وسألتها أمها: هل هذا صحيح أم غلط؟ واضطرت أمينة أمام نظرات أمها الفاحصة أن تعترف وتقول: نعم أنا أشتغل صحفية في «آخر ساعة»!

وأصيبت الأم بأزمة قلبية!

وجاء الدكتور أنيس سلامة أستاذ القلب وأنقذ الأم من الموت، وشعرت أمينة أنها قتلت أمها، وقالت لها: أعدك أنني لن أشتغل بالصحافة بعد الآن!

وانقطعت عن العمل في آخر ساعة بضعة أيام حتى شفيت أمها..

وعندئذ وجدت نفسها في مكاتب مجلة آخر ساعة من جديد!

ثم انتقلت من مجلة «آخر ساعة» إلى دار الهلال، و بدأت تكتب عن المجتمع وشؤون المرأة في مجلة «المصور» ومجلة الاثنين.

وذات يوم علمت أمينة أن زوجة رفعت قضية أمام المحكمة الشرعية تطلب الطلاق من زوجها لأنه مريض بقواه العقلية بشهادة الأطباء! وإذا بالمحكمة الشرعية تحكم برفض الطلاق وقال القاضي الشرعي في حكمه: «ولو أن الزوج مجنون إلا أنه قادر على القيام بواجباته الزوجية».

وكتبت أمينة مقالا هاجمت فيه القاضي وهاجمت الحكم واتهمت القاضي بأنه ظالم وجاهل ومتجمد!

وقامت الدنيا واحتج القضاة، وجاء الأستاذ علي أيوب وقد كان أحد كبار الوفديين وكبار المحامين ومن أصدقاء الأسرة واستدعى أمينة وقال لها: اليوم جئت

إليك لأقول لك إنني منعت قراراً أصدره النائب العام بالقبض عليك بسبب هذا الكلام الفارغ الذي كتبته في مجلة «الاثنين» إنك طعنت في حكم قضائي وهذا مخالف للقانون، وأهنت قاضياً وهذه جريمة في قانون العقوبات وطالبت بالغاء المحاكم الشرعية وقد قامت قيامة رجال الدين، وقد دافعت عنك بأنك بنت جاهلة وعبيطة، ولا تعرفين قانون العقوبات ولولا صداقتي بالنائب العام لكنت في السجن الآن.. وقد ضمنتك عند النائب العام على ألا تعودي إلى هذا الموضوع مرة أخرى.

وعاشت أمينة بعد ذلك في الصحافة، تخرج من أزمة لتدخل في أزمة، لا تهدأ عاصفة حتى تبدأ عاصفة جديدة، تقول رأيها ولا تتردد ولا تخاف، تتلقى شتائم القراء بنفس السعادة التي تتلقى بها خطابات الاعجاب، تسمع خطباء بعض المساجد يلعنونها فلا تغضب، وتقرأ مقالات بعض الكتاب يهاجمونها فتطرب للهجوم كأنها تسمع غناء عبدالحليم حافظ! وتتلقى رسائل التهديد فتعتبرها باقات الزهور!

وبدأ اسمها يظهر و يرتفع و ينتشر و يتألق، وفكر أميل زيدان أحد صاحبي الهلال في إصدار مجلة نسائية شهرية باسم «حواء» و بلا تردد اختار أمينة السعيد رئيسة للتحرير.

ومكثت دار الهلال تستعد من عام ١٩٥٢ إلى عام ١٩٥٤ لاصدار حواء، تعد الماكيتات والبروفات والتجارب للأبواب والصفحات إلى أن أصدر العدد الأول في أول يناير سنة ١٩٥٤ ونجحت المجلة الجديدة نجاحا هائلاً، وكان اسمها في أول الأمر «حواء الجديدة» لأن اسم «حواء» كان يملكه أحد أصحاب الصحف وتفاوضت معه دار الهلال واشترت الاسم وغيرت اسم «حواء الجديدة» إلى «حواء» فقط!

ووزع أول عدد ١٧ ألف نسخة، ثم استمر صعودها إلى مائة الف نسخة، و بعد هزيمة ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ أضرب الشعب المصري عن قراءة الصحف المصرية، فهبطت مجلة حواء إلى ١٢ الف نسخة، وبعد الغاء الرقابة على الصحف استردت حواء قراءها.

ومضت أمينة تدافع عن حقوق المرأة وتقف إلى جوار كل امرأة مظلومة، ثم

استطاعت أن تجذب الرجل إلى قراءة مجلة حواء حتى جاء تقرير علمي عن دراسة قراء هذه المجلة النسائية فاذا بأغلبية القراء من الرجال!

* * *

ثم أصبحت أمينة السعيد شخصية صحفية لامعة، وفي سنة ١٩٥٨ عرضت عليها أن تكون أحد رؤساء تحرير جريدة الأخبار بجوار محمد التابعي وعلي أمين وجلال الدين الحمامصي وأحمد الصاوي محمد ومحمد زكي عبدالقادر وأحمد بهاء الدين.

ورفضت أمينة المنصب الكبير وقالت لي إنه أكبر منها! ولم تنفع محاولاتي فقد أصرت أن تبقى رئيسة لتحرير مجلة حواء!

وفي سنة ١٩٦٢ استدعاني الرئيس جمال عبدالناصر وأبلغني أنه اختارني رئيسا لمجلس إدارة أخبار اليوم، واختار علي أمين رئيسا لمجلس إدارة دار الهلال، وطلب مني أن أرشح له أعضاء مجلس إدارة دار الهلال!

واخترت أمينة السعيد بين الأعضاء!

ودهش الرئيس جمال عبدالناصر وقال: ولكنها رئيسة تحرير مجلة نسائية!

قلت له: منذ أربع سنوات رشحتها رئيساً لتحرير جريدة الأخبار ورفضت.

وقال عبدالناصر: مادامت تصلح رئيس تحرير جريدة يومية فهي إذن تصلح عضو مجلس إدارة دار الهلال!

ثم سكت قليلا وقال: إن زوجتي قارئة معجبة جداً بأمينة السعيد..

وهكذا كانت أمينة السعيد أول مصرية تعين في مجلس إدارة مؤسسة صحفية.

وبعد ذلك عين الرئيس أنور السادات أمينة رئيسة لمجلس إدارة دار الهلال فكانت أول سيدة عربية ترأس مجلس إدارة مؤسسة صحفية كبرى.

وكان الرئيس السادات معجبا بأمينة السعيد.. ولكن حدث ذات يوم أن كانت أمينة السعيد وعدد من رؤساء مجالس إدارات الصحف في طائرة الرئيس السادات المتجهة إلى امريكا.

وجلس الرئيس يتحدث عن معاهدة كامب ديفيد وقال الرئيس إنه يعتقد أن المملكة السعودية ستوافق على هذه المعاهدة.

وقالت له أمينة السعيد إن معلوماتي تؤكد أن المملكة السعودية سترفض هذه المعاهدة.

وثار السادات على أمينة السعيد لأن المعلومات الرسمية التي جاءت له زعمت أن السعودية ستوافق.

وأصرت أمينة على رأيها وأكدت أن الذين قالوا للسادات ذلك يكذبون عليه ويخدعونه!

وغضب السادات على أمينة. وهذا هو سر قرار السادات بإقالة أمينة السعيد من رئاسة تحريرَ مجلة المصور ورئاسة مجلس إدارة صحف الهلال.. فان شجاعتها كلفتها هذا المنصب الكبير!

* * *

وإذا كان وراء كل رجل ناجح امرأة، فقد كان وراء نجاح أمينة السعيد رجل، وكان هذا الرجل هو دكتور عبدالله زين العابدين، كان طالباً في كلية الزراعة عندما رأى الآنسة أمينة السعيد التلميذة بالمدرسة السنية في بيت أحد أصدقاء الأسرة في حلوان، وأحب عبدالله أمينة من أول نظرة! وانتظر حتى تخرّج وأصبح معيداً في كلية الزراعة وعمره ١٩ سنة وتقدم لخطبة أمينة، واعترض والدها أن تتزوج ابنته الثالثة قبل أن تتزوج أختها الأكبر منها كريمة! واعترضت كريمة على قرار والدها وذهبت إليه تحتج وتقول إن قراره إهانة لها، وإنها مصرة أن تخطب أختها الصغيرة قبلها ووافق الأب على الخطبة بشرط ألا تتزوج إلا بعد أن تحصل على الشهادة الجامعية لأن له تجربة مع ابنته الكبرى فاطمة فقد زوجها وعمرها ١٧ سنة، فماتت في حمى النفاس!

وقبل عبدالله أن ينتظر ست سنوات، فقد خطبها في عام ١٩٣١ وتزوجا في عام ١٩٣٧، وشجعها على أن تعمل في الصحافة، ووقف بجوارها في أزماتها ومحنها وحروبها، وكان أعجوبة بين الرجال، عالم في تواضع، وساخر في أدب، يكره

الأنوار و يفر من الأضواء، ظهر تلامذته وتوارى، زهد في المال، ذكاء مفرط في هدوء، لا يدخل في المعارك، وإنما يصمد خلف زوجته في كل معركة كأنه عمودها الفقري، لم يكن يتضايق من شهرة زوجته الذائعة وانه هو العالم المجهول بجوارها، ولم يكن يغضب عندما كان يسميه الأجانب «مستر السعيد» متصورين أن «السعيد» هو اسمه بل كان يضحك فخوراً بشهرة زوجته!

وذات يوم عينته الأمم المتحدة خبيراً بها و بقي يعمل بها اربع سنوات، وقررت الأمم المتحدة ان تستبقيه اربع سنوات اخرى بمرتب ضخم كبير.

وإذا به يتلقى خطاباً من القاهرة بتوقيع زوجته أمينة وأولاده حازم و باسل وابنته انجي والخطاب يقول:

«افتقدناك، البيت لم يعد أسرة سعيدة، لا نريد فلوساً! وإنما نريدك أنت معنا، من فضلك ارجع إلى بيتنا»

وقرأ عبدالله الخطاب وجمع ملابسه على الفور و وضعها في حقيبة وطار إلى القاهرة.

كانت علاقة أمينة بزوجها قصة حب عاشت خمسين عاماً، قصة حب بين النار والماء، هي انفعالية وهو هادىء، هي تغلي وهو بارد، هي تتكلم وهو يسكت، هي تصرخ وهو يهمس، هي تغضب وهو يضحك، هي تحب الحرب، وهو يعشق السلام، ولكن اجتماع الأضداد خلق عشاً سعيداً، فقد استطاع الحب أن يمحو الفوارق ويحول الماء المغلي والماء البارد إلى شراب سلسبيل! كان حبهما شيئاً جميلاً يجد فيه الناس مثلاً أعلى للعلاقة بين أستاذ عاكف في معمله وامرأة تملأ الدنيا ضجيجا وحياة، كان لا يناديها إلا «ياأمينة هانم».

وذات يوم صدرت صحف القاهرة وفي صفحتها الأولى خبران!

الخبر الأول إقالة أمينة السعيد من منصب رئيسة مجلس إدارة دار الهلال ورئيسة تحرير مجلة المصور ومجلة حواء.

الخبر الثاني خبر وفاة دكتور عبدالله زين العابدين زوج امينة السعيد وحبيبها لمدة خمسين سنة!

صاعقتان في يوم واحد!

واحتملت أمينة الصاعقتين وهي واقفة على قدميها.

ورفضت أن تركع.

ومنذ يومين سألتها:

ــ من تحبين أكثر.. الصحافة.. أم عبدالله؟

قالت أمينة والدموع في عينيها:

ــ عبدالله طبعاً!



المطربة التي قتلت الصحفي والصحفي الذي دفن المطربة!

كنت أقرأ مذكرات الزعيم سعد زغلول عن سنوات الحرب العالمية الأولى وفوجئت عندما وجدت فيها اسم المطربة منيرة المهدية! كان سعد يصف ليلة امضاها في الأوبرا ومعه عبدالخالق ثروت باشا واسماعيل صدقي باشا، وقال إنه فهم من حديث الوزيرين أنهما يترددان على فنانة اسمها منيرة المهدية!

وكانت منيرة في تلك الأيام صاحبة كازينو في الأزبكية اسمه «كازينو نزهة النفوس» واشتهرت أغانيها مثل «أسمر ملك روحي» و«عصفوري يامه عصفوري» كما غنت معظم ألحان سيد درويش وداود حسني.

ثم انتقلت من التخت إلى المسرح، فقد عشقها أحد كبار أثرياء مصر واسمه محمود جبر ووضع تحت تصرفها كل ثروته، فألفت فرقة مسرحية مثلت على مسرح بريتانيا روايات مشهورة مثل «كلها يومين» التي لحنها سيد درويش، واوبريت «الغندورة» التي لحنها داود حسني و«كليوبترا» التي وضع ألحانها سيد درويش وأكملها محمد عبدالوهاب.

وفي أثناء ثورة ١٩١٩ أصدر القائد العام البريطاني أمراً عسكرياً بسجن كل من يذكر اسم زعيم الثورة سعد زغلول ستة أشهر مع الشغل وجلده عشرين جلدة.. وهنا غنت منيرة المهدية أغنيتها المشهورة «يابلح زغلول ياحليوه يابلح. عليك بنادي في كل نادي. يابلح زغلول ياحليوه يابلح..!» وانتشرت الأغنية، وأصبحت على لسان النساء والرجال والباشوات والفلاحين حتى تحولت إلى اشبه بالنشيد الوطني تحديا لأمر قائد جيوش الاحتلال!

وأصبحت منيرة المهدية المطربة الأولى في مصر بلا منازع، وفجأة جاءت أم كلثوم إلى القاهرة، وأحست منيرة أن العرش الغنائي يهتز تحتها وسمعت أن الجماهير جنت بغناء أم كلثوم فلم تصدق ما سمعت، وفي إحدى الليالي ارتدت ملاءة لف سوداء،

ووضعت على وجهها برقعاً ، وارتدت شبشبا في قدميها حتى تبدو كبنات البلد وصحبت معها الممثل محمد بهجت وذهبت إلى مسرح رمسيس حيث كانت تغني أم كلثوم ، واشترت منيرة تذكرة في أعلى التياترو ، وهو أرخص مقعد في المسرح ، وجلست منيرة المهدية تسمع أم كلثوم- والجمهور يهلل و يصفق و يستعيد و يترنح ، وشهدت سيطرة أم كلثوم العجيبة على المستعمين ، وهي تتحكم فيهم بصوتها الخلاب وتجعلهم يرقصون في مقاعدهم ، و يترنحون على نغماتها ، و يهبون واقفين مصفقين لها هاتفين بحياتها ! ولم تحتمل منيرة المهدية أن تحضر أكثر من الوصلة الأ ولى من غناء أم كلثوم فتركت المسرح غاضبة ساخطة على غباء الجمهور وجحوده وقلة ذوقه ، وعادت إلى عوامتها في النيل وهي تكاد تجن سخطاً وغضباً ، وأخذت تفكر كيف تقضي على هذه الفتاة الصغيرة التي جرأت على عرشها ، وأصبحت تهدد سلطانها !

وهداها شيطانها إلى حيلة غريبة للقضاء على المنافسة الخطيرة.

كانت في ذلك الوقت تصدر مجلة فنية اسمها مجلة «المسرح» وكانت أوسع الصحف انتشاراً في تلك الأ يام ، وكان صاحبها شاب اسمه الأستاذ محمد عبدالمجيد حلمي الناقد الفني لجريدة كوكب الشرق ، وكان ناقداً عنيفاً لاذعاً ، له قلم يشبه الحراب ، وكان له اسلوب أقوى من المدفع الرشاش ، وكان شاباً صعيدياً بريئاً لم تسبق له غزوات أو مغامرات في عالم العشق والهوى والغرام.

وقررت منيرة المهدية أن تقع في غرام الصحفي الشاب ، ودعته إلى الغداء في عوامتها ، و بعد ساعة واحدة كان يجلس تحت قدميها يبادلها عبارات الشوق وهي تلقي البترول على قلبه المشتعل فتندلع النيران!

وخرج عبدالمجيد الطيب من عند منيرة وهو مقتنع بأنه حبها الأ ول والأخير، وأصبحت مجلة المسرح هي مجلة منيرة المهدية سلطانة الطرب في مصر والشرق! و بدأت مجلة المسرح تهاجم أم كلثوم وقالت في ١٧ يناير سنة ١٩٢٧ «أم كلثوم لها مئات العشاق ولا ادري ماذا يحبون فيها ؟ فهي ليست على شيء من الجمال ولا خفة الروح ، ولا سلامة الطبع»

وفي ٣١ يناير سنة ١٩٢٧ كتبت مجلة المسرح تقول «إن أم كلثوم نجمها قد

غرب».

وفي ٣١ يناير أيضاً كتبت مجلة المسرح تقول «إن أم كلثوم قدمت وهي بنت صغيرة شكوى لمحكمة السنبلاوين بأن شابا من القرية أغتصبها» ووعدت بنشر نص الحكم ولم تنشره ابداً لأنه كان خبرا مختلقاً، ولكن هذا الخبر كاد ينجح في إعادة أم كلثوم إلى قريتها، فقد قرأه والدها الشيخ ابراهيم وأقسم ألاّ تبقى أم كلثوم في القاهرة يوماً واحداً وأمر بحزم الحقائب وركعت أم كلثوم على قدم والدها تتوسل إليه أن تبقى في القاهرة بعد أن بزغ نجمها، ولكن الأب أصر لولا أن صديقا للأسرة حضر في تلك اللحظة واستطاع أن يقنع الشيخ ابراهيم بالبقاء في القاهرة الملعونة.

وفي يوم ١٤ فبراير سنة ١٩٢٧ كتبت مجلة المسرح تقول «أم كلثوم يلذها أن يتطاحن الأصدقاء و يهان الناس في سبيلها، وكانت مثالا للزراية بعظمة الرجال والعبث بعقول الشبان، والاستهتار بقلوب أولئك الذين أوقعهم سوء الحظ في حبالها، أليس فيهم من طلق امرأته من أجلها؟ أليس فيهم من أصبح هزأة الناس من أجلها؟ أليس فيهم من قاطع أهله وأصدقاءه من أجلها؟ أليس فيهم من أخذت ثروته في التلاشي من أجلها؟! وهي ماذا صنعت من أجلهم؟ حتى ولا شفقة ولا رحمة! أيها الرجال! اسمحوا لي أن أهزأ أنا بدوري منكم جميعاً، ليس في نفوسكم شمم ولا إباء، ليست فيكم نخوة ولا رجولة، ليس لكم شرف ولا كرامة، إن أنتم إلا ألاعيب تحركها امرأة طائشة يلذ لها العبث المجرم والاستهتار الكامل، اختفوا من أمامنا اننا نحتقركم جميعا! أنقذوا أنفسكم أولا ثم تعالوا إلينا، طهروا أيديكم وأنفاسكم ثم اختلطوا بنا، يارجال الشهوات الميتة والنفوس التي لا تشعر ولا تحس، ما انتم إلا عبيد امرأة بلا قلب».

ولكن هذه الحملة العنيفة القاسية على المعجبين والمتحمسين للمطربة الشابة أم كلثوم لم تصرف الناس عن التزام حفلاتها ولم تحاول الزوجات منع الأزواج من الذهاب إلى حفلات أم كلثوم حتى لا تخطفهم المطربة خاطفة الرجال!

وفي يوم ٢١ فبراير كتبت «المسرح» تقول إن الناس يسمون أم كلثوم «أم ٤٤ لأن لها ٤٤ قلبا فهي تحب الجميع» وانشغلت منيرة باخراج رواية كليو بترا مع عبدالوهاب.

ورأت منيرة أن عبدالمجيد حلمي لم يهدم أم كلثوم كما توقعت على الرغم من أن مجلة «المسرح» تهاجمها كل اسبوع وتلعنها وتحذر الناس من الذهاب إلى المسرح الذي تغني فيه لأنها ستخطف كل زوج من زوجته.. وبدأت تفتر حرارة الحب الساخن، وخاصة عندما نشر الأستاذ فكري أباظة مقالاً في الأهرام بعنوان «معجزة الموسم» قال فيه: «منيرة وعبدالوهاب يغردان تغريد البلابل، والجمهور يضج ضجيج الاعجاب العنيف بعد أن أخذت منه الدهشة كل مأخذ، واستولى عليه ذهول الخاشع أمام السحر الحلال، مجرم في حق نفسه وحق الفن من لايشهد رواية كليوبترا في الحال، مجرم في حق النبوغ والعبقرية من لايبادر باذاعة خبر هذا النصر الحاسم، والنجاح البالغ عنان السماء!».

وأبدت منيرة اعجابها الشديد بفكري أباظة، وغار عبدالمجيد من فكري وكتب مقالاً في مجلته يقول فيه «.... وقامت الدنيا، وتحدث الناس عن هذا الاعلان الغريب، وقال يومها الناس كم تقاضى فكري أباظة ثمنا لهذه الكلمة؟ ولكن الناس لايعرفون الحقيقة، انتهى الفصل الأول من رواية كليوبترا في الليلة الأولى وتدفق الناس إلى داخل المسرح يهنئون السيدة منيرة المهدية بذلك النجاح الباهر، ودخل مع الجمهور فكري أفندي أباظة، وظل واقفا ينظر إلى السيدة منيرة وهي تحيي هذا، وتبتسم لذاك، فهذا ينحني لها، وذلك يقبل يدها اليمني! حتى انتهى الدور إلى فكري أباظة، ومرت به السيدة منيرة بكل عظمة، فانحنى حتى كاد يمس الأرض بجبهته، فقدمت إليه يدها فقبلها، لا كلمة.. ولا ابتسامة! هذا هو الثمن الذي تقاضاه فكري أباظة ليكتب تلك الكلمة».

وتكهربت العلاقات بين منيرة وعبدالمجيد حلمي، واشتعلت نار الغيرة العمياء في قلب الصحفي الصعيدي الشاب وفي يوم ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٧ كتب يقول لمنافسه:

«هي امرأة واحدة نحبها نحن الاثنين ياصديقي، أهو القدر يعبث بنا، أم نحن نعبث بها، أم هي تلعب بنا جميعا؟ قلت لي في مقابلتنا الأخيرة إنها باحت لك بغرامها، وإنها تحبك من دوني ولولا أنها تخشاني لنفرت مني وأبعدتني عنها، ألم تذكر أنها قالت ذلك؟ وفر عليك جهدك فقد سمعت منها هذه الألفاظ عنك، إذن هي تعبث بنا جميعا، أحدنا تخشاه والآخر تجد مصلحتها في استرضائه، ومع ذلك فأنت

تعبدها وتطمع فيها وتغارّ عليها ، أما أنا فأحبها بلا عبادة ولا طمع ولا غيرة » .

وفي ٧ مارس سنة ١٩٢٧ كتب عبدالمجيد حلمي إلى حبيبته يقول : « كان الشرط ألاّ نتراسل ، مهما جد في غرامنا ، ومهما وقع لنا ، ولكنني أحب أن أقص في غيبتي ، مالا أستطيع ذكره أمامك ، نذالة في الرجل ياسيدتي أن يغدر ، ولكنها طهارة أيضا ألا يكون مخادعا ولا غشاشا ، وأنا اليوم أغدر بك ، ولكني لا أغشك ولا أخدعك .. كنت أنت النار التي أشعلت جسمي ، ولا أقول قلبي ــ ولكن هذا القلب كان يدق حين يشعر بالالتهاب ، فظننت أنني أحبك ، ظننت أنني لا أستطيع أن أعيش إلا لك أو من أجلك وفي سبيلك ، وفي ذلك النهار الممطر الذي قضيناه سو يا في منزلي ، فجأة دفعتك عني ، كشيء قذر تمرغت فيه برهة ثم عافته نفسي فتنصلت منه ، أصبحت يابنيتي « لاشيء » في حين أنك منذ دقائق كنت « كل شيء » كنت أعتقد أنني أحبك وأنني لاأستطيع فراقك ، كنت أغار عليك حين تمدين يدك بالسلام لمخلوق ما ، كنت أحترق حين أراك تبتسمين لشخص آخر ، كنت لا أطيق مجرد التصور أن رجلا غيري نظر إليك وابتسم لك .. أما الآن فلا أتمنى على الله إلا أن يبعدني عنك إلى الأ بد » .

وفي ١٤ مارس ١٩٢٧ يكتب لها يقول « يدي على قلبي وهو يدق ، وأناملي تمسح دموعي وهي تسيل ، أجد في نفسي حنينا إليك ، ولكني أغالب هذه الرغبة ، لأ باعد ما بيني و بينك ، إني لعلى يقين وأصارحك بذلك في خجل ــ إنك تستطيعين استردادي بكلمة واحدة ، دقيقة فقط نتقابل فيها ، ابتسامة قصيرة لامعنى لها ، قبلة طائشة باردة لاعاطفة فيها ، ثم تطوقين عنقي ، وتسندين رأسك إلى صدري .. هيا بنا ياحبي . أنا أحبك ! وأنت لاتحبني .. أوه .. أعبدك يافاتنة » .

وفي ٢١ مارس سنة ١٩٢٧ كتب عبدالمجيد يقول « كنت لا أبصر امرأة ياصديقي إلا هزأت منها واستهترت بها ، فأصبحت الآن لا أبصر امرأة إلا أحببتها ، وتمنيت أن تكون فريسة أعبث بها وكما تسقط المرأة وتصبح تتاجر بنفسها وجسمها ، وتنتقم من الرجال جميعا ، لأن أحدهم كان علة شقائها ، وهاو ية سقطتها ، كذلك أريد أن أنتقم من النساء جميعا ، لأن احداهن كانت سبب شقائي وعلة بلائي » .

وفي ٢٨ مارس سنة ١٩٢٧ يكتب « وصلتني رسالتك منذ ساعات .. ورقة بيضاء فيها سطران وكلمتان .. « افتح الدرج الأسفل في مكتبك ، وهناك وردة ذابلة ، أعدها

إليّ»! هذا كل ما تطلبين، وحقا لم يبق غير هذه بعد أن أخذت كل شيء، ألم تأخذي قلبي سالما فترديه عليلاً؟ ألم تأخذي جسمي صحيحا، لتعيديه سقيما؟ أليست عواطفي وشعوري معلقة عليك في الحياة؟ إذن لم يبق شيء سوى الوردة الذابلة تستعيدينها؟ هذه الوردة التي كانت كل سلوتي والتي أجمع فيها أحب تذكارات الهناء، وأقسى ذكريات الألم! ولكن سأعيدها إليك أيضاً».

وفي يوم ١٨ ابريل سنة ١٩٢٧ كتب إليها يقول «أصدقائي يصورونك لي بصورة بشعة، و يزدرونك ويمتهنونك، وما يزيدني ذلك إلا حبا فيك، وشغفا بك، وحنينا إلى لقياك، إن حديث السوء عنك يصيب جرحاً في عاطفتي فيذيبها، المرأة التي احببتها يحتقرها الناس!؟».

وفي يوم ٩ مايو سنة ١٩٢٧ كتب عبدالمجيد لها يقول: «أنت طاغية في حبك الأبله، طاغية في تفكيرك الجنوني، طاغية في عبثك الأثيم، طاغية في استهتارك السخيف، طاغية في إحساسك والشعور، ومصرع كل طاغية رهيب.

هل تذكرين كيف تقابلنا منذ أسبوع واحد فقط؟ كنت في طريقي وإذا بك تخرجين من محل عمومي فالتقينا وجها لوجه، ذلك البريق الأصفر الذي لاح على وجهك ــ وتلك الرجفة غير المستترة، التي دفعتك إلى التقهقر خطوة إلى الوراء، أما أنا فقد رفعت إليك وجهي، وكما ينظر الانسان إلى طلل مهدم، وهيكل متحطم، فيه جلال الذكرى، وعبرة الأيام، ثم ينصرف عنه آسفا و ينساه بعد لحظة قصيرة، كذلك نظرت إليك في ثانية صمت، وذهبت في سبيلي دون ان تروعني الرؤيا، أو يهزني اللقاء.

مات قلبي فاصنعي ما شئت»!

وفي ١٦ مايو١٩٢٧ كتب عبدالمجيد حلمي يقول:

«أأنا قاس لأنني رأيتها فلم أعبأ بها؟ ولم أهتم لها؟ أأنا قاس لأنني أردت أن أحافظ على كرامتي وأن أستبقي عزة نفسي؟ أأنا قاس لأنني أحببت واحتملت مرارة الحب؟ أأنا قاس لأنني لم أرض أن أكون لعبة امرأة غادرة لا عهد لها ولا ذمام؟ إنني عرضت شرفي وكرامتي وإحساسي وعواطفي على امرأة، فألقتها جميعا عند درجة

قدميها وذهبت لا تبالي بالشرف والوجدان!».

وفي يوم ٢٣ مايو كتب يقول:

«إن المرأة التي يعرض عليها الرجل الاخلاص والوفاء، فتأبى إلا الخداع والرياء لا تعرف معنى للحياء، ولا تستحق غير الاحتقار والازدراء»!

وفي يوم ٣٠ مايو كتب يقول:

«تراخت أصابعي، فسقطت خصلة شعرها الذهبي البديع، سقط آخر هيكل للعبادة! سقط آخر تمثال للجمال دفنت فيه وجهي، وغمرته بقبلاتي، وذرفت فوقه دموعي، اندفعت يدي فمست الشعلة خصلة الشعر، واحترقت، أي فرح وحشي انتابني في تلك اللحظة، ارتفع شهيقي عاليا، كمن يرى فجأة منظرا مرعبا فيتفزع منه و يتوجع له، ولكني كنت مسروراً، للمرة الأولى في حياتي شعرت بلذة الانتقام، شعرت بالتوحش الحيواني يخامر العاطفة، فيحول الألم نقمة، و يبعث الاستكانة نارا حامية، و يصير الدموع الحارة برداً وسلاماً».

ولأول مرة — من يوم أن عرفتها — أحسست شيئا من الراحة والاطمئنان».

وسقط عبدالمجيد حلمي صريع الحمى والحب، ارتفعت درجة حرارته، أصبح يهذي و يذكر اسم منيرة.. منيرة وحدها! وأفاق من غيبوبته ليكتب يوم ٦ يونيو سنة ١٩٢٧:

«الآن وقد مضت عليَّ الأيام الستة وأنا فريسة المرض، بدأت الخيالات تمر أمامي تباعا وفي كل يوم من الأيام السوداء، أعيد على ذاكرتي الماضي بعيده وقريبه، فيشتد الألم وتزداد قواي انحلالاً، تألفت عليَّ عناصر الطبيعة تريد أن تصرعني وتألبت لتغلبني، ووقفت لها أحتمل ولا أدفع، وأصبر فلا أجزع، حتى ثقل الحمل ودنا المصرع!».

واشتد الألم على عبدالمجيد وذهب أصدقاؤه إلى منيرة يتوسلون إليها أن تذهب إليه ترد له الروح، فقد كان يطلبها وهو يهذي وكان يتوهم أنها إذا جاءت بقرب فراشه أعادت له الحياة، ولكن منيرة رفضت وقالت: إن عبدالمجيد مريض بالسل،

وهي تخشى أن تصاب بالعدوى.

وقد اغتاظ محررو المسرح وأصدقاء عبدالمجيد فنشروا لمنيرة المهدية صورة على غلاف المجلة في شكل قاتلة وفي يدها مسدس وكتبوا تحتها «السيدة منيرة المهدية كما تريد أن تكون» وضاقت منيرة بحصار أصدقاء عبدالمجيد ونقاد المسرح وشباب الصحافة، فسافرت فجأة إلى سوريا، وأراد عبدالمجيد أن يلحق بها، ومنعه أطباؤه، فأصر أن يسافر لها، ووصل إلى سوريا مرهقاً متعباً وأدخل إلى المستشفى. وعاد أصدقاء عبدالمجيد يتوسلون إلى منيرة أن تزور عبدالمجيد في المستشفى فرفضت، وازدادت العلة عليه فعاد إلى القاهرة في أوائل يوليو ١٩٢٧ ثم تضاعفت العلة وأصيب بضعف شديد وأصر أن يسافر إلى أسيوط موطنه الأصلي ليموت هناك، وفعلاً سافر إلى هناك وأسلم الروح ودفن هناك.

وفي العدد الأول من مجلة المسرح الذي صدر بعد وفاته كتبت «المسرح» تقول: «من المدهش أن السيدة منيرة المهدية التي كال لها الفقيد أصناف المديح، وشغل صفحات عديدة من مجلته في التحدث عنها والإشادة بها بشكل أثار عليه الكثيرين من القراء والأصدقاء، من المدهش أن السيدة لم تتنازل بالسؤال عنه أيام أن كان بالمستشفى، ولم تفكر في ارسال تعزية بعد وفاته» !!

ولم يمت عبدالمجيد حلمي وحده، بل أخذ معه منيرة إلى القبر، قبر النسيان، قام النقاد والصحفيون يهاجمونها و يتهمونها أنها هي التي قتلت عبدالمجيد حلمي.

وصدرت مجلة الناقد وفي صدرها إعلان عن مجلة المسرح «اقرأوا في العدد القادم أميرة المطربات تسبب موت زعيم النقاد» وقالت: «إن بشائر الإفلاس بدأت تظهر على منيرة، وهذا أسوأ عزاء لشيخوختها، لايشفيها إلا اعتزال الفن والإنكفاء على الصلاة والعبادة لعل الله يتقبل توبتها و يغفر لها».

وفي يوم ١٠ أكتوبر ١٩٢٧ كتبت مجلة الناقد: «الذي قتل عبدالمجيد هو ظهور نكران الجميل والخيانة والغدر، هوجم عبدالمجيد من الخلف وأرسلت له السيدة منيرة المهدية أختها لتذهب له وتقول: أيه دا ياسي عبدالمجيد.. أنت عيان بالسل.. مش تسافر؟ لحسن تعدينا.. دول الممثلين مش راضين يشتغلوا».

وفي ١٧ أكتوبر سنة ١٩٢٧ كتبت الناقد تقول: «كانت منيرة تؤثر في عبدالمجيد ببكائها وتقطيع شعرها لكي يهاجم خصومها، واليوم وقد قضي المسكين فإن في السماء إلهاً يمهل ولا يهمل وسيسألك: ماذا فعلت بعبدالمجيد ؟ احترمي الموتى ياشر مثال للخيانة والغدر!».

وفي يوم ١٧ أكتوبر ١٩٢٧ كتبت مجلة الناقد تقول!: «كانوا في القدس، وطلبت منيرة إلى عبدالمجيد حلمي على لسان مراد عبدالرحمن خادمها أن يسافر لأن الفرقة لا تريده خوفاً من العدوى.. وأقسم له الممثلون أنهم لايخشون منه شيئاً.. ورأت منيرة ذلك فكلمت قنصل مصر في القدس لكي يأمر عبدالمجيد حلمي، لم يعبأ عبدالمجيد العنيد، وهو المشهور بصلابة رأيه، أرسلت منيرة إليه أن مكتب الصحة يطلبه، وإلا يعمل حجر على فرقة منيرة، ياللفظاعة والبشاعة! ليس هو الطاعون ولا الوباء الأصفر، ولما ذهب عبدالمجيد إلى مكتب الصحة أظهروا دهشتهم لذلك، وقالوا إنهم لم يطلبوه ولا داعي لذلك أبداً».

وهبت العواصف من كل مكان تقتلع منيرة المهدية من عرشها، البعض لعنها، والبعض هاجمها والصحفيون أهملوا أخبارها، والجمهور قاطعها، ومضت منيرة تقاوم الصحف كلها والمجلات كلها والنقاد كلهم، كل أصدقائها تخلوا عنها، حكموا عليها بغير محاكمة رفضوا أن يسمعوا شهودها، أبوا أن يكون لها حق الدفاع عن نفسها! كان عبدالمجيد معبوداً بين الشباب فقاطعوا مسرحها، وأطلقوا عليها اسم القاتلة، وذهب بعض الناس إلى الشوارع ينتزع إعلاناتها الملونة أو يعمى عينيها الجميلتين المطلتين من إعلانات الحائط.

وانزوت منيرة في عوامتها وأحبت بطلا للمصارعة اسمه حسن كمال من أسرة طيبة وتزوجته وأصبح سكرتيراً خاصا للنحاس باشا، ثم هجرته وطلقته وتزوجت شقيقه الأصغر ابراهيم كمال.

وحدث أن كانت منيرة المهدية مدعوة في حفلة بال ماسكيه في الكوزومجران وكانت تلبس ملابس كليوبترا وجاء صاحب الدولة حسين رشدي باشا رئيس مجلس الشيوخ وقبل يد منيرة، وصاح: فين انطونيو؟ أنا لازم أموته، مفيش حد غيري يقرب على منيره! أنا لازم أمثل دور انطونيو.

ووصل الخبر إلى الملك فؤاد وثار كيف يجوز لرئيس مجلس الشيوخ أن يقبل علنا يد مطربة! واستدعى عبدالخالق ثروت باشا وطلب منه أن يبلغ غضبه السامي إلى رئيس مجلس الشيوخ، وطلب ثروت باشا رئيس الوزراء من الملك أن يتولى جلالته توبيخ رئيس مجلس الشيوخ بنفسه، وأرسل الملك واستدعى حسين رشدي باشا وتحدث معه بعنف ورد عليه رشدي باشا بهدوء قائلاً:

ــ ليس في الدستور المصري مادة تمنع رئيس مجلس الشيوخ أن يقبل يد مطربة ضعوا هذه المادة في الدستور وأنا أعدكم أنني بعدها لن أقبل أيدي المطربات والممثلات!

* * *

وفي أواخر يونيو سنة ١٩٣٨ زرت منيرة المهدية في عوامتها بالنيل، وحدثتها عن السطور التي قرأتها في مذكرات سعد زغلول عن علاقتها بالوزراء فقالت: لست أذكر متى وأين كانت المرة الأولى التي التقيت بها بحسين رشدي باشا، ولكني أذكر أنني عرفته وهو رئيس للوزراء، وكان مثقفا ثقافة فرنسية، وقد قال لي مرة إنه مكث في شبابه سبعة عشر عاماً في باريس، ولكنه مع ذلك كان يحب الغناء العربي، وكثيراً ما كان يحضر الرواية الواحدة خمس مرات أو ستا.. وكثيراً ما دخل المسرح بين الفصول ليشجعني بكلمة أو يداعبني بنكتة، أو يهمس في أذني أن الممثل الفلاني دمه ثقيل! وأقمت مرة حفلة خاصة، ودعوت رشدي باشا بين من دعوت، و يظهر أنه أحب سهراتي، أو لعله أعجب بروح المرح والسرور التي تسودها فأصبح يزورني باستمرار، وكان رشدي باشا لايحضر منفردا، بل كثيرا ما كان يصحب ثلاثة أو أربعة من زملائه الوزراء، وأحيانا كان يحضر ومعه الوزراء جميعهم وكان يضحك و يقول:

ــ اديني جايب لك مجلس الوزراء بحاله!

وقد صادفت رشدي باشا أزمات سياسية كثيرة، بل لا أعتقد أن هناك رئيس وزراء تعب كما كان يتعب رشدي باشا في تلك الأيام، فكان يخرج من عمله وهو في حالة عصبية مؤلمة، مضعضع الحواس، مشتت الفكر، منهوك القوى! وكنت أراه في هذه الحالة فأداعبه، وأحاول أن أسري عن نفسه، وسرعان ما أرى الابتسامة على

شفتيه، وأسمع ضحكته الرنانة تعلو جوانب الصالون، وكم من مرة تعقدت الأمور، وتحرج الموقف السياسي فكان رشدي باشا يجتمع بوزرائه في بيتي، يتباحثون و يتناقشون، ثم يجدون حلا لمأزق سياسي أو يتخذون قراراً خطيراً في سياسة مصر ومستقبلها، ولو فكر يومها صحافي أن يسترق السمع من وراء صالوني لعرف أسرار البلد كله، ولكن احداً لم يدر بخاطره أن مجلس الوزراء ينعقد في منزل المغنية منيرة المهدية.

وكان رشدي باشا يقول لي: لما آجي عندك بالي يروق، ومخي يستريح، وألاقي أفكار جديده وحلول كو يسه، أنا من بكره لازم أجيب مكتبي هنا.

وكنت أضحك وأقول له:

ـــ طيب ما تعملني وزيره معاك!

فكان يقول وهو جاد: تعرفي يامنيره، أنت تقدري تبلفي الانجليز عال، يمكن غنوه منك تجيب الاستقلال التام!

وسمعه عبدالخالق ثروت باشا يقول هذا مرة فقاطعه قائلا: بالعكس ياباشا! يمكن الانجليز يسمعوها وتعجبهم فيقعدوا في مصر على طول!

ومضت منيرة تذكر رأيها في وزراء ذلك العهد واحداً واحداً وفجأة سألتها:

ـــ وأيه حكاية عبدالمجيد!

قالت في استغراب: عبدالمجيد مين؟

قلت: عبدالمجيد حلمي صاحب مجلة المسرح.

قالت: آه.. آه.. عبدالمجيد.. دي حكاية بسيطة، كان يحبني حبا جنونياً وكنت أعطف عليه لطيبته و براءته ولكني لم أحبه لأن غيرته كانت كالإعصار تحطم كل شيء أمامها!

* * *

ومضت الأيام، وانقطعت منيرة المهدية عشرين سنة عن الغناء، وذات مساء اتصلت بي أم كلثوم تليفونيا وقالت لي: «إنني أدعوك معي في حفلة ساهرة! اشتريت بنوار في صالة بدعية وستغني منيرة المهدية، وأنا أريد أن أشجعها وأصفق لها» وألحت إلحاحا عجيباً أن أصحبها.

وذهبنا وغنت منيرة المهدية و ياليتها ما غنت، كان صوتها أشبه بالاسطوانة المشروخة، فقد صوتها حلاوته و بحته ورخامته وجاذبيته، كانت أقرب إلى ملكة محنطة في تابوت ترى فيها الماضي الخالد ولاتجد من أثر الحاضر سوى التراب، وكانت أم كلثوم تلهب يديها بالتصفيق، وتزغدني في كتفي لأشاركها في التصفيق، وخيل إليّ أننا وحدنا الذين كنا نصفق وأن الجالسين في الصالة انهمكوا في الحديث عن ذكريات سلطانة الطرب التي مكثت مصر تردد أناشيدها وأغانيها أكثر من خمسة عشر عاماً! فقدت عيناها بريقها الفتان، ظهرت التجاعيد تملأ وجهها بقسوة ووحشية، انطفأت روحها التي كانت تملأ المسرح حيوية!

لم تكن منيرة المهدية!

كانت شبح منيرة المهدية!

"قلم" على وجه فاتن حمامة

بدأت صداقتي بفاتن حمامة بخناقتين حاميتين!

ذات يوم في الخمسينات كتبت مقالاً في الصفحة الأخيرة من «أخبار اليوم» أنصح الشباب بعدم زواج الممثلات، وتكلمت عن المتاعب التي يقع فيها زوج الممثلة، والمآزق التي يتعرض لها، وكيف أن أغلب زيجات الممثلات تتعرض إلى أزمات وتنتهي بالطلاق، وكان عنوان المقال «لا تتزوج من ممثلة»! ولم يعجبني العنوان، فشطبته، وجعلت العنوان «لا تتزوج فاتن حمامة»!

وكانت فاتن غير متزوجة في ذلك الوقت!

ودخلت فاتن إلى مكتبي في «أخبار اليوم» ثائرة غاضبة حانقة، وتصورت أنني أعرف أنها مقبلة على الزواج، وأن المقصود بهذا المقال هو حملة على الخطيب ليتراجع و يعدل عن الزواج وأنني أبين له مخاطر الرواج من فاتن حمامة!

وأكدت لها أنني لا أعرف أنها مقبلة على الزواج وأن هذا مقال ساخر أداعب به الشبان الصغار الذين كلما رأوا ممثلة قرروا الزواج بها!

وقالت لي فاتن إنها تخشى أن زواجها سيغضب جمهورها الذي يعشقها كفتاة الشاشة، فإذا تزوجت شعر كل متفرج أنها خانته مع رجل آخر، وحقد عليها وحاربها.

قلت لها: أنت أسعدت الملايين، ومن حقك أن تختاري الرجل الذي يسعدك، وليس من حق الجماهير أن تفرض عليك زواجاً أو تمنعك من زواج شخص معين، وسوف تتمنى لك الملايين الذين يحبونك السعادة والهناء.

وتزوجت فاتن وتحققت أمنيتي، ومرّ زواجها بهدوء...

ثم حدث أن ذهبت في أوائل الستينات إلى مستشفى الدكتور عبدالله الكاتب الجراح المشهور لإجراء جراحة، واختار لي الدكتور غرفة في المستشفى وأشار إلى سرير صغير في وسط الغرفة وقال لي: إن فاتن حمامة كانت هنا منذ بضعة أيام وأجرت جراحة ناجحة.

ورقدت في سرير فاتن فوجدته صغيراً دقيقاً، فكان نصفي في السرير، ونصفي خارج السرير، فاتن صغيرة الحجم وأنا ضخم الحجم، كان من المستحيل عليّ أن أتقلّب في هذا السرير، فأي حركة فيه أجدني واقعاً على الأرض، وكتبت مقالاً ساخراً أصف هذا السرير «النونو» وجعلت عنوان المقال «أكتب لكم من سرير فاتن حمامة» ونشرت المقال في مجلة «الجيل الجديد».

وفوجئت بفاتن حمامة تدخل إلى مكتبي والشرر يتطاير من عينيها! لم أرها حتى في الأفلام بمثل هذه الثورة والغضب، وقالت لي: كيف تشوه سمعتي؟ إنني حافظت على سمعتي طول حياتي، ولم يخدشها إنسان! كيف تدعي كذباً أنك نمت معي في سرير واحد؟!

وسألتها مذهولا: هل قرأت المقال؟

قالت: لا، قرأت العنوان!

قلت لها ضاحكاً: اقرئي المقال كله ثم استأنفي ثورتك!

وقرأت فاتن المقال وأغرقت في الضحك!

و بعد ذلك أصبحت أكتب مقالاتي عن فاتن حمامة بغير عنوان، عندما اكتشفت أنها لا تقرأ سوى العنوان.

* * *

صحبني المخرج محمد كريم إلى ستوديو مصر لأشهد تصوير فيلم عبدالوهاب الجديد «يوم سعيد»، قال لي: ستتفرج على معجزة، بنت صغيرة أريد أن أجعل منها «شيرلي تمبل مصر» وكانت شيرلي تمبل طفلة هوليوود الأولى، وكانت معبودة الجماهير

بين الصغار والكبار.

ورأيت فتاة صغيرة أطول قامة من شيرلي تمبل، شعرها أسود بينما شعر تمبل أشقر، عيناها سوداوان، وعينا شيرلي زرقاوان، كانت شيرلي أحلى ألف مرة من فاتن حمامة، ولكن كان أبرز ما في فاتن خفة دمها وقوة شخصيتها وقدرتها الغريبة على الكلام باستمرار دون توقف!

وهالني أنها مغرورة!. لا يهمها أن تشبه الطفلة شيرلي تمبل بل تريد أن تشبه الممثلة العالمية جريتا جاربو!

وكانت معذورة أن تصاب بالغرور، فقد كانت أمها تعتقد وفاتن في طفولتها أنها أجمل طفلة في العالم، وفي كل مسابقة تعلن لجمال الأطفال كانت أم فاتن تحمل طفلتها إلى المسابقة، ولم تكن فاتن الأولى أبداً في أي مسابقة جمال، وكانت الأم تعتقد دائماً أن لجنة المسابقة زورت وأسقطت ابنتها فاتن عمداً ومن حقها في أن تكون ملكة جمال الأطفال.

وذات يوم أعلنت مجلة «المصور» عن مسابقة لجمال الأطفال.

وألبست الأم ابنتها ملابس ممرضة وصورتها، وأرسلت الصورة إلى مجلة المصور.

ونشرت «المصور» صورة فاتن بين عشرات الصور.

ورأى المخرج محمد كريم صورة فاتن فأرسل يستدعيها لمقابلته في القاهرة، وسافرت فاتن فرحة سعيدة وقد اعتقدت أنها الطفلة الوحيدة في مصر التي اختيرت لتمثل في فيلم عبدالوهاب.

وعندما دخلت الأستوديو وجدت معها مائة طفلة أخرى!

وجاء دور فاتن لدخول لجنة الامتحانات.

دخلت ثابتة الجأش واثقة أنها أحسن من المائة طفلة الأخرى!

أعطوها مشهداً لتمثله فمثلته.

قالوا لها: احزني! فحزنت!

قالوا لها: اضحكي.. فضحكت!

قالوا لها: اسكتي.. فلم تسكت!

وكانت اللجنة مؤلفة من محمد كريم وعبدالوارث عسر فاختاراها فورا لدور أنيسة!

وظهر فيلم «يوم سعيد»، وفي يوم وليلة أصبح اسم الطفلة فاتن حمامة على ألسنة الملايين، ولدث نجمة، أصبحت حديث كل بيت، معبودة الأطفال وحبيبة الأمهات والآباء، صورتها معلقة فوق سرير كل طفل وطفلة، اسم فاتن.. هوموضة الأسماء في هذاالعام كل أم تطلق على مولودتها الجديدة اسم «فاتن»! خطابات الإعجاب تنهال عليها من أطفال وطفلات البلاد العربية، أطفال يعرضون عليها الزواج، المخرجون والمنتجون يطاردون والدها ليتعاقدوا معه على أفلام جديدة! كانت فاتن ترفض لأنها وقعت عقد احتكار لمدة خمس سنوات لتمثل مع محمد عبدالوهاب.

كانت فاتن تمشي في الشارع فيحيط بهاالمعجبون والمعجبات وتزغرد النساء، لم يحدث أن نالت طفلة في الشرق كل هذا النجاح، و بكل هذه السرعة، و بين مختلف الطبقات.

وأصيبت بالغرور! تمشي وأنفها مرفوعة إلى السماء، ترفض النصيحة، تهزأ بآراء النقاد، لقد كبرت جداً وصغر كل من حولها، أساتذتها، صديقاتها، زميلاتها، أحست أنها أصبحت ناطحة سحاب وكل من حولها علب ثقاب!

وشعر والدها بالخطر، هذا الغرور سوف يقتلها، واستدعاها إلى غرفته وصفعها على وجهها.

ودارت فاتن حول نفسها، واستندت إلى مقعد خشية أن تسقط على الأرض، وصاح فيها غاضبا ثائرا: إنت فاكره نفسك مين؟ إنت ولا حاجة!

كان هذا هو «القلم» الوحيد الذي أخذته من أبيها طوال حياتها! لم يضربها أبداً، كان دائما يدللها و يلاعبها ويحملها فوق رأسه فتشعر أنها فوق الناس جميعاً، هذه الصفعة آلمتها، عاشت شهوراً طويلة تتحسس خدها وكأنها تحاول أن تغطي

الصفعة حتى لا يراها أحد، ولكن كلمة «إنت ولا حاجة» كانت أشد إيلاماً من الصفعة، جرحتها الكلمة... أصبحت تنزف دماً، بقيت في أذنها تمحو كلمات الإعجاب، تغطي على كل نجاح، كانت يومها تبلغ الثانية عشرة من عمرها، كانت تشعر أنها ملكة، فإذا هذه الصفعة تنزلها من العرش لتعيش مع الناس، وتمشي معهم في شارع الحياة بعد أن كانت تنظر إليهم من فوق!

تقف أمام الكاميرا وتشعر «أنها ولا حاجة»، تجلس في مقعد الدراسة وتسمع صوت أبيها يقول لها: «إنت ولا حاجة»، وتحاول أن تجيد، وأن تتعلم وأن تدرس.

بدأت تحسن معاملة الناس وتحاول أن تكون مؤدبة مع كل الناس، تخلصت من غرورها، عادت تلميذة من جديد، تتعلم من كل إنسان، وتتواضع مع كل إنسان، وتخاف من الفشل فتضاعف جهدها ونشاطها ودراستها.

و بدأت تشعر بالحب.

كانت تقيم في حي عابدين في منزل بشارع اسماعيل أبو جبل في الطابق الثاني.

وكان أمام نافذة غرفتها نافذة مغلقة في غرفة البيت المقابل لبيتها، ورأت خلف «شيش» النافذة المغلق شاباً.

تفتح النافذة وتجده، وتغلق النافذة وتنظر من خلف «الشيش» فترى أنه لا يزال يطل من وراء «شيش» نافذته كأنه ينتظرها!

وتخرج إلى المدرسة في الصباح، وترفع عينيها فتجده واقفاً خلف «الشيش» كأنه يحرص على أن يرسل لها تحية الصباح.

وتعود ساعة العصر من المدرسة، وترفع رأسها ناحية نافذة الجيران فتجده لا يزال رابضاً خلف «الشيش» المقفول.

كانت تتخيله ولدا وسيما، أسمر اللون، أسود الشعر، كانت ترسمه بأحلامها وخيالها، كلما رأت ولداً جميلاً في الشارع اعتقدت أنه هو، وتحني رأسها إلى الأرض خفراً وحياء، وتعود إلى بيتها فترى شبح حبيبها وراء «شيش» النافذة!

لماذا لا يفتح النافذة لتراه؟ لترى ابتسامته؟ لترى نظرة الحب في عينيه؟ هذادليل أنه يحبها و يعشقها، إنه يخاف أن يفتح النافذة فتراه أمها وتنكد عليها الحياة، ولهذايؤثر أن يختفي حتى لا يراه أحد سوى الفتاة التي يحبها، يا له من عاشق مخلص يحرص على سمعتها حتى لا يعرف أولاد الجيران بقصة حبهما العذري الجميل.

وفجأة انفتح الشباك ورأت فاتن الفاجعة الكبرى! إن حبيبها هو «شماعة» ملابس! كانت «الشماعة» واقفة أمام النافذة، فتبدو من وراء «شيش» الشباك كأنها شاب ممشوق القوام!

هذه «الشماعة» هي رجل أحلامها التي كانت تجلس في الظلام تفكر فيه، وكانت تجلس في الفصل تسرح فيه، كل أغنية تسمعها تذكرها به، كل فيلم تشهده تتصور أنه بطله، وكانت زميلاتها في المدرسة يسمونها «التلميذة السرحانة»..

وعندما اكتشفت بعد شهور طويلة خيبة أملها، أخفت عن زميلاتها الفاجعة التي حدثت لها، واستمرت تمثل أنها عاشقة وأنها تحب، وأن حبيبها ينتظرها في النافذة المغلقة!

وكانت فاتن طوال عمرها قصيرة النظر، تعتمد على نظارة، ولكن لم يخطر ببالها في يوم من الأيام أنها ستحب «شماعة» وتنام تحلم بها!

* * *

في سن الثالثة عشرة عاشت فاتن أكثر سنواتها إرهاقاً، كانت طالبة في مدرسة الأميرة فوقية الثانوية للبنات، في السنة الأولى، وكانت بعد الظهر تلميذة منتسبة بمعهد التمثيل المسرحي لأن الطالبة المنتظمة يجب أن يكون عمرها ١٦ سنة، وكانت تمثل في الإذاعة مع سيد بدير، وفوق ذلك كانت تشترك في تمثيل الأفلام.

حياة شاقة مرهقة لفتاة صغيرة مراهقة، تمثل الحب ولا وقت عندها للحب، تقوم بدور فتاة مرفهة، وهي تعيش في عمل متواصل، تستيقظ مبكراً لتجري إلى المدرسة، وتسهر مع النجوم باعتبارها نجمة! ولكنها كانت تعشق عملها، تؤديه بمتعة ولذة!

وعندما بلغت سن الرابعة عشرة بدأوا يسندون لها دور البطلة ، و بدأت تضع في قدميها أحذية ذات كعوب عالية ، لتطول قامتها ، وأضافوا خصلات كثيرة إلى شعرها .

وأسندوا لها دور شابة في فيلم « الهانم » ، و برغم الكعب العالي وخصلات الشعر بدت فاتن فتاة صغيرة ، وقد كان وجهها دائما أصغر من سنها ، وأضافوا لها حواجب أكثر ، وغطوا وجهها بأحمر أكثر و كحل أكثر وأكثر ، حتى بدت شابة .

ونسى الناس الطفلة الصغيرة ، والبنت الطيبة الغلبانة ، و بدأت فاتن تتألق في أدوار كبيرة مثل « ملاك الرحمة » مع يوسف وهبي ، وفيلم « العقاب » مع محمود المليجي وفي هذا الفيلم حدث حادث طريف ، فقد كانت واقفة تمثل دورها أمام محمود المليجي واندمجت فيه ، وفجأة يحملق محمود في وجه فاتن حمامة ، وفزعت فاتن ، وتلعثمت وضاع الكلام من فمها ، وتوقفت الكاميرا وهدأ المخرج روعها وأزال خوفها واضطرابها وعادت تندمج في حوارها مع محمود المليجي من جديد .

وازدادت شهرتها من سن السادسة عشرة إلى سن الواحد والعشرين ، وعندما قامت الثورة عام ١٩٥٢ كانت فاتن تمثل في فيلمين في وقت واحد ، الفيلم الأول من الساعة التاسعة صباحاً إلى الساعة الثالثة بعد الظهر ، والفيلم الثاني من الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر إلى الساعة العاشرة مساء !

وجاءت الحكومة الجديدة تطلب من فاتن أن تمثل فيلم « الله معنا » من الساعة العاشرة مساء إلى الساعة الثالثة صباحاً .

وكانت حكومة الثورة لا تطلب وإنما تأمر ! وخافت فاتن حمامة أن تقول « لا » وقبلت أن تعمل في الفيلم من العاشرة مساء حتى الساعة الثالثة صباحاً واستمر هذاالعمل المتواصل ليل نهار لمدة ثلاثة أيام .

وفي اليوم الرابع انهارت ، سقطت على الأرض من شدة الإعياء ، واضطروا إلى وقف أحد الأفلام الثلاثة والاكتفاء بفيلمين .

وفي تلك السنوات كانت فاتن أشبه بالماكينة تدور باستمرار ، ولا تتوقف .

كانت تعيش في دوامة العمل ، كانت لا تدري ما يحدث حولها أو ما يدور في

بيتها .

عمل لا ينقطع ، عرق لا يجف ، تخرج من استوديو لتدخل استوديو. تنتهي من دور لتبدأ دوراً جديداً ، أحيانا تقوم بدور الغانية والقديسة في يوم واحد ، تخرج من ثوب الملاك لترتدي ملابس الشيطان ، والمهم أنها في كل دور تنسى أنها فاتن حمامة وتصبح شخصية الدور الذي تمثله ، وتندمج فيه اندماجاً كلياً ، وكانت فاتن مشهورة بمواعيدها المضبوطة ، يضبط جميع العاملين في الاستوديو على ساعة دخولها ، الممثل الناجح هو الذي يحترم المواعيد ، لأنه بذلك يحترم عمله ويحترم فنه ، أما الممثل المستهتر الذي يدخل الاستوديو متأخراً عن موعده ، يعطل العمل و يؤخر العمال و يكلف المنتج نفقات باهظة فإنه لا يلبث أن يهوى إلى الحضيض ، وكانت فاتن حريصة على أن تعامل الاستوديو كمعبد له قداسته ، كانت تجلس في ركن تحفظ دورها كأنها تلميذة مبتدئة ، وكأنها في كل دور تذكر الصفعة التي دوت من يد أبيها على خدها ، والجملة التي قالها لها ولم تنسها أبداً « إنت .. ولا حاجة » !

كانت أدوار فاتن في تلك الأيام أدوار البنت المغلوبة على أمرها ، المظلومة ، التي لا تستطيع أن تخرج من بيتها ، ولا تستطيع أن تتزوج من تحب ، ولا تستطيع أن تهرب من السجن إذا تحول الزوج الذي يخونها أو يسيء معاملتها إلى سجان ، وكانت كل بنت شرقية تجد نفسها في فاتن حمامة ، كانت تبكي لها ، وتنتصر لقضيتها ، وتلعن ظالميها وسجانيها ، كانت أفلام فاتن في تلك الأيام ثورة تقوم بها البنات الصغيرات المظلومات التعيسات .

ولكن الشيء الغريب في حياة فاتن أنها لم تتأثر في حياتها الخاصة بأدوارها السينمائية ، فثارت وهي في السادسة عشرة على أهلها ، وخاضت معركة هائلة من أجل أن تختار الرجل الذي تتزوجه ، واصطدمت بأسرتها وقالت يومها كلمتها المشهورة : « إنني قبلت على مضض أن تختاروا لي ملابسي .. ولكنني أرفض أن تختاروا لي زوجي » ! ..

واختارت زوجها برغم معارضة كل أهلها ، ولكن هذا الزواج فشل ، وظهر أن أهلها كانوا على حق ..

قبل ذلك كانت فاتن ترى والدتها و والدها معا زوجين سعيدين يعيشان في جنة

وكانت تتصور أن كل المتزوجين في الدنيا يعيشون في جنة!

وكانت أمنيتها أن تتزوج لتهرب من والدتها الشديدة، القوية الشخصية، التي ترى أن وقوف البنت في النافذة «قلة أدب» يستوجب قطع رقبتها! وأن تأخرها بعض دقائق عن العودة إلى بيتها عمل شائن لا يليق!

وكانت فاتن لم تخرج طوال حياتها إلى الشارع وحدها، دائماً مع أبيها أو أحد إخوتها!

لو تزوجت ستلبس حذاء بكعب طويل!

ستشتري سيارة وتقودها بنفسها!

ستعامل كسيدة كبيرة ولن يقول لها أحد.. «اخرسي يابت!» أو «عيب يابت»! ستكون حرة!

كان عمرها عندما قررت الزواج ١٦ سنة، وكان قد مضى عليها سبع سنوات نجمة! كانت مهمة خارج البيت، وكانت غير مهمة داخل البيت، كانت تضيق بأهلها الذين يعاملونها كطفلة صغيرة.

وعندما دخلت الجنة فوجئت أنها دخلت العنوان الخطأ! ليست هذه هي الجنة التي كانت تحلم بها، و بعد عامين أحست برغبة أن تخلع الحذاء ذا الكعب الطويل وتغسل وجهها من الكحل والبودرة، وتعود تحت سيطرة أمها من جديد.

ولكنها لم تجرؤ على النطق!

* * *

و بدأت تلمع في السينما أكثر وأكثر... وتنطفىء في البيت أكثر وأكثر!

ومثلت مع فريد الأطرش ومديحة يسرى فيلم «لحن الخلود» إخراج بركات ونجح نجاحاً هائلاً!

وقبضت أول ألف جنيه في حياتها.

وكان أول مبلغ قبضته هوعشرة جنيهات وألعاب أطفال تملأ غرفة!

و بدأت تخاف!

لم تعد تقبل أي فيلم، أصبحت تصر أن تقرأ كل سيناريو قبل أن تقبل الدور كانت مصرة أن يكون الفيلم القادم في مستوى «لحن الخلود».

وقررت أن تعمل منتجة ومثلت فيلم «موعد مع الحياة» و«موعد مع السعادة» و«حب ودموع»، وكان الذين يربحون هم مورعو الأفلام!

ومثلت فيلماً اسمه «الحرام» كان من أحسن الأفلام التي ظهرت لها ولكنه فشل فشلاً ذريعاً.

وكان السبب هوسوء التوقيت!

كان ذلك في الستينات والناس تشكو الفقر والضيق والسجون والمعتقلات والحراسات والمصادرات.

وعندما عرض الفيلم أخذ المتفرجون والمتفرجات يصيحون:

ــ احنا ناقصين فقر.. احنا ناقصين غم! احنا ناقصين مصائب!

وفشل الفيلم لأن الجماهير كانت تريد أن تنسى همومها وأحزانها وهزائمها لا أن تعيش فيها!

مع أن هذاالفيلم كان من أحسن الأفلام المصرية، ونال جوائز في معارض السينما..

* * *

وعرض عليها أن تقوم بدور «آمنة» في «دعاء الكروان» وقرأت كتاب طه حسين.

ودعاها الدكتور طه حسين لمقابلته وقال لها بسخرية واستهزاء:

ــ وأنت تقدري تفهمي دور «آمنة» ؟

قالت فاتن : فهمته كويس .

وهزّ طه حسين رأسه بسخرية .

وخرجت فاتن من عند طه حسين باكية مجروحة مطعونة .. وراحت تقول لمنتج الفيلم : لماذا اخترتموني لهذه البهدلة ؟

وتم تصوير الفيلم ، وعرض في عرض خاص ، حضره دكتور طه حسين وقرينته وابنه وابنته .

وانتهى العرض وفوجئت فاتن بطه حسين يقول لها :

ــ إن خيالي وأنا أكتب صورة «آمنة» في القصة هو بالضبط الذي أنت فعلتيه .

وخرجت فاتن وهي أسعد امرأة في العالم !

* * *

وذات يوم طلب أن يزورها أحد كبار رجال المخابرات ، واستقبلته ، فقال لها : نحن نعرف أنك سيدة «دوغري» وتحبين وطنك وتريدين أن تساعدي هذا الوطن .

قالت فاتن : إني مستعدة أن أقدم كل شيء من أجل وطني .

وقدم لها رجل الأمن بعض الكتب لتقرأها ، وقال لها : إن المطلوب أن توضع بعض الميكروفونات في بيتها لأنه معروف أنه يتردد على بيتها شخصيات معروفة وسفراء وزوجات سفراء !

وقرأت فاتن الكتب فوجدت أنها كتب جاسوسية ، وأصيبت فاتن بالرعب والذعر ... وضاعف ذعرها أن رجل الأمن حدثها وكأنه يعرف كل شيء عن حياتها وعن أهلها مما استنتجت منه أنها تحت المراقبة المستمرة .

وبدأت فاتن تخاف أن تفتح فمها أو أن تقول شيئاً أمام أخيها الصغير حتى لا يذهب إلى المدرسة و«يفتن» لزملائه !

ووجدت كل يوم صديقا لها يختفي، هذا يسجن، وهذا يعتقل، وهذا ينفى، وهذا يوضع تحت الحراسة.

وصفت فاتن كل ما تملك، باعت عمارتها و سددت ديونها، و بدأت تتعاقد على أفلام جديدة، وتقبض العربون لتوهم أنها ستبقى في مصر.

وسافرت إلى الخارج.. وقررت ألا تعود إلى مصر مادام فيها «صلاح نصر» مدير المخابرات.

وقرأت في لندن أن «صلاح نصر» مدير المخابرات قد قبض عليه ووضع في السجن.

وعندئذ حزمت حقائبها وعادت إلى حبيبتها **مصر!**



حاتم الطائي باشا

كان حاتم الطائي باشا من أقاربنا الأ بعدين، ولم يكن هذا اسمه أو لقبه، وإنما هو اسم «الشهرة»، كما كانوا يسمون في المقهى فنجان القهوة الفاضي بالمليان!

وكان رجلا محظوظا، ما وضع يده في التراب حتى تحول إلى ذهب، وما اشترى الأرض الجرداء حتى أصبحت حديقة غناء، وماناسب رجلا مغمورا حتى دخل الوزارة.

وكان يملك قصراً فخماً ضخماً، مليئاً بأثمن الأثاث وأغلى الرياش، وكان في القصر غرفة كبيرة للطعام فيها مائدة لستة وثلاثين شخصاً، يتناولون الطعام في وقت واحد، الأطباق من الذهب الخالص، والأكواب من الذهب الخالص، والشوك والسكاكين والملاعق من الذهب الخالص أيضاً، وكنا نسمي هذه الغرفة «الغرفة المحرمة»، إذ لم يدخلها أحد في التاريخ القريب أو البعيد، وكان يردد دائما أنه يتشاءم من إقامة مآدب الغداء والعشاء، فهو يذكر أنه منذ ثلاث وثلاثين سنة أقام مأدبة فاخرة دعا إليها أكثر من عشرين مدعواً، وإذا بوالدته تموت في نفس اليوم، ومنذ ذلك التاريخ لم يفتح غرفة الطعام مرة واحدة.

والغريب في أمر حاتم باشا الطائي أنه مع كراهته الشديدة لإقامة المآدب يهوى حضورها، وله أنف تشم رائحة الطعام من عدة كيلومترات، ولا نذكر أننا أقمنا مأدبة في حياتنا إلا وكان حاتم باشا أول المدعوّين بغير دعوة.

ولم يكن يهتم بأننا نتكلم عن بخله وراء ظهره، فقد استطاع بأعجوبة أن يحول هذه الرذيلة إلى فضيلة، فقد كان يروي نوادر بخله فخوراً وكأنه يتحدث عن أنباء كرمه!

روى لنا مرة أن البدلة التي يرتديها كان لونها أسود من ثلاثين سنة، ثم أصبحت

رمادية اللون بعد عشر سنوات، ثم أصبحت صفراء اللون بعد عشرين سنة، ثم أصبحت الآن ترابية اللون، وفي كل عشر سنوات يتوهم أصدقاؤه أنه اشترى بدلة جديدة فيقبلون على تهنئته، بينما أن البدلة هي هي لم تتغير، وهويعتقد أن الناس هم الذين يتغيرون لا لون البدلة، فقده النظر منذ ثلاثين سنة أضعف بصره فأصبح يرى الأسود رماديا، ثم أصبح يرى الرمادي أصفر ثم أصبح لا يرى البدلة على الإطلاق!

وألححنا على حاتم باشا الطائي أن يفعل شيئاً لله، وأتعبنا معه وهو يفاضل و يقارن بين الجمعيات الخيرية المختلفة، و يدرس تقاريرها و يسأل الناس عن حسن سيرها وسلوكها، وأخيراً جاء إلينا ببشرى أنه اختار جمعية المواساة الخيرية بالاسكندرية. وقرر أن يغامر بمساعدتها وأن يشتري بعشرين قرشا تذكرة يا نصيب، الجائزة الأولى فيه تكسب ثلاثين ألف جنيه.

وكاد يغمى علينا جميعا عندما ظهرت نتيجة اليانصيب فاذا بحاتم باشا الطائي يكسب وحده الجائزة الأولى وقدرها ثلاثون ألف جنيه، بينما يخسر الفقراء والمحتاجون والمفلسون أحلامهم التي عاشوا عليها عدة شهور وفوقها العشرين قرشا!

وحاولنا أن نقنع المحسن الكبير حاتم باشا الطائي أن يتبرع بمبلغ من الربح للجمعية الفقيرة، وإذا بحاتم باشا يقول لنا إنه لو كان خسر العشرين قرشا لما طالب جمعية المواساة بتعويض. فكيف نطالبه الآن أن يدفع لجمعية المواساة تعويضا عن خسارتها؟

و بعد إلحاح شديد قبل حاتم الطائي باشا أن يزور مقر الجمعية ليشكر رئيسها، وتوقعنا أنه سيرى مجهودات الجمعية فيرق قلبه ويجود على أغراض الجمعية الخيرية بمبلغ من المال، وإذا بنا نسمع أنه أمضى ساعتين في الجمعية ولم يدفع شيئا! وسألناه: وماذا فعلت في هاتين الساعتين؟ فقال حاتم الطائي: شربت واحد قهوة.. و واحد شاي!

وكان من عادة حاتم الطائي أن يعرف مواعيد حفلات الزفاف في الفنادق في القاهرة، وكان يعرف الساعة المقررة لافتتاح البوفيه فيدخل إلى البوفيه في اللحظة الحاسمة فيأكل ما لذ وطاب، وأهل العريس يعتقدون أنه أحد ضيوف العروسة، وأهل العروسة يتوهمون أنه ضيف العريس!

وحدث مرة واحدة أن وقع حاتم الطائي في مأزق فقد دخل إلى فرح كان فيه العروس والعريس من أسرة واحدة!

واستطاع حاتم الطائي أن يخرج من المأزق و يقول إنه أخطأ في الفندق فقد نسي أن الفرح المدعو له في فندق شبرد ودخل فندق هيلتون، وأبدى أسفه الشديد لهذا الخطأ، ولكن أصحاب الفرح أقسموا عليه ألا يخرج من البوفيه إلا بعد أن يتناول العشاء.. وفعلا تناول حاتم الطائي طعام العشاء... ثم استأنف سيره إلى زفاف فندق هيلتون!

وتغيظ أصدقاؤه وأقاربه من حظه الذي يفلق الصخر، وتآمروا أن يبيعوا له قطعة أرض جرداء بجوار القاهرة على أنها حديقة غناء تنبت ثمار المانجو، وزرعوا فيها ١٤ شجرة مانجو وزينوا له الصفقة، وأحضروا بعض أصدقائهم الذين ادعوا أنهم خبراء في زراعة البساتين، وأوهموا حاتم الطائي أن يشتري صفقة العمر، واشترى حاتم الطائي عشرين فدانا، الفدان بعشرة آلاف جنيه.. واتفقوا أن يؤلفوا جمعية باسم «جمعية كفر الطماعين» وأسندوا رئاستها الشرفية إلى حاتم الطائي باشا!

ثم جاؤوا بخبراء حقيقيين في الزراعة أثبتوا أن ثمن الفدان لا يزيد عن ألف جنيه، وطلبوا منهم أن يكتبوا تقريرا بذلك.

وذهبوا يحملون التقرير و يزفون البشرى للطماع الكبير.. وإذا بهم يجدونه يحمل في يده جريدة الوقائع الرسمية، وفيها قرار جمهوري بضم هذه العشرين فدانا إلى كردون المدينة و بجعلها أرض بناء... ومعنى هذا القرار أن ثمن الفدان الواحد ارتفع إلى مائة ألف جنيه!

كيف حدث هذا؟ هل كان حاتم الطائي يعلم طوال الوقت أن هذه الأ رض الجرداء ستتحول إلى أرض بناء؟ هل جاراهم في مؤامرتهم ليهزأ بهم بدل أن يهزأوا به؟ هل هذا الرجل العجيب فيه قدرة سحرية تجعله لا يخسر أبداً؟ إنه يشتري البنك المفلس فيزدهر، ويحصل على أغلبية أسهم الشركة الخاسرة فتتضاعف أعمالها، و يشتري الدولار فيرتفع ثمنه، و يبيع الدولار فينخفض ثمنه، و يعين وزيراً سابقاً عضواً في مجلس إدارة إحدى شركاته، و بعد أسبوع واحد أصبح عضو مجلس الادارة

رئيسا للوزارة!

ولكن كل هذا الخير العميم لم يقنع حاتم الطائي بأن يكون أقل بخلاً أو أكثر كرماً، فقد كان يرفض أن يشتري سيارة لأن العجلة من الشيطان، و يصر أن يركب الترام في الدرجة الثانية لأنه يعتقد أن النشالين يركبون في الدرجة الأولى ليسرقوا أموال المغفلين الذين يضيعون أموالهم في ركوب الدرجة الأولى! وكان يؤمن بأن المشي يطيل العمر والركوب يقصف العمر، وكان يملك عزبة في قليوب، وكان يصر أن يذهب إليها ماشيا على الأقدام حتى يوفر أجرة السكك الحديدية، وكنا نقول له إن عمله هذا غير اقتصادي لأن حذاءه لابد أن يذوب من هذه الرحلة الطويلة، وكان يرد ضاحكا أنه يخلع الحذاء، ويمشي حافيا أكثر من ١٢ كيلومترا، وأن الأطباء قالوا له بعد عشرين سنة إنه بهذه الطريقة اكتشف علاجا لم يصل إليه الأطباء إلا أخيرا، وهو أن الذي يمشي ساعتين كل يوم يمكن أن يستغنى عن كل أدوية القلب والضغط والروماتيزم والسكر!

وفي إحدى الحفلات الساهرة رأى حاتم الطائي سيدة طويلة شقراء، في عينيها الساحرتين شعاع يجذب، تتكلم وكأنها تغني، تمشي كالغزال، وتجلس كأنها ملكة، وفتن حاتم الطائي بهذه الساحرة الشقراء، وتضاعفت فتنته وهواه عندما همس صديقه الدكتور في أذنه أنها أرملة وأنها صاحبة ملايين وأنها أصغر منه بأربعين سنة، وجن جنونه عندما قال له الطبيب إنها مريضة بالقلب وإنها قد تموت في أي لحظة بالذبحة الصدرية.

وعرف حاتم الطائي باشا أنه وقع على كنز! هذه هي المرأة المطلوبة! ملكة جمال! ومليونيرة وأصغر منه بأربعين سنة، ومريضة بالقلب أي أنها قد تموت بعد شهور، وتنتقل الملايين إليه!

وتآمر معارفه عليه، وقدموه إلى الشقراء الفاتنة، وأفهموها أنه عريس لقطة يموت في شهر العسل!

واشترطت العروس أن تضع ملايينها مع ملايينه في حساب واحد ورحب حاتم الطائي بهذه الفكرة العبقرية، ستموت الملكة المريضة، وتنتقل الملايين أوتوماتيكيا

إلى حاتم باشا الطائي.

وعادت الشقراء الفاتنة تفرض شرطا جديدا.. وهي أنها لا تستطيع أن تعيش الحياة البشعة التي يعيشها حاتم باشا.. يجب أن تفتح القصر المقفول، ووافق حاتم باشا على فتح كل الغرف المقفلة من ثلاثين عاما، ما عدا غرفة واحدة هي غرفة الطعام، ولكنها أرغمته على فتح الغرفة المحرمة وإقامة المآدب والحفلات والليالي الملاح!

وأصرت أن تركب سيارة رولزرويس، وأبت أن تقبل استرحامات حاتم الطائي بأن تشتري سيارة جيب!

وأخذته من يده إلى أكبر ترزي في القاهرة وطلبت من الترزي أن يفصل له ١٢ بدلة جديدة.

وسقط حاتم الطائي مغشياً عليه، والترزي يأخذ مقاساته، واعتذر بأنه لم يدخل محل ترزي في حياته مرة واحدة!

وكلما اعترض حاتم باشا على هذاالبذخ والإسراف أجابت شهيرة هانم أنها لم تعش في حياتها من قبل هذه الحياة البسيطة المتواضعة ولم تعرف «شظف العيش» إلا في هذه الأيام.

وكان حاتم باشا يلطم خديه و يقول لأصدقائه: «تصوروا رولزرويس هي شظف العيش»!

* * *

تبدلت حياة حاتم الطائي باشا، أصبح لأول مرة يأكل في بيته، فوجىء بشهيرة هانم تعين لها طاهيا بأربعمائة جنيه في الشهر، قال لها هذا أكبر من مرتب رئيس وزراء مصر وإن أشرف له أن يعين رئيس وزراء سابق طاهيا! دهش عندما قدمته لسيدة اسمها فضيلة هانم وقالت إنها عينتها وصيفة لها بثلاثمائة جنيه في الشهر.

لم يشعر في أول الأمر بهول الموقف، فقد كانت عروسه شهيرة هانم هي التي توقع بامضائها على الشيكات! وكان يعلم أنه لو وقع على شيكات بهذه المبالغ الطائلة

لأصيبت يده اليمنى بالشلل !

وعندما جاء حساب البنك ورأى المبالغ الطائلة التي سحبت اصفرّ وجهه، وهزلت صحته.

ونظر إلى وجه عروسه شهيرة هانم، فاذا بها تزداد شباباً، عيناها تتضاعفان بريقاً، أصبحت تمشي وكأنها تعدو وهو يحاول جاهدا أن يلحق بها وهو يلهث و يسعل و يعجب أن المريضة بالقلب تمشي بسرعة سيارة سباق !

وقال لها إنه يخشى على قلبها من عدوها المستمر وصحبها إلى طبيب القلب المشهور في عيادته وطلب منه أن يكشف على زوجته المريضة بالقلب، وصور الطبيب العالمي القلب بالأشعة، ونظر إلى الصور وقال :

ــ إن قلبها سليم مائة في المائة !

قال حاتم الطائي : أبدا إنها أصيبت بالذبحة الصدرية عدة مرات.

قال الطبيب العالمي : ليس في الأشعة صورة ذبحة صدرية واحدة !

وأمسك الطبيب بحاتم الطائي ودفعه إلى الأشعة وصور قلبه ثم قال له : أنت مهدد بالموت !

قال حاتم الطائي مذعوراً :

ــ وما هو العلاج ؟

قال الطبيب العالمي :

ــ العلاج أن تمشي عشرة كيلو مترات على قدميك كل يوم، أن تغلق غرفة الطعام، أن تعيش كالرهبان ! احذر أن تعمل أي شيء برغم إرادتك !

وخرج حاتم الطائي من عيادة الطبيب إلى القنصلية المصرية في لندن ووقع قسيمة الطلاق !

وفضل أن يعيش فقيرا بارادته على أن يموت مليونيرا برغم إرادته !

ثم عاد إلى القاهرة واشترى تذكرة جديدة في يانصيب المواساة.

رجل من ألف ليلة!

عرفت أحمد حسنين باشا رئيس ديوان الملك فاروق في كتاب المطالعة بالمدارس الثانوية! كان في الكتاب قصيدتان من الشعر من نظم أحمد شوقي بك أمير الشعراء يصف فيهما أحمد حسنين كرحالة اكتشف واحة الفرافرة في الصحراء الغربية، وكطيار قام بمغامرة طيران من أوربا إلى مصر وسقطت طائرته الأولى فاستقل طائرته الثانية، وسقطت الطائرة الثانية فاستقل الطائرة الثالثة!

أثارتني كولد صغير مغامراته، وعندما وزعوا علينا كتاب أحمد حسنين عن مغامراته في الصحراء التهمت الكتاب التهاما، كنت أقرأ الكتاب في حصة الحساب والجبر والهندسة والفسحة وفي أثناء الغداء!

ثم عرفت هذا الرجل الغريب عن قرب، فقد كان يرأس جمعية الرواد، وكانت مؤلفة من الشباب اللامع في الثلاثينيات، وكانت مهمة الجمعية أن تعلم أولاد العمال الفقراء في الأحياء الفقيرة في القاهرة، وكان حسنين الأمين الأول للملك فؤاد يخرج من قصر عابدين متجها إلى تلال زينهم يدخل الأكواخ والكهوف ويجلس مع العمال على الارض يشرب الشاى! ولم أعرفه في القصر الملكي، وإنما عرفته وهو جالس على الأرض، يتحدث مع العمال المرهقين المكدودين بلغتهم، و يضحك معهم و يداعب أولادهم و يقبل أطفالهم، وكان هذا أمرا غريبا في الثلاثينيات منذ أكثر من خمسين عاما، وكنت أدهش وأنا أرى رجل البروتوكول والإتيكيت والقصور يتحول إلى رجل ابن بلد بين هؤلاء الفقراء المعدمين، يسمع شكاواهم واحزانهم و يشاركهم في همومهم ومعاناتهم، وكأنه واحد منهم!

وقد عاش حسنين أغلب حياته في القصور، صادق الملوك والملكات والأمراء والأميرات في مصر وأوربا، وكان صديقا شخصيا للبرنس اوف و يلز الذي أصبح فيما بعد الملك ادوارد السادس ثم دوق وندسور، و بعد تنازله عن العرش من أجل أن

يتزوج مسز سمبسون قابله حسنين في الشاتوه الذي كان يقيم به في ضواحي باريس، وسأله دوق وندسور: ما رأيك فيما فعلت؟ فأجاب حسنين: كنت أفعل ما فعلته أنت تماما!

وكان حسنين في تلك الأيام رائد الملك فاروق قبل أن يتولى العرش وكان يصحب الملك في رحلته في سويسرا، واستأذن فاروق في اجازة يومين ليسافر إلى باريس ويجتمع بالملك الذي تنازل عن عرش أكبر أمبراطورية في العالم من أجل المرأة التي يحبها!

وفي صيف عام ١٩٣٧ كنت طالبا في الولايات المتحدة أدرس العلوم السياسية، وعدت إلى مصر في اجازة وقابلت أحمد حسنين في غرفة صغيرة، في قصر المنتزه وقال لي إنه يريد أن يتعرف الملك على الشبان المصريين الذين درسوا في الخارج، ليتعلم منهم بعض ما درسوه في أوربا وأمريكا، لأنه لاحظ أن الأسرة المالكة تريد أن تحيط الملك الجديد بأبناء الأمراء والأميرات الذين لايعرفون اللغة العربية، والذين لايختلطون بالشعب المصري، والذين لايتحدثون إلا عن الحفلات الراقصة والصيد والقنص.

وكان حسنين متحمسا أن يعرف الملك الشعب المصري و يندمج فيه، وقال لي حسنين: تصور ان ملك مصر لم ير أهرام الجيزة إلا بعد أن بلغ الخامسة عشرة من عمره وتقرر سفره إلى انجلترا لاتمام دراسته! تصور انه لم يشهد المتحف المصري وقد ألححت على الملك فؤاد ان يزور ولي العهد المتحف المصري لأن الانجليز سوف يسألونه عن توت عنخ آمون وهولايعرف عنه شيئا!

وذكر لي حسنين انه وضع برنامجا لولي العهد قبل سفره لانجلترا وهو أن يزور الأهرام وأبا الهول وأهرام سقارة والأقصر وأسوان والجامعة المصرية ومصانع المحلة الكبرى، وأن الملك فؤاد شطب على الأقصر وأسوان والجامعة المصرية والمحلة الكبرى لأنه لاأهمية لها!

ورتب لي حسنين باشا لقاء الملك فاروق في قصر المنتزه، وكان شابا جميلا محبوبا، معشوقا من البنات الصغيرات، حتى ان كثيرات منهن كن يعلقن صورته في غرف نومهن! وعندما جلست معه وجدته متواضعا يضحك بصوت عال، خفيف الدم،

واستلفت نظري أن لغته العربية فيها لهجة مصرية صميمة، ولم يكن كوالده الملك فؤاد الذي كان يتكلم العربية بلكنة أجنبية يقطعها بكلمات تركية وفرنسية وإيطالية.

وشعرت أنه يكره أساتذته الانجليز و يسخر بهم ويمقت الانجليز عموما، وذكر لي أن مربيته مس سلايد الانجليزية كانت تضربه بالسوط!

وكان كشاب صغير مهتما بأمريكا وناطحات السحاب وهوليوود وممثلي وممثلات السينما، و يكاد يعرف أسماء المشهورات في تلك الأيام.

وكان في شبابه المبكر ذكيا ولماحا، ولاحظت في تلك الأيام أنه كان تحت سيطرة حسنين، يحسب له ألف حساب، وكان يتحدث عنه باعجاب، كأن حسنين هو البطل الذي يتمنى أن يقلده في حديثه وحركاته، وقد كرر أمامي بعض جمل سمعتها بالحرف الواحد من حسنين، قالها كأنها آراؤه هو وأفكاره هو.

وفي صيف ١٩٣٨ كنت قد عدت من الولايات المتحدة بعد أن أتممت دراستي، وكان قد بلغ سن الرشد، وتولى سلطته الدستورية، وسافرت إلى الاسكندرية وعلمت أن أحمد حسنين مريض في مستشفى المواساة، وأن الملك لم يزره، ولم يوفد مندوبا للاستفسار عن صحته ــ وقيل لي: إن حسنين «مغضوب عليه» ولم يعد البطل الذي يعجب به الملك الشاب، بل أصبح يعجب ببطل جديد هو علي ماهر باشا الذي أصبح رئيس الديوان الملكي.

وقابلني الملك في بدروم قصر المنتزه، وكان جالسا على الأرض، يرتدي عباءة حريرية بيضاء على اللحم، وكان اللقاء في غرفة العملات القديمة، وكان ممسكا بعملة ذهبية في يده يلمعها بدهان أبيض لتزداد بريقا، وطلب مني أن أجلس على مقعد أمامه، واستمر جالسا على الأرض يلمع العملات الذهبية وهو يحدثني!

وكنت قد عينت رئيسا لتحرير مجلة آخر ساعة فأبدى استياءه من بعض ما نشرت المجلة، واعجابه ببعض موضوعاتها، وقد سررت أن الملك يقرأ الصحف العربية، فقد كان والده الملك فؤاد لا يقرأ الصحف العربية على الاطلاق، بل يقرأ ترجمات لها باللغة الفرنسية.

وأنتهزت لحظات كان الملك فاروق يمزح فيها ويمرح وقلت له: إن الناس تلاحظ أن جلالتك لم تزر حسنين باشا في المستشفى رغم مرور أربعة أسابيع على مرضه، وهو رائد جلالتك وأمينك الأول، وكل مرضى وأطباء مستشفى المواساة يتحدثون عن ذلك فلم يرد عليَّ، ومضى يدعك النقود القديمة و يلمعها بالدهان الأبيض دون أن يوجه لي كلمة واحدة، ولاحظت أنه قطّب وجهه وأحمرت أذناه، فصمت ولم أنبس ببنت شفة، وفجأة انتفض فاروق واقفا، ثم أسرع في خطاه إلى داخل القصر، ولم أفهم معنى هذه الحركة، هل معناها أن المقابلة انتهت؟ أم معناها انه ذهب إلى دورة المياه وسيعود مرة أخرى؟ ورأيت أن الأسلم أن أبقى في مقعدي في انتظاره.

و بعد عشر دقائق رأيت الملك يدخل الغرفة من جديد وقد ارتدى ملابسه كاملة و وقفت احتراما له، وإذا به يمسكني من يدي و يقول لي: تعال معي إلى مستشفى المواساة!

وتبعته حيث استقل سيارة خضراء طويلة أهداها له هتلر، وجلس الملك في مقعد القيادة، وأجلسني إلى جانبه.

وكان للسيارة كلاكسون يدق نغمة سيرناد جميلة يعرفها الناس، ولا يكاد يضغط على الكلاكسون حتى تخرج الناس من الشوارع وتطل من النوافذ تحييه وتصفق له، وكنت مزهوا وفخورا بأنني أصحب الملك في سيارة واحدة، فقد كان محبوبا من الشعب في تلك الأيام حبا عارما، وكنت فخورا بأنني وعمري ٢٤ سنة في تلك الأيام استطعت أن أؤثر على الملك وأقنعه بزيارة حسنين في المستشفى بعد أن أهمله أربعة أسابيع، وصلت السيارة الملكية إلى مستشفى المواساة وضغط الملك على الكلاكسون فانبعثت نغمات السيرانيد العذبة، وقفز المرضى من أسرّتهم، واسرعوا إلى النوافذ والشرفات يهتفون للملك و يصفقون له، وخرج معهم الأطباء والممرضات وزوار المستشفى، وصعد الملك درجات المستشفى وفوجئت به يتجه إلى الجناح الأيمن في المستشفى، لا إلى الجناح الأيسر الذي فيه غرفة أحمد حسنين، وأسرعت خلف الملك وهمست في أذنه أن غرفة حسنين في الجناح الأيسر، فلم يرد عليَّ، وأسرع في خطاه وأسرعت في خطاى أتابعه، ورأيته يدخل غرفة، ووقفت على الباب ورأيت في الفراش محمد عبدالله خادمه الألباني المكلف بتنظيف السلاح وحراسة غرفته،

ووقفت مسمرا عند الباب، ولم أدخل، وأعتقدت أن الملك سيزور خادمه الألباني بضع دقائق ثم يزور حسنين باشا بعد ذلك، وخرج الملك من غرفة خادمه الألباني وسار بخطوات سريعة إلى سلالم المستشفى واتجه إلى سيارته، ولحقت به و بدأ يدق الكلاكسون فتحدث له نفس المظاهرة التي حدثت عند وصوله المستشفى ثم يعود بالسيارة إلى قصر المنتزه دون أن يوجه لي كلمة واحدة.

وكنت أشعر بشقاء عجيب، تحول الزهو إلى خجل، واختفى الفخر وامتلأت بالهوان، لقد أردت بسذاجتي أن أجامل حسنين باشا في مرضه، وأراد فاروق بخبثه أن يصفع حسنين على وجهه أمام الملأ، ودخل الملك إلى غرفة العملات القديمة من جديد وخلع الجاكتة وجلس على الأرض، واستأنف.. تنظيف العملات وتلميعها ودعاني أن أجلس على كرسي أمامه، وجلست، ولم يوجه لي أي كلمة ولكن كان يبدو كأنه انتصر انتصارا عظيما، وأن العالم كله شهد هذا الانتصار العظيم على أستاذه القديم.

و بعد ربع ساعة دخل الخادم النوبي محمد حسن يحمل صينية ذهبية صغيرة وفيها مظروف خطاب أزرق اللون، و بجواره فتاحة خطابات ذهبية، ومد الملك يده وفتح الخطاب وانصرف الخادم.

و بعد أقل من دقيقة وجدت الملك يكوّر الخطاب في يده و يلقيه على وجهي فيسقط على الأرض وهويقول: شوف حسنين بيقول ايه..

والتقطت الخطاب وما كدت أقرأ السطور الأولى حتى انتفض الخطاب في يدي وارتعشت أصابعي وكان نص الخطاب:

ياصاحب الجلالة.
حاولت أن أعلمك أن تكون ملكا...
ومن صفات الملوك الوفاء...
ولقد سررت أن وفاءك نزل إلى خادمك
وأسفت أنه لم يرتفع إلى أستاذك.

أحمد حسنين

والتفت إلى وجه الملك فوجدت الدم قد صعد إلى رأسه وارتعشت شفتاه، وتمتم بكلمات لم أفهمها ثم مضى يدعك العملات الأجنبية بعصبية كأنه يحاول أن يضفعها على وجهها و بقيت ساكنا، صامتا لا أعلق، فقد كان هول الموقف لاينفع فيه كلام ولا تعليق و بعد عشر دقائق وقف الملك وحمل الجاكته على كتفه ودخل القصر ثم عاد إلى الغرفة وقال: تعال معى!

ولم يقل لي إلى أين، ولكنه استقل سيارته الخضراء ودعاني للركوب بجواره، ووجدت نفسي في طريقي إلى مستشفى المواساة من جديد، وعزف الكلاكسون وخرجت نفس الجماهير تهتف وتصفق، ونزل الملك من السيارة واتجه إلى الجناح الأيسر الذي فيه غرفة حسنين، وتنفست الصعداء فقد انتهت الأزمة، وتركت الملك يدخل غرفة حسنين وحده و بقيت واقفا أمام الباب.

و بعد خمس دقائق سمعت الباب يفتح بقوة، و يندفع من غرفة حسنين كالصاروخ، وعدوت خلفه حتى لحقت به، وركب سيارته وانتظر حتى ركبت إلى جواره، ثم اندفع بالسيارة بسرعة جنونية مرعبة واخترق الشوارع واشارات المرور وقلبي ينخلع من الخوف والرعب، حتى وصلنا إلى المزارع التي كانت في تلك الأيام محيطة بمحطة فيكتوريا، وأوقف الملك السيارة وفتح الباب المجاور لي، وقال لي: انزل هنا!

ونزلت، وفجأة اندفع بالسيارة وتركني حائرا تائها مذهولا في الظلام، لا تاكسى! ولا أتوبيس! ولا سيارة! ولا ترام! ولا إنسان!

ومشيت على قدمي حوالي ساعة حتى وصلت إلى مكان اسمه «سكة النواتية» ووجدت بقربها عربة حانطور يجرها حصان هزيل، وركبت العربة وعدت إلى مستشفى المواساة من جديد وسألته: ماذا فعلت بالملك؟

ووجدته يضحك و يقهقه و يقول: قل لي أنت ماذا فعل الملك بك؟

ورويت له الفاجعة التي حدثت لي، واستمر حسنين يضحك و يقول: الذي حدث أن الملك أخرج مظروفا مغلقا ووضعه على المائدة بجوار فراشي، وفهمت على الفور أن فيه نقودا، وفضضت المظروف فوجدت فيه أوراقا مالية من فئة المائة جنيه، فأخذت أحصيها واحدا واحدا أمامه حتى وصل العدد إلى عشرين أي ألفي

جنيه ، وأعدت النقود إلى المظروف ، وأعدت المظروف إلى الملك وقلت له :

ــ أنت لا تستطيع أن تشتريني بألفي جنيه ، ولكنك تستطيع أن تشتريني بهذه الزيارة .

وغضب الملك وحمل الألفين جنيه وخرج !

* * *

وهكذا كانت العلاقات غريبة بين فاروق وحسنين ، يحبه و يكرهه .. يطيعه و يعصاه ، يخافه و يطمئن إليه ، أحيانا يقلده وأحيانا يثور عليه .

أذكر يوما أن دخل حسنين إلى غرفة الملك الخاصة وأغلق عليه الباب وقال : أنت لا تصلح ملكا ! أنت ملك فاشل ! أنت عدو نفسك ! أنت تحيط نفسك بأقذر رجال الدولة ، وإذا استمر حالك هكذا فلن تبقى على العرش خمس سنوات أخرى !

ثم خرج حسنين من غرفة الملك يتصبب عرقا ، يجر ساقيه و يترنح ، اصفر وجهه وابيض ، أحنى ظهره ، والتفت إلى رجال التشريفات الملكية وقال لهم بصوت متهدج :

ــ جلالة الملك بهدلني ! هزأني ! لعن خاشي ! قال لي أنت لا تصلح رئيس ديوان أنت إذا استمر حالك هكذا فلن تبقى في رئاسة الديوان خمس دقائق !

وتناقل رجال القصر ما قاله حسنين ، واعتقد خصومه أنه قد انتهى ، و وصلت هذه التفاصيل إلى فاروق فأعجب بحسنين الذي ينصحه ولا يفضحه ، و يربيه ولا يشهر به و يكتم أسرار ما يجري بينهما ولا يذيعه على رجال القصر ..

وكان فاروق يخاف فعلا من حسنين ، أذكر مرة أن الملك صحبني يوما إلى فندق مينا هاوس بالقاهرة وكانت الساعة الرابعة بعد الظهر ، وتقدمني الملكَ إلى شرفة الفندق ، وفجأة صاح فاروق : حسنين .. حسنين هنا !

وأدار ظهره وعاد أدراجه ، ذلك لأن الملك لم يشعر بالحرية في وجود رئيس ديوانه في نفس المكان .

وكان أمنيته أن يترك منصبه الكبير في القصر الوطني، و يترك المآدب الملكية الباذخة والسهرات الملكية الأرستقراطية ليعيش في خيمة في الصحراء فقد أحب الصحراء وعشق الحياة فيها، وكتب يصفها إذا ضحكت:

«ما أجمل الصحراء، وما أنعم ملمسها، ما ألذ اللعب عليها، ذات الغلائل اللانهائية الصفراء.. انها صبية طيبة، ظبية الدف، فرعها من ورد، جيدها من ذهب، جبينها من نور، النظرة إليها تسبي العينين، المشي عليها يأخذ بالألباب، حياتها موسيقى وشعر، سماؤها أغان وأحلام.. الاقامة فيها كالاقامة في روضة غناء، راضية قنوع، لا ترد قاصدا، ولا تخيب ظنا، إن صدت أقبلت، وإن أقبلت لانت، ضعيفة ذات خفر، في صوتها حنان، في رقتها لذة، في ملامحها فتنة..» .
ثم يعود و يصفها إذا عبست فيقول:
«ساء حال الرحالة: كل شيء تلف، أو تحطم، أو ضاع.. صناديقه كأنها ركام..عدده أصبحت لا تغني شيئا.. سلاحه لافائدة منه، إبله برح بها الاعياء والضنى رجاله أصبحوا كالأشباح من فرط ما نالهم من مشقة الجوع والنصب واليأس.. وليله ضجر متبرم.

كادت لرحالتنا الصحراء، ومكرت به، عبثت حتى بكراسة مذكراته، سلبته حتى غليون دخانه، ضنت عليه حتى بلذة الشبع!

ما أشبهه بالقائد الذي خسر المعركة فهوآو إلى انقاضه لايدري ماذا يصنع بها، و يهوله مشهد الضحايا! يروعه مشهد الخراب! يجزع لمقدم الغد، في ذمته تبعة هذا جميعه أما هو فرهينة ينتظر، إما الأسر وهو ذل، وإما الفرار وهو خبل، وإما قتل النفس وهو عار وخور» .

وكان حسنين وهو يصف الصحراء في ضحكها وعبسها يصف حياته السياسية في انتصاراته وهزائمه، كانت السياسة بالنسبة له صحراء فيها زوابع وأعاصير وفيها سحر وجلال.

وكانت قوته أنه يحفظ أعصابه في مواجهة الاعصار كما يحفظ أعصابه وهو يستمتع بهواء الانتصار العليل!

وقد واجه الموت عدة مرات ، ونجا منه عدة مرات ، وكان لايخشاه ، بل كان يقول دائما بيني و بين الموت موعد . . حينا يخلف موعده معي ، وأحيانا أخلف موعدي معه وكثيرا ما كان يقول إنه مدين بحياته للشاعر شوقي ، فقد نظم بمناسبة رحلته في الصحراء قصيدة قال فيها :

رحالة الشرق إن البيد قد علمت   بـأنـك الليـث لـم يخـلـق لـه الفزع

فرح الرحالة الشاب بقصيدة أمير الشعراء وخاصة بتشبيهه بالليث !

ولما شغف بالطيران سنة ١٩٣٠ قرر أن يطير من لندن إلى القاهرة واستقل طائرته من لندن ، ولكنها بعد بضع ساعات سقطت في فرنسا وتحطمت ، ونجا حسنين باشا من الموت في آخر لحظة ، واشترى طائرة ثانية سقطت به في سو يسرا ، ثم طائرة ثالثة تحطمت وتحطم معها في ايطاليا ، وحمل رجال الاسعاف الطليان أنقاض أحمد حسنين و وضعوها في المستشفى العسكري .

وشعر حسنين باشا بشبح الموت يقترب من فراشه ، وقرر الأطباء أن الطيار الشاب سيموت مائة في المائة .

وفي هذه اللحظة التي شعر فيها الشاب انه سيفارق الحياة ، تذكر ان شوقي شبهه بالليث ، فراح يردد بصوت مرتفع :

ــ تشجع ياليث . . تشجع ياليث

وتشجع الليث وقاوم الموت . . وغادر المستشفى بين دهشة الأطباء الايطاليين وما كاد يغادر المستشفى حتى اشترى طائرة رابعة ، وقرر أن يتابع رحلته إلى القاهرة وقبل طيرانه بنصف ساعة ، صعد أحد الخبراء إلى الطائرة لتجر بتها . . و بعد خمس دقائق كانت الطائرة شعلة نار . . احترقت واحترق معها الخبير .

وأثر هذا المنظر على أعصاب حسنين ، وعدل عن العودة إلى القاهرة بطائرة خامسة .

وكان يقول لي : إذا كتب تاريخ حياتي ، أكتب أن هذا الرجل كان مؤمنا بمصر ، وكان الساسة الدهاة لهذا السبب يسمونه «عبيطا» فلقد ولدت في حي بولاق ، وقضيت طفولتي مع ابن الجزار وابن الحداد ، ووجدت في ابن البلد «شهامة» ونبلا ، لم أجد مثلها في لوردات قابلتهم في انجلترا ، وماركيزات اجتمعت بهم في بلجيكا ، ومليونيرات صادقتهم في أمريكا ، وباشوات صاحبتهم في مصر!! أنا أعتقد أن فينا خميرة حضارات عظيمة ، فنجد هذه الحضارة «تتوثب» فينا برغم كل استعباد واستبداد .

وأنا أرى أن مصر ستصبح من أعظم بلاد الدنيا ، وان أسوأ ما فيها اننا لانعرف قيمتها اننا ـ نتيجة لطبائع الاستبداد ـ نتكلم دائما عن ضعفنا ، ونحن أقوى من غيرنا ، ونبكي تخاذلنا ، ونحن لايمكن أن نستعبد ، فان دول الاستعمار تفنى في بلادنا ، ونحن نفنى في مدنياتها ، ونحن ننسى تاريخنا ولوعرفنا تاريخنا جيدا لعرفنا اننا أعظم أمة في العالم ، ولكن أضعف نقطة فينا ان قادة الشعب أضعف من الشعب نفسه !

وكثيرا ما قلت للانجليز إن الروح «العربية» أقوى من المادة الغربية ، وإن مدنياتهم تقوم وتزول ولكن روحنا تبقى خالدة ، وإن في هذا الجانب من العالم ظهر موسى وعيسى ومحمد ، ولم يظهر عندهم نبي واحد ، وإن كل أفكارهم تزول و يبقى موسى وعيسى ومحمد أعظم قادة البشر.

* * *

وحدث أن أصيب أحمد حسنين بذبحة صدرية ، وتوقع الأطباء موته ، وذهبت إليه في فراشه فأعطاني ورقة وهويقول :

ـ سأعطيك نصرا صحفيا ! هذه وصيتي !

وتأملت الورقة وقلت له : هذه قصيدة الشاعر الانجليزي كبلنج !

قال حسنين : إنها عندي من سنة ١٩١٢ وقد قرأتها آلاف المرات ، وحاولت أن أجعل حياتي تسيرعلى هداها وأن تكون كل تصرفاتي على منوالها ، وإذا كانت هناك

وصية لمن بعدي ولمن أحبهم فهذه القصيدة هي وصيتي، ولوعشت لجعلت حياتي من أبيات هذه القصيدة، ولومت فستكون حياتي قصيدة ناقصة.

و وجدت مكتوبا على القصيدة بخط حسنين سنة ١٩١٢ــ يليول / اكسفورد. و يليول هي الكلية التي كان حسنين تلميذا بها.

وهذه هي القصيدة:

إذا استطعت أن تحتفظ برأسك في الوقت الذي يفقد فيه من حولك رؤوسهم، و ينحون عليك باللائمة!

إذا وثقت في نفسك حين يشك فيك الجميع، ومع ذلك سامحتهم لأنهم شكوا فيك..

إذا استطعت أن تنتظر ولا تمل الانتظار، ولم تقابل أكاذيب الناس بالأكاذيب.

إذا كرهك الناس فلم تكرههم، وإذا تظاهرت بأنك لست أحسن الناس. ولا أحكم الناس

إذا استطعت أن تحكم دون أن تسيطر عليك أحلامك، وأن تفكر، ولا تجعل التفكير هو كل اهدافك.

إذا استقبلت النصر كما تستقبل الهزيمة سواء بسواء.. وإذا استطعت أن تتحمل نتيجة أعمالك.. وأن تشهد المعول يهدم كل ما كرست من أجله حياتك، وتنحنى لتبنى من جديد ما تهدم!

إذا استطعت أن تجعل كل انتصاراتك نصرا واحدا، ثم تغامر به وتفقده، ثم تعود فتبدأ من جديد بغير أن تتحسر على ما فقدت وما تعبت!

إذا صبرت في وقت لاتملك فيه سوى إرادتك، تصرخ فيك وتهيب بك أن تتماسك!

إذا استطعت أن تتحدث إلى الشعب بغير أن تفقد فضائلك، وأن تصاحب الملوك بغير أن تفقد اتصالك بالشعب.

إذا استطعت أن تمنع الأعداء والأصدقاء أن ينالوا منك، وأن تحسب لكل إنسان حسابه، ولكنك لاتخشى الناس مجتمعين!

إذا استطعت أن تملأ فراغ كل دقيقة من حياتك بالعمل، وإذا كانت كل ثانية في عمرك تمضي في جهد يفيد!

إذا استطعت أن تفعل ذلك كله ملكت الأرض ومن عليها وأصبحت أكثر من ذلك... أصبحت رجلا ياولدي!..

* * *

وقد تزوج أحمد حسنين في واشنطون في قصة حب! فقد كان السكرتير الأول للسفارة وكان السفير سيف الله باشا يسرى، واحب حسنين ابنة السفير واحبته ابنة السفير.

وكانت العروس فقيرة فقد كانت أمها الأميرة شويكار مطلقة الملك فؤاد ومطلقة سيف الله يسرى باشا.

وأحبها حسنين وهي فقيرة وأمها مغضوب عليها من الملك فؤاد ومحرومة من كل المخصصات الملكية.

ورزق منها بولدين و بنتين، وكانا أسعد الأزواج.

وفي سنة ١٩٣٦ مات الملك فؤاد وورثت ثروة عن شقيقها الأمير أحمد سيف الدين أغنى رجل في مصر وأصبحت لطيفة هانم ابنة شويكار وزوجة حسنين أغنى شابة في مصر، وعندئذ طلق حسنين أغنى سيدة في مصر، وقال لأصدقائه إنه كان سعيدا معها وهي فقيرة وأصبح شقيا معها وهي مليونيرة.

وفي سنة ١٩٣٧ عقد الشيخ مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر زواج أحمد حسنين من الملكة السابقة نازلي، وكان شاهدا العقد أحمد لطفي السيد باشا وجعفر والي الوزيرين السابقين.

وعندما تلقى الملك فاروق نبأ وفاة حسنين أسرع واستقل سيارته إلى بيت أحمد

حسنين في ميدان عبدالمنعم بالدقي، ودخل غرفة نوم حسنين حيث كان مسجى على الفراش ومغطى بملاءة بيضاء .

واتجه الملك إلى خزانة حسنين، وفتحها، وأخذ عقد زواج أمه وحسنين ودسه في جيبه .

وخرج من بيت حسنين بخطوات مسرعة .



علي أمين .. نصفي الثاني

عرفته في بطن أمي! ولدتنا أمنا توأمين، ولد هو أولا وولدت بعده بخمس دقائق.. وكنت أداعبه في طفولتنا وأقول له: إنني كنت أكثر منك أدبا! لقد قلت لك: تفضل أنت أولا وتركتك تخرج إلى الدنيا قبلي.

وكنا نختلف أينا أكبر من الآخر، بعض الدول تعتبر المولود الذي يرى نور الدنيا أولا هو المولود الأول وبعض الدول كاليونان ترى أن المولود الثاني هو المولود الأكبر لأنه تكوّن قبل المولود الذي خرج إلى الدنيا أولا!

وولد علي سمينا وولدت نحيفا حتى إن الأطباء خشوا أن أموت من شدة الضعف ولهذا أمر الأطباء بوضعي ٤٠ يوما في طشت من النبيذ.. ولعل هذا هو السبب في أنني لا أشرب الخمر فقد شربت وسكرت بما فيه الكفاية!

وكان تشابهنا عجيبا وكان من الصعب أن تعرف أمنا من هو علي ومن هو مصطفى؟ وقد علمتنا بأن وضعت في يدي شريطا أزرق ووضعت في يد أخي شريطا أحمر.. وكنا ننام في سرير واحد وأذكر أننا غافلناها وتبادلنا الشريطين.. ووضعت في يدي الشريط الأحمر ووضع أخي في يده الشريط الأزرق وأصبحنا نتبادل الشريطين.. عدة مرات حتى إنني لا أعرف الآن هل أنا مصطفى أمين أم علي أمين!

وكانت أمنا حريصة أن نرتدي لونا واحدا من الملابس، فكان من الصعب التمييز بيننا، وقد ضاق ناظر مدرسة دمياط الابتدائية بتشابهنا العجيب فوضعني في فصل ووضع علياً في فصل آخر، وكان إذا ضرب المدرس علياً في الفصل بكيت أنا في الفصل الآخر.. وكانت هذه الظاهرة العجيبة تدهش المدرسين.. وعندما كبرنا كنت أذهب وحدي إلى الخياط أختار قماشا لبدلي ويذهب علي إلى خياط آخر ويختار قماشا لبدلاته ثم نكتشف بعد ذلك أننا اخترنا نفس اللون ونفس القماش! وحدث مرة بعد أن أصبحنا شبابا أن كنا نسير على شاطىء سيدي بشر في رمل الاسكندرية

وإذا بفتاة تسير في مقابلتنا تسقط على الأرض مغمى عليها فلما أفاقت قالت إنها رأت واحدا اثنين ..!

ومنذ ذلك اليوم أصبحنا نحرص على أن نرتدى ألوانا مختلفة فإذا ارتدى هو اللون البني أرتديت اللون الأسود وإذا ارتدى اللون الغامق أرتديت اللون الفاتح .. إذ ظهورنا معا في المجتمعات بملابس طبق الأصل كان يثير الضحك والابتسام!

وكان صوتنا متشابها وأذكر أن علياً سافر إلى انجلترا في الثلاثينيات لاتمام دراسته الجامعية وغاب عن مصر عامين ثم عاد بالباخرة إلى الاسكندرية وسافرت إلى الاسكندرية لاستقباله، ومن هناك طلبت أمي في التليفون في القاهرة وقلت لها: أنا علي!

وصاحت أمي من الفرحة: إنني حرمت من هذا الصوت طوال سنتين! قلت لها: بل إنك تسمعين هذا الصوت كل يوم!

قالت أمي: ابدا، هذا صوت علي الذي لم أسمعه منذ عامين قلت لها: أنا مصطفى ولست عليا! وأعطيت السماعة لعلي فذهلت أمي انها لم تستطع أن تفرق بين صوتينا.

وحدث أن تزوج علي قبلي، وكانت زوجته تطلبه في مكتبه بالتليفون و يبدأ هو المحادثة وإذا كان مشغولا أعطاني السماعة وأتم المحادثة دون أن تعرف زوجة علي أنني لست زوجها!

وعندما تزوجت للمرة الأولى أصرت عروسي أن تقيم فرحا في فندق شبرد القديم وعارضت بشدة في هذه «البهدلة» ولكن أسرة عروسي اضطرتني أن أقبل هوان الزفة والجلوس في الكوشة.

وجلست خمس دقائق في الكوشة وشعرت أنني أختنق واستنجدت بأخي وطلبت منه أن يفتديني ويجلس بدلي في الكوشة وقبل المسكين أن يقوم بهذه المهمة الثقيلة حتى انتهى الفرح!

وقليل من أصدقائي المدعوين أكتشفوا أن العريس ليس هو أنا! وفي بعض

الأحيان أنظر إلى المرآة وأرى صورة علي في أول الأمر ثم أتبين إنها صورتي!

وكنت أعمل صحفيا وكان أخي يعمل مهندسا ثم أصبح مديرا لمكتب وزير المالية.. وفي يوم من الأيام كنت في مكتب مكرم عبيد باشا وزير المالية وإذا به يسلمني ملفا مكتوبا عليه «سري للغاية» متصورا أنني مدير مكتبه وتسلمت الملف طبعا دون أن انبهه إلى الخطأ وحدث أن دخل أخي إلى المكتب ورأى وزير المالية يسلم الملف لي فأسرع يخطف مني الملف السري و يقول للوزير: هذا ليس مدير مكتبك! إنه الصحفي مصطفى أمين!

وهكذا كان ولاء علي لعمله أكثر من ولائه لأخيه!

وكان قبل ذلك سكرتيرا خاصا لوزير الأشغال حسين سرى باشا وكان وزيرا شديدا حازما دقيقا في تنفيذ التعليمات، وكانت تعليماته أن يحضر الموظفون إلى مكاتبهم في الساعة الثامنة صباحا ومن يتأخر خمس دقائق يخصم يوم من مرتبه.

وكان من تعليماته أيضا أنه ممنوع على موظفي الدرجة السادسة أو الدرجة الخامسة الصعود في المصعد وأنه قاصر على كبار الموظفين.

وذات يوم جاء السكرتير علي أمين إلى الوزارة في الساعة التاسعة وما ان رآه عامل المصعد حتى فتح بابه على مصراعيه مرحبا بسعادة سكرتير الوزير! ودخل علي أمين منتفخا إلى المصعد.. وإذا بحسين سري باشا وزير الأشغال يدخل المصعد في أثره! وصرخ الوزير: كيف ياأفندي تتأخر ساعة عن موعدك؟ وأيضا تركب المصعد المخصص لكبار الموظفين.

قال علي أمين الموظف في الدرجة السادسة: كيف تخاطبني بهذه اللهجة؟ أنا مصطفى أمين رئيس تحرير مجلة آخر ساعة ولست سكرتيرك! وتراجع الوزير حسين سري وقال: أنا كنت أمزح معك! أنا أعرف جيدا أنك مصطفى أمين هل معقول أن لا أعرف سكرتيري! وتوقف المصعد ودخل الوزير إلى مكتبه و بعد دقائق دق الجرس طالبا علي أمين.

وأسرع علي أمين واستعار ربطة رقبة من موظف وجاكتة من موظف آخر ودخل

إلى مكتب الوزير.

وقال له الوزير حسين سري: كنت أتصور أن شقيقك ذكي و يفهم النكتة ولكن ظهر أنه عبيط! تصور أنه لم يعرف أنني أداعبه عندما تظاهرت بأنني أعتقد أنه سكرتيري!

وسكت علي أمين ولم يقل إن العبيط هو معالي الوزير!

وكان يبدأ المقال وأتمه دون أن يشعر القارىء أن الأسلوب في منتصف المقال اختلف عن أوله، وعندما كنا نملك دار أخبار اليوم كان الموظف يدخل يعرض أمرا على أخي فيقول له رأيا معينا ثم يدخل عندي و يعرض نفس الرأى فيتلقى نفس الجواب، وكنت في الخمسينيات أدرس مادة الفن الصحفي لطلبة قسم الصحافة بكلية الآداب، ثم حدث أن سافرت إلى امريكا وطلبت إلى أخي أن يلقى المحاضرات بدلا مني، وذهب إلى كلية الآداب وألقى المحاضرة على الطلبة ولم يكتشف الطلبة والطالبات أن الأستاذ ليس هو الأستاذ إلا بعد أن أخبرهم علي بالحقيقة في نهاية المحاضرة! وحدث مرة أن كان أحد الكبار يقوم بمهمة سرية في لبنان وكان سيسافر إلى بيروت على طائرة شركة مصر للطيران، وصدرت الأوامر بأن لايسمح لصحفي بركوب هذه الطائرة، واستعنت بجواز سفر أخي ومكتوب فيه أن وظيفته مهندس، وركبت الطائرة وجلست في مقعد في نهايتها وأخفيت وجهي بجريدة.

وجاء الكبير وكان أمين عثمان باشا وركب الطائرة ولم يتبين وجودي وتحركت الطائرة و بعد أن وصلت فوق بورسعيد قمت من مقعدي واتجهت إلى أمين عثمان باشا وما كاد يراني حتى ذعر وقال لي: إما أن تنزل أنت من الطائرة أو أنزل أنا!

وكنت قد نشرت خبر الرحلة في عدد آخر ساعة الذي سيصدر صباح ذلك اليوم وخشيت لو نزل أمين عثمان أن يضيع النصر الصحفي فقبلت أن أنزل من الطائرة وأمر أمين عثمان باشا الطيار أن يهبط في مطار بورسعيد.. ونزلت.. ولكني اخذت معي قبل أن أنزل حقيبة أوراق أمين عثمان باشا التي تحوى مهمته السرية!

وقامت طائرة أمين عثمان باشا إلى بيروت واكتشف في نصف الطريق أنني

أخذت حقيبته وتركت حقيبتي .. فأمر الطيار أن يعود مرة أخرى إلى مطار بورسعيد .. وكنت قد انتهيت من الاطلاع على أسرار الرحلة وانفردت بنشرها في جريدة الأهرام .

وهكذا كان للتشابه الذي بيني و بين علي فوائد كثيرة ومزايا متعددة! وعندما بدأت تنبت لحيتانا أتفقت مع صاحب صالون الاسماعيلية أن يحلق لي ذقني في مقابل عشرين قرشا في الشهر ، وقلت له إن لحيتي تنبت بسرعة وإنني أريد أن أحلقها مرتين في اليوم مرة في الصباح ومرة في المساء ، وكنت أذهب وأحلق لحيتي في الصباح و يذهب علي في المساء ويحلق لحيته ! وذات يوم تصادف أن كان علي مرتبطا بموعد هام فذهب إلى صالون الحلاق بعد خروجي بخمس دقائق .. واكتشف صاحب الصالون الفضيحة وارتفع أجر الحلاق إلى أر بعين قرشا في الشهر!

وعندما كنت ولدا رأيت بنتا جميلة صغيرة في بيت الجيران وابتسمت لها وابتسمت لي .. وأشرت لها وأشارت لي وأرسلت لها خطاب حب فردت على الخطاب وأصبحنا صديقين .. و وصفت لأخي الفتاة التي أحببتها .. و يظهر أنني بالغت في وصف ملامحها وجمالها وجاذبيتها وفتنتها ، وحدث أن كان علي واقفا في الشرفة فاعتقدت ابنة الجيران أنه أنا فابتسمت له وحيته وتصور علي بنظرته الواقعية أنها فتاة أخرى .. لأنه لا تنطبق عليها أوصاف ملكة الجمال التي رسمتها له فبدأ يعاكسها .. ثم اكتشفنا أن الفتاة واحدة واتفقنا أن نلعب عليها القرعة .. وجئنا بعشرة قروش واختار أخي الصورة واخترت رقم العشرة وألقينا العشرة قروش في الهواء وفاز رقم العشرة وفزت بابنة الجيران!

وكان علي في شبابه سيىء الحظ في الحب .

عندما كنا أطفالا في دمياط أحب «إحسانا» الطفلة بنت الجيران وكان يلعب معها دائما لعبة «عروس وعريس» .

ولم يستمر وجودنا في دمياط أكثر من بضعة شهور وسافرنا إلى القاهرة .

وانقطعت الصلة بين الطفلة إحسان والطفل علي .

وسافر علي إلى انجلترا ومرت عشرة أعوام وكتبت إلى علي خطابا من القاهرة أقول له ان إحساناً خطبت لمحام شاب وفوجئت به يرسل إليَّ خطابا يقول لي فيه إن زواج

إحسان نزل عليه نزول الصاعقة وإنه بكى من هول الصدمة وإنه مكث ثلاثة أيام لايذوق النوم.

والتقيت به بعد ذلك وسألته: هل وعدتك إحسان بالزواج؟ قال: لا؟! قلت: هل أخبرتها أنك تريد أن تتزوجها؟ قال:لا!

قلت:إذن ماذا صدمك؟

قال: كنا ونحن أطفال نلعب عريس وعروسة.. وأنا صدقت اللعبة واعتقدتها جدا!

وحدث أن جاء إلى القاهرة في اجازة ودعانا الأستاذ التابعي إلى سهرة في صالة بديعة وكان التابعي يومها أشهر صحفي في مصر وجاءت الراقصات يجلسن حول الصحفي الكبير، وجاءت راقصة مبتدئة اسمها شوشو نبيل وجلست بجوار علي، وكان عمرها ١٦ سنة وعمر علي ١٧ سنة.

وانصرفنا في منتصف الليل وسافر علي لاستكمال دراسته في انجلترا و بعد أيام جاء الشاب الذي يعشق شوشو نبيل وذبحها وأرسلت النبأ إلى علي.. ولم أتصور أنه سيهتم بالخبر، وإذا به يكتب لي عن هذه الفاجعة التي مزقت قلبه فقد ترجم الساعة التي جلس فيها في الكباريه مع هذه الراقصة صداقة عمر.. وعندما عاد إلى القاهرة أصر أن يزور قبرها!

و بذل جهودا شاقة حتى عثر على قبرها وكأنه كريستوف كولومبوس يكتشف قارة أمريكا واستمر عدة سنوات يزور قبر الراقصة التي نسيها كل الناس والتي جلس معها ساعة واحدة! وكان السكان الذين يقيمون حول القبر يذهلون لرؤية الزائر الوحيد الذي يجيء و يقرأ الفاتحة على قبر الراقصة المذبوحة.

وسألته ما سر الحاحه على زيارتها في قبرها؟

قال: لانني أنا الذي ذبحتها! عندما ذهبنا إلى صالة بديعة جلست بجانبي وقالت لي إن فتوة يحبها وإنه يريد أن تستسلم له وهي مصرة أن تحتفظ بشرفها وتقول له: تزوجني أولا.. ونصحتها أن تصمد.. وصمدت وسمعت نصيحتي.. ولهذا ذبحها!

استمرت القصة ساعة واحدة!

ولكنها عاشت معه العمر كله!

وفي أواخر الأر بعينيات فكر في الزواج ورشح له اصدقاؤه فتاة من أسرة معروفة، ودعانا الأستاذ أحمد عنان إلى لقاء الفتاة وأسرتها في حدائقه بقرب بلبيس.

واعجب علي بالفتاة واعجبت الفتاة بعلي و وافق الأب والأم والخال وفرحوا بهذا الزواج السعيد.

ولكن عميد الأسرة رفض الزواج لأن أخبار اليوم تهاجم الحزب الذي ينتسب إليه، وأصر على ألا يتم هذا الزواج، وخضعت الأسرة أمام إصرار عميدها وفسخت الخطبة وكانت صدمة عنيفة لعلي أمين.

ولم أر عليا حزينا ومصدوما ومهموما كتلك الأ يام، الأ يام القليلة التي أمضاها في هذه الخطبة كانت أسعد أيام حياته والأ يام التي أمضاها بعد ذلك كانت أشقى أيام حياته.

وكان دائما يقول: لا أعرف لماذا فعل الله بي هذا؟ لابد أن الله غاضب عليَّ!

وكنت أقول له: لابد من حكمة فإن الأقدار لها منطق نعجز أن نفهمه و بعد شهور قليلة فهمنا!

مرضت الفتاة الجميلة الشابة فجأة بالسرطان وتوفيت! و بكى عليها علي أمين كأنها أصبحت زوجته!

* * *

عندما أتم علي دراسته الثانو ية وحصل على شهادة البكالوريا أراد السفر إلى انجلترا لاتمام دراسته في إحدى كليات الهندسة في مدينة شيفيلد، وعارضت أمي بشدة لأنها أقسمت في سنة ١٩١٩ ألاّ تعامل الانجليز و بقيت محافظة على قسم المقاطعة.

وجاء الشيخ المراغي شيخ الجامع الأ زهر إلى بيتنا وأفتى لأمي بأن قسمها هذا

لايمنع أن يتعلم علي في بلاد الانجليز! وكان عمر علي ١٦ سنة.

وكانت أمي تخاف أن يتزوج أخي من أجنبية فكتبت وصية تحرم فيها علي وتحرمني من ميراثها إذا تزوج واحد منا فتاة أجنبية وأوصت أن يذهب الميراث إلى الجمعية الخيرية الاسلامية.

وكان علي يحرص كل شهر أن يذهب إلى ملجأ العجائز في مدينة شيفيلد و يلتقط صورة له بين عجائز الملجأ و يرسلها إلى أمي باعتبارها صورته مع أهل البيت الذي يقيم فيه بمدينة شيفيلد.

و يطمئن قلب أمي عندما ترى ابنها يجلس مع سيدة عمرها مائة وسبع سنوات وشمطاء عمرها تسعون سنة وآنسة في الثمانين من عمرها! واستمر علي أمين على زيارة ملجأ العجائز في شيفيلد مدة خمس سنوات! وألف علي أمين في عام ١٩٥١ كتابا اسمه كيف تحكم مصر صدر في سلسلة كتاب اليوم، وأحدث الكتاب ضجة هائلة، انه تحدث بصراحة مذهلة عن كيف تحكم مصر وما يجرى فيها من وراء ستار وعن الصراع بين الأحزاب وعن الخلافات بين السياسيين وعن فساد الحكم.

وخصص الفصل الأخير من الكتاب عن عدد من الشباب ساءهم الحال وقرروا أنه لابد من الخلاص من كل ما يجري في مصر وأن يقوموا بثورة تحكم البلد حكما وطنيا شعبيا نزيها واختاروا من اختاروا لقياده هذه الثورة، واتفقوا أن يقفوا أمام تمثال لاظوغلي في ساعة معينة عند الظهر ومن يمر أمام هذا التمثال يختارونه زعيما للثورة ومرت راقصة فاستهجنوا أن تحكم مصر راقصة، ثم مر رجل سكران فاستبعدوا أن يحكم مصر رجل مخمور.. ثم مر ابن بلد فقبضوا عليه وسألوه عن اسمه فقال: دقدق محمد دقدق وأصبح محمد دقدق حاكما على مصر وعدد الاصلاحات التي قام بها.

ومرت السنون وإذا بالشعب يطلب العودة إلى حكم الدستور وحكم الأحزاب.

وقرأ جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر وصلاح سالم هذا الكتاب عقب قيام الثورة وذهلوا لأن كل ما تنبأ به علي أمين حدث بالحرف الواحد.

ولكنهم استبعدوا أن يعود الشعب و يطالب بالدستور والأحزاب وماتوا قبل أن

يعرفوا أن النبوءة تحققت بالحرف الواحد.

***

وكان علي أمين يعيش دائما في الغد يقرأ الكتب عن المخترعات الحديثة والاكتشافات الجديدة و يتابع قراءة المجلات العلمية.

وفي منتصف الاربعينات كتب يقول: «تم الوصول إلى اختراع جديد يجعلك وأنت جالس في بيتك تحضر حفلة أم كلثوم الشهرية وتراها وهي تغني أمام الجماهير أو تشهد مباراة في كرة القدم بين النادي الأهلي ونادي فاروق (الزمالك الآن)

وما كاد يظهر مقال علي أمين حتى انهالت خطابات القراء تشتمه وتلعنه وتهاجمه!

يا كذاب.. يافشار.. ياضلالي! كيف تقول اننا سوف نستطيع أن نرى أم كلثوم تغني ونحن جلوس في بيوتنا؟ كيف تجرؤ أن تدعي أننا سنشهد مباراة بين الأهلي وفاروق دون أن نذهب إلى الملعب؟ هل تظن أننا عبطاء ومغفلون؟ هل تتصور أننا أطفال تهزأ بعقولنا؟

لم تستطع عقول الكثيرين في ذلك الزمان أن تصدق معجزة التليفزيون وكان علي أمين يضحك وهو يتلقى هذه الشتائم و يقول: هذه هي أحسن خطابات اعجاب تلقيتها في حياتي!

و بعد سنوات قليلة كان التليفزيون في كل بيت وكل كوخ من الخليج إلى المحيط.



مَن قتل كامل الشناوي ؟

كان الشاعر كامل الشناوي في شبابه يرتدي العمامة والجبة والقفطان، وكان طالبا في الأزهر، يهرب من حي سيدنا الحسين حيث المساجد والمآذن والدروس الدينية، و يذهب إلى شارع عماد الدين حيث المسارح ودور السينما وصالة بديعة.

وكان منظر كامل عجيباً بعمامته الكبيرة وجسمه الضخم وهو جالس في قهوة الفن بشارع عماد الدين بين كبار الممثلين وكبار الممثلات وكبار النقاد والصحفيين.

ولم يلبث كامل حتى خلع الجبة والقفطان وارتدى الجاكتة والبنطلون، وترك الأزهر الشريف والتحق بمدرسة الحقوق الفرنسية، ثم هجر دروس القانون كما هجر دروس الدين وقرر أن يعيش شاعرا فنانا يعيش في بيوت الشعر وفي دواوين الشعراء.

وكان ابرز صفاته خفة دمه، يقول النكتة فتصبح على كل لسان، كأنها أغنية من أغاني أم كلثوم أوعبدالوهاب!

وفي وقت قليل أصبح من ظرفاء مصر مثل حافظ ابراهيم ومحمد البابلي والشيخ عبدالعزيز البشري وفكري اباظة وسليمان نجيب.

وقد عرفته أول ما عرفته عندما كنت نائباً لرئيس تحرير مجلة روزاليوسف، وكان كامل يتردد على منزل السيدة روز بشارع الحواياتي بالقاهرة و يعطي ابنتها الطفلة آمال طليمات دروساً في اللغة العربية.

وما يكاد ينتهي من الدرس عن المبتدأ والخبر وصيغة منتهى الجموع حتى يدخل غرفة الصالون فيجد عدداً من محرري روزاليوسف وأصدقائها، و ينقلب درس اللغة العربية إلى ضحك ومرح ودعابة ومقالب وسخرية، كان يجيد تقليد أصوات الزعماء والوزراء والكتاب، وكم من مرة تكلم باسم شخصية معروفة في التليفون، وهاجم شخصية أخرى فأغضبه وأثاره، وقد صدق ان الشخصية المعروفة هي التي تتكلم وهي

التي خرجت عن حد الأدب ، وتقوم خصومة بين الشخصيتين قد تصل إلى حد الهجوم على صفحات الصحف ، إلى أن يكتشف الا ثنان انهما كانا ضحية لمقلب من مقالب كامل الشناوي .

وكان لا يكره في الدنيا إلا ثقل الدم ، فإذا دخل مكتبه رجل ثقيل ضاقت به الدنيا وشعر بالاختناق واستنجد بعدد من الظرفاء من اصدقائه لينقذوه من الغرق في الدم البارد والثقيل .

وفوجئنا ذات يوم في أثناء الحرب العالمية الأ ولى بأستاذ في الجامعة يقتحم سهراتنا في جريدة الأهرام، وكان الأستاذ حجة في علمه ، جم الأدب ، ولكنه كان لسوء حظه ثقيل الدم لدرجة أنه إذا دخل إلى فرح حوله إلى مأتم ، وإذا سمع نكتة حولها إلى نظرية علمية فتموت الضحكات فوق الشفاه، وحاول كامل أن يتخلص منه بكل الأساليب والوسائل ، والرجل الثقيل يزداد إصراراً على أن يقاسمنا سهراتنا و ينكد علينا الحياة وأخيراً رأى كامل الشناوى أن يرغم صاحبنا الثقيل أن يكون خفيف الدم ، وأقنعه أن دكتوراة العلوم التي يحملها لا تساوي شيئاً في ذلك العصر ، وخير له وأربح أن يكون دكتوراً في السحر والشعوذة ! ووعده بأن يكون كل محرري الأهرام مساعدين له وصبيانا في عملية السحر والدجل ، واتفق معه على أن يدعى أنه يستطيع إذا عرف تاريخ ميلاد رجل أن يعرف بعمليات طرح وضرب وجمع وقسمة اسم زوجته أو اسم صديقته أو أسم خطيبته .

و يدخل الضحية إلى مكتبي و يسأله الدكتور عن تاريخ ميلاده ثم يغادر الدكتور الغرفة ونسأل الضحية عن اسم زوجته أوخطيبته فيهمس بها في اذني ، فاهمس بها في اذن جاري ، و يهمس بها إلى جاره حتى يصل اسمها إلى المحرر الذي يجلس عند باب الغرفة ، فيفتح الباب في هدوء ويخرج .. وبعد دقائق يقتحم الدكتور الساحر الغرفة ، ويمسك ورقاً وقلماً و يكتب ارقاماً ويجمعها و يطرحها و يضربها ثم يقول له : اسم زوجتك فاطمة !

و يذهل الضحية و يعجب من كفاءة الدكتور في السحر وفي معرفة الغيب .. وكان كامل الشناوي يجلس في بار اللواء ، وكان الجنود والضباط الانجليز يترددون على قهوة اللواء ، وأشاع كامل بينهم أن هذا الدكتور ساحر عظيم فأقبلوا عليه يرجونه

و يتوسلون إليه أن يذكر لهم أسماء خطيباتهم ! و يأخذهم كامل إلى غرفته في الأهرام ومعه الدكتور الساحر و يلعب اللعبة على الضباط والجنود .

وخف دم الدكتور المشعوذ كثيراً ، وحوّل مجالسنا من كآبة إلى مرح ، ومن جد إلى هزل ، ومن مناقشات علمية جافة إلى ألاعيب حواة وشعوذة ! ثم ضاق كامل بشعوذة المشعوذ الذي صنعه فأصبح يخبر الضحايا مقدما بحقيقة الدكتور المشعوذ ، فيشتركون معه في اللعبة ، و يضحكون على الدكتور بدلا ان يضحك منهم !

وكان أصدقاء كامل المقربون ضحايا مقالبه ، وقال له أنيس منصور يوماً : «أنت يا كامل بك تزغزغ أصدقاءك بالسكاكين» وغضب كامل من هذه الحقيقة ، وحاول أنيس أن يسترضيه فقال له : إنني أداعبك بأسلوبك وأتكلم بلغتك وأمزح على طريقتك ! ولكن كامل كان يحب أن يحتكر المقالب ويحتكر السكاكين ، وكان قادراً أن يطلق لقباً على زعيم أو أديب فيلصق به اللقب الساخر طول حياته .

وكان كاتباً كسولاً وصحفياً كسولاً وشاعراً كسولاً وعاشقاً نشطاً ، إذا كتب حذف وشطب ومزق عشرات الأوراق قبل أن يكتب ثلاثة سطور .

وإذا ذهب للقاء زعيم خطير تكلم كامل طوال اللقاء ولم يترك للزعيم فرصة ليقول لنا خبراً ، كان بظرفه ولطفه وخفة دمه يحتل المجلس و يسيطر عليه ، فيتحول المتكلمون إلى صامتين ، والمترثرون إلى صاغين ، و ينتظر رئيس التحرير نتيجة المقابلة الخطيرة إلى ما بعد منتصف الليل ثم يكتشف أن رئيس الوزراء هو الذي سكت وأن كامل الشناوي هو الذي تكلم !

وكان شاعراً رقيقاً لو جمعنا شعره كله لما ملأ كتاباً واحداً بينما انه كان لديه من الخيال والموهبة والقدرة على الخلق ما يجعله أشعر شعراء مصر .

وكان شحيحاً في أدبه متلافاً في ماله ، يكتب وكأنه بخيل يكتب كمبيالة ، و ينفق وكأنه مليونير له رصيد في البنوك ! والشيء الغريب أن كامل الشناوى كان مديناً لجميع البنوك في مصر ، ولم يترك مصرفاً صغيرا أو كبيراً إلا واقترض منه وكتب له الصكوك والكمبيالات ، حتى جاء يوم كانت الفوائد التي يدفعها للبنوك أكثر من مرتبه الشهري !

وكنت تراه يقبض في يناير مرتب شهر يوليو! لأنه سبق أن استدان مرتبات شهور فبراير ومارس وابريل ومايو و يونيو! كان كريماً إلى حد السفه، لايتردد في أن ينفق كل مرتبه في شراء ولاعة ذهبية وأربع كرافتات ومنديل حرير من صناعة باريس.

وكان يعتقد أن الناس أربعة: عالم يعرف أنه عالم، وهذا حكيم فاتبعوه، وعالم يجهل أنه عالم، وهذا نائم فأيقظوه، وجاهل يعرف أنه جاهل فاضربوه وعلموه، وهذا جاهل يجهل أنه جاهل، وهذا حمار فاركبوه!

كان كامل مستعداً أن يركب كل حمار، وكل غبي، وكل ثقيل الدم، وكل أحمق ويجد متعة لاحد لها في هذا الركوب، كان الذكاء يستهو يه وكان الغباء ينفره، وكانت الموهبة تجذبه بينما الخمول العقلي ينكد عليه الحياة.

وكانت غدة الحب في قلبه تفرز باستمرار! ما مر يوم في حياته منذ عرفته ولم أره غارقا في قصة حب، وكنت أقول له ان قلبه كروايات سينما مترو في تلك الأيام، كل أسبوع فيلم جديد! وكان يسمى الفتاة التي يعشقها «آخر صيحة» فإذا مضى أسبوع على الحب بحث عن تاجر الأشياء المستعملة ليلقى في جرابه بالحب القديم كما يرمى بالحذاء القديم!

أحب مرة نجمة سينمائية فاتنة، وكنت أدخل مكتبه فيقول لي: «القاهرة نائمة الآن فلا ترفعوا أصواتكم حتى لا تستيقظ» وأفهم من هذا أنه سأل عن معبودته في بيتها فعلم أنها لا تزال نائمة فاعتبر هذا دليلاً على أن العاصمة كلها مستغرقة في النوم! وإذا رآها مبتسمة عاد يقول لنا: كانت القاهرة تبتسم اليوم، الشوارع تبتسم والسيارات تبتسم والعمارات تبتسم، حتى إنني رأيت جنازة في ميدان الأو برا كان المشيعون يبتسمون والنعش يرقص!» وكانت المعبودة تقيم في تلك الأيام بفندق الكونتنتال بميدان الأو برا!

وأعظم هوايات كامل الشناوي كانت احتضان المواهب الجديدة، ودفعها إلى الأمام، والحماس لها، والاشادة بها، وقد سمعت اسم «عبدالحليم حافظ» لأول مرة في حياتي من كامل، وقد كرره أمامي مائة مرة حتى أصبحت إذا رأيت كاملاً بادرته بقولي: «ماهي أخبار عبدالحليم حافظ؟» ولما عرفت عبدالحليم جيداً وجدت

أن كاملاً كان صادقاً في وصفه محقاً في إعجابه به ، وكذلك كان الأمر مع الموسيقار بليغ حمدي .

وكان كامل متقلباً يحب ثم يكره ثم يحب من جديد ، يصنع التمثال ويحطم الصنم ، ثم يعود ليجمع الأنقاض ليبني ناطحة سحاب ، وكان مكتبه في جريدة أخبار اليوم «الأم» التي تحتضن المحررين المبتدئين والفنانين الصغار والمواهب الناشئة ، وكانت سعادته أن يرى هذه الزهور الصغيرة تكبر وتتحول إلى أشجار باسقة ، ولم يكن يخشى أن يكبر صغيراً فيحتل مكانه .. وكم من صغار حملهم فوق رأسه فداسوه بأقدامهم ، ونصرهم فخذلوه ، وشهرهم وحاولوا أن يدفنوه !

وكان ذوقه في الحب غريباً ، كان دميماً ولا يختار إلا ملكات الجمال ، وكان ضخم الجثة و يصر أن تكون معبودته دقيقة صغيرة قصيرة تكوّن معه رقم ٥٠ فيكون هو الخمسة المستديرة وتكون هي الصفر الذي على اليمين ، وكان مخلصا أمينا في حبه ولا يقع إلا في هوى الغانيات المتقلبات الخائنات الغادرات ! وكانت الفتاة التي تقف وحدها لا تستهو يه ولا تلفت نظره ، وانما الذي يجذبه هو الزحام ، فهو يحب المرأة التي حولها زحام شديد ، فيحاول أن يشق طريقه إليها ، و يدفعه من أمامه ، و يوقفه من بجواره ، و يزغده من خلفه ، إلى أن يصل إلى المرأة التي اختارها منهوك القوى !

وقد قلت له مرة إنني ألاحظ أنه لايحب السيارة «الملاكي» التي يستقلها وحده وإنما يحب السيارة «الأ وتو بيس» كاملة العدد فيتشعبط على السلم ، أويتعلق بالباب حتى يدفعه راكب آخر! فأنا لم أره أبداً جالسا مستريحاً في أوتو بيس حب .. بل كنت أراه واقفا ينتظر أن يخلو مقعد ولا يجد محلاً خالياً أبداً !

وكان كامل يقول : «إن ولعي بالجمال لا يقف عند حد ، فأنا أحب الجمال في الطبيعة والفن والاخلاق والمرأة» .

وعشت معه حبه الكبير الأخير وهو الحب الذي أبكاه وأضناه وحطمه وقتله في آخر الأمر ، أعطى كامل لهذه المرأة كل شيء : المجد والشهرة والطبل والزمر والدعاية والشعر ، ولم تعطه شيئاً ! أحبها فخدعته ، أخلص لها فخانته ، جعلها ملكة فجعلته أضحوكة ، وقد كتب قصيدة «لا تكذبي إني رأيتكما معا» في غرفة مكتبي بشقتي في

الزمالك، وهي قصيدة حقيقية ليس فيها مبالغة أو خيال حتى إن الموسيقار عبدالوهاب سماها «إني ضبطكما معا»!!

وكان كامل ينظمها وهو يبكي، كانت دموعه تختلط بالكلمات فتطمسها، وكان يتأوه كرجل ينزف منه الدم الغزير وهو ينظم، و بعد أن انتهى من نظمها قال إنه يريد أن يقرأ القصيدة على المطربة بالتليفون.

وكان تليفوني بسماعتين، أمسك هو سماعة وأمسكت أنا وأحمد رجب سماعة في غرفة أخرى، وتصورنا أن المطربة ما تكاد تسمع القصيدة حتى تشهق وتبكي وتنتحب و يغمى عليها وتستغفر وتعلن توبتها.. وكان في رأي أحمد رجب ورأيي أن هذا منظر تاريخي يجب أن نحضره.

و بدأ كامل يلقى القصيدة بصوت منتحب خافت، تتخلله الزفرات والعبرات والتنهدات والآهات مما كان يقطع القلوب، وكان المطربة صامتة لا تقول شيئاً ولا تعلق ولا تقاطع ولا تعترض، و بعد أن انتهى كامل من إلقاء القصيدة قالت المطربة:

ــ كويسة قوى.. تنفع أغنيها.. لازم أغنيها!

وانتهت المحادثة التاريخية ورأينا كامل الشناوي أمامنا جثة بلا حراك!

وكتب إليها يلعنها و يقول: «لم يعد بيننا ما يغري بأن أخدعك أو تخدعيني، فقد خرجت من حياة نفسى! لا تدهشى.. فالحياة التي أحياها اليوم لا يربطني بها إلا ما يربط الناس بحياتهم من أمل و يأس، أو راحة وعذاب.. إنها حياة لا اتحرك فيها، ولكن أتمدد كجثة.. وهي لا تضمني بين أحضانها ولكن تلفني كالكفن! في استطاعتي الآن فقط أن أصارحك بحقيقة قصتي معك، لقد خدعتني وخدعتك، خدعتني بكذبك الذكي، وخدعتك بصدقي الغبي.. ظللت سنوات أتوهم أنك تحبينني، فجريت وراءك بقلبي الأبله ومشاعري الحمقاء.. وخلال تلك السنين كنت أنتزع من نفسي خلجاتها وأقدمها لك في آهة، دمعة، كلمة، قصيدة..وقد دفعك إيمانك بصدق عاطفتي إلى أن تمارسي حقوق حواء بقدرة وجدراة.. فغدرت بوفائي وضحكت من دموعي».

وسمع كامل الشناوي أن حبيبته المطربة الكبيرة عندما علمت بعذابه قالت

لاصدقائها :

ــ مسكين كامل الشناوي .. لقد دمرته الغيرة .

وكتب كامل يقول لها «صدقيني إذا قلت لك ، انني لست مسكينا ، ربما كنت كذلك لو انني استسلمت للوهم الذي علقني بك ، ولكنني قاومته ورفضت ، وجعلت من كبريائي حصنا يحميني منك ، ومن قلبي ! ولا شيء يقوى أن يدمرني لأنني أحيا ، وما دمت أحيا ، فإن العواصف التي تهب من حولي لا تزيدني إلا قوة على مواجهة الأعاصير، إنني لست كثيباً من الرمل ، تبدده حفنة من الهواء ، ولكنني جبل لا أبالي العاصفة ، بل أحتفي بها ، وبدلاً من أن تزمجر في الفضاء أجعلها تغني من خلال صخوري ! وليس صحيحا اني أغار من أي إنسان تعرفينه ، فالغيرة لا تكون إلا ممن تحبينهم ، وقد عرفت بالتجربة أنك لم تحبي إلا ذاتا واحدة ، لا أستطيع أن أغار منها لأنها مختبئة في ثيابك ! إنك تحبين نفسك ، وتغارين ممن يشاركونك حبها ، بل إنك تناصبينهم العداء ، ومن أجل ذلك عاملتني كما لو كنت عدوك الطبيعي .. أحببتك فكرهتني ، قدمت إليك قلبي ، فطعنته بخنجر مسموم» !

ومضت المطربة تثير كامل الشناوي بأنها تعشق فلانا الطبيب ، وتحب علاناً المحامي ، وتخرج مع ترتان المهندس !

وكتب كامل يقول لها «ليتك تعلمين أنك لا تهزينني بتصرفاتك الحمقاء ، فلم يعد يربطني بك إلا ماض لا تستطيع قوة أن تعيده إلينا أو تعيدنا إليه .. كنت أتعذب في حبك بكبرياء ، وقد ذهب الحب ، وبقيت لي كبريائي ، كنت قاسية في فتنتك ، ونضارتك وجاذبيتك ، فأصبحت قاسية فقط » .

وكان كامل يحاول بأي طريقة أن يعود إليها ، يمدحها ويشتمها ، يركع أمامها ويدوسها بقدميه ، يعبدها ويلعنها ، وكانت تجد متعة أن تعبث به ، يوماً تبتسم ويوماً تعبس ، ساعة تقبل عليه وساعة تهرب منه ، تطلبه في التليفون في الصباح ثم تنكر نفسها منه في المساء ، وكان يقول إنه لايفهمها ، وهي امرأة غامضة لا أعرف هل هي تحبني أم تكرهني ، هل تريد أن تحييني أم تقتلني ؟

وكتب عنها يقول «أنا لا أفزع إلا من شيئين ، آلام مرض لا أعرفه ، وغموض

امرأة أعرفها .. وقد أتحمل آلام المرض ، بأمل أو يأس ، أما غموض المرأة فلا يجدي معها أملي فيها أويأسي منها .. إن غموض الرجل يثيرفيه ريبة أصدقائه فيبتعدون عنه . والمرأة الغامضة تثير الريبة فيمن يحبها ، إن كل خلجاته ، ونبضاته تظل تسأل في حيرة عن سر هذا الغموض ، إذا أبدت الرضى ظن أنها تخدعه ، وإذا غضبت منه اعتقد أنها تكرهه .. وإذا كانت وحدها سعى إليها فيحس وحده أنه فضولي متطفل ، ضيف غير مدعو! وإذا أقبلت عليه فكر فيما ينطوي عليه إقبالها من نيات ماكرة» .

واستمرت لعنة الحب الفاشل تطارده وتعذبه ، وكان يعتقد ان الهجر قتله وأنه لم يبق إلا موعد تشييع الجنازة! وكان يجلس يكتب كل يوم عن عذابه وكان يخيل إليّ أنه كان يكتب كل يوم نعيه .

وفوجئت به يتردد على المقابر، ولم تكن هذه عادته ، وسألته ماذا حدث فابتسم ابتسامة حزينة وقال : أريد أن أتعود على الجو الذي سأبقى فيه إلى الأ بد .

وقد كتب يصف رحلته إلى المقبرة يقول : «ما أعجب هذه الصحراء ، كل شيء فيها يشبه الآخر، الناس متشابهون في حركاتهم والانقباض البادي في مسحات وجوههم ، القبور متشابهة ، كلها أحجار وطوب وزهور، وماء يبل الثرى ، كلها يضم عظاما نخرة .. هنا ، تحت المقابر تساوت الأعمار، والقيم ، الشاب والشيخ ، والذكي والغبي ، من كان له مثل أعلى في الحياة ، ومن غادر الحياة ولم يكن له فيها مثل أو هدف ! و وصلت إلى المقبرة التي تعودت أن أزورها في أكثر من مناسبة ، ففيها يرقد أحبابي الذين تركوا حياتي وذهبوا إلى حيث سنذهب مثلهم .. حاولت أن أبكيهم فتعثرت الدموع في محاجري .. حاولت أن أرثيهم فلم تنطق مني إلا كلمات خرساء ، و وقفت في خشوع ، ثم جثوت فوق التراب الذي ضمهم بالأمس وسيضمني غداً ، وحنيت رأسي اجلالا للموت الذي احتواهم بين ذراعيه .. بهاتين الذراعين سيحتو يني يوما ! أيها الموت : أنا لا أخافك .. ولكني لا أفهمك .. فمن تكون؟ هل أنت تنزف دماءنا وأعمارنا لتروى ظمأك؟ أم لتروي ظمأ الحياة؟ ما أنت ياموت .. وما الحياة؟ ياأسفي على أني أعيش حياتي ولا أعرفها ،والقى الموت دون أن أعرفه !

أيتها الصحراء ، يامدينة القبور والموتى! إذا جئت إليك محمولاً في نعش

فاستقبليني بروحك الوديعة التي شعرت بها اليوم، عندما جئتك محمولاً في سيارة.

* * *

ومات كامل الشناوي.. ومضت السنون وقابلت المطربة التي كان يعشقها وقلت لها: إنني كرهتها طول حياتي منذ قصيدة «لا تكذبي إني رأيتكما معاً» !

قالت: إنني لم أحبه، هو الذي كان يحبني.. إنني كنت أحبه كصديق فقط.

وطلب مني أن يتزوجني فرفضت لأننا نختلف في كل شيء أنا رقيقة وهو ضخم، أنا صغيرة وهو عجوز، أنا أجد متعة في أن أجلس مع الناس، ومتعته أن يجلس معي وحدي، أنا لا أريد أن يعرف الناس من أحب، وهو يريد أن تعرف الدنيا كلها أنه يحبني!

قلت لها: إن أصدقاءه يعتقدون أنك قتلتيه!

قالت: لا..إنه هو الذي انتحر!

سألتها: تقصدين أنه انتحر حبا؟

قالت: بل انتحر غيرة!

ولم أصدقها طبعا..



عبدالوهاب يعترف

قدم الفنان محمود مراد مذكرة إلى وزير المعارف الدكتور أحمد ماهر يقترح فيها ادخال علم الموسيقى والغناء في جميع المدارس، وعرض وزير المعارف الأمر على رئيس الوزراء سعد زغلول الذي وافق على الاقتراح، وأصر أحمد ماهر بإدخال الموسيقى والغناء إلى المدارس الثانوية والابتدائية، وكان هذا آخر قرار وقع عليه، وفي نفس اليوم استقالت الوزارة وقبض الانجليز على أحمد ماهر ووضعوه في السجن بتهمة التحريض على قتل السردار وحاكم السودان.

وأصبح علي ماهر شقيق أحمد ماهر وزيراً للمعارف فأمر بالاستمرار في تنفيذ قرار أحمد ماهر.

وأعلن ناظر مدرسة الأوقاف ـ الخديوي اسماعيل الآن ـ أن الموسيقار محمد عبدالوهاب عين أستاذاً لنا يعلمنا الموسيقى والغناء و يدعونا للانضمام إلى فرقة المدرسة، وأسرعت بالانضمام!

وجاء عبدالوهاب يلقي علينا دروسا في الموسيقى والغناء وكان شاباً صغيراً أنيقاً... وحضرنا ثلاث حصص للأستاذ الجديد، وفي الحصة الرابعة أراد أن يمتحن أصواتنا في الغناء.

وسمع عدة طلبة، ثم طلب مني أن أغني، وكانت مفاجأة مزعجة لي ولعبدالوهاب معاً، وأذكر أنني غنيت أغنية «وحوي يا وحوي اياحا البنت الحلوه الفلاحه»!

ولم يحضر عبدالوهاب إلى مدرسة الأوقاف بعد هذه الحصة، ولا أعرف إذا كان هذا بسبب صوتي المزعج، أم لانشغاله بأعمال أخرى.

وكان في الوقت نفسه يدرس الموسيقى والغناء لمدرسة خليل أغا الابتدائية وكان احسان عبدالقدوس تلميذاً بها.

وعرفت عبدالوهاب بعد ذلك، وأنا محرر في مجلة روز اليوسف، وكان كثير التردد على بيت السيدة روز اليوسف والأستاذ محمد التابعي، وكانت مجلة روز اليوسف شديدة الحماس لعبدالوهاب الذي كان يغني مجانا في كل سهرة تقيمها المجلة، وكان في ذلك الوقت في مصر حزبان، حزب عبدالوهاب وحزب أم كلثوم، وكانت أغلبية حزب عبدالوهاب من النساء، وأغلبية حزب أم كلثوم من الرجال، وكانت مجلة روز اليوسف تهاجم أم كلثوم انتصاراً لعبدالوهاب، وكنت المحرر الوحيد في المجلة من أنصار أم كلثوم... وكان باقي المحررين ضد أم كلثوم على طول الخط.

ورأيت عبدالوهاب وهو يصعد درجات سلم المجد درجة بعد درجة، وقال لي عبدالوهاب يوماً:

ولدت وفي داخلي بذرة الثورة، وليس هذا غريباً، لأنني حضرت في طفولتي ثورة ١٩١٩، وكنت من أشد أنصار سعد زغلول، وأذكر وأنا ولد صغير كنت أغني بين الفصول في فرقة الأستاذ عبدالرحمن رشدي، وكانت تمثل رواية «البدوية» من تأليف الأستاذ ابراهيم رمزي، وكانت ملابس الرواية عربية، العباءة والعقال، وحدث أن اعتقل الانجليز سعد زغلول فخرجنا في مظاهرة في الشوارع ونحن بالملابس العربية، نهتف بحياة سعد وسقوط الانجليز، وهاجمنا العساكر الانجليز وضربونا، واعتقلوني، ثم أطلقوا سراحي لأنني ولد صغير.

في هذا الجو المشحون بالحماس والوطنية أرسل الله لي جواً جديداً ومناخاً جديداً لم أعرفه، في شخص أمير الشعراء أحمد شوقي بك، رأيت دنيا جديدة، وعالما آخر غير الذي أعرفه، باشوات وبكوات وأدباء وصحفيون وفنانون وشعراء، واستفدت من هذا الجو كأنني دخلت عدة مدارس وجامعات في وقت واحد، وصحبني شوقي إلى باريس، وهو أمر لم يكن يحلم به أي مطرب، فتحت عيني على جو مختلف ــ عالم من الفن والموسيقى والأوبرا والغناء، مسارح كالقصور فنانون كالأمراء والسلاطين.

وكنت قبل ذلك أغني بين الفصول بعض أغاني عبده الحامولي وأغاني خفيفة، وكان عمري بين ١١ و١٢ سنة، وكانوا يلبسونني بدلة «سموكن» ويضعون فوق رأسي الطربوش ويطبقون أصابعي على منشة، ويلبسونني ياقة منشاة وكرافتة حتى أبدو كبيراً وطويلاً، وكنت أغني «عذبيني في مهجتي... فمهجتي في يديك..

وأمريني فالقلب طوع لديك » وأغنية أخرى « سمحت بارسال دموعي محاجري » !

وكانت كل هذه أغاني الشيخ سلامة حجازي ... وكانت هذه الأغاني في تلك الأ يام لا تلائم جو الثورة الذي يسود البلاد ، و بدأت أغني أغاني الناس التعبانين الشقيانين المكدودين المسحوقين ، ولكن الفرقة لم تنجح فأغلقت أبوابها وجلست في البيت ، وكنت أعيش في عاصفة مستمرة في بيتنا ، أنا أريد أن أغني ، وأبي شيخ ، وأخي حسن في الأ زهر يدرس للحصول على العالمية ، وكل أقار بنا من رجال الدين ، وحدث صراع بيني و بين أبي ، و وقفت أمي بجواري تحميني من أبي ومن غضبه ، ولذلك فأنا أحب أمي حبا خطيراً ، لولاها لما استطعت الاستمرار في الغناء ولأصبحت شيخاً في الأ زهر.

وعندما قامت الثورة بدأت أندمج فيها وأغني أغانيها ! حدث مرة أن أصدر القائد البريطاني أمراً عسكريا بسجن وجلد كل من ينطق باسم سعد زغلول وإذا بالشيخ سيد درو يش يضع لحن «يابلح زغلول ، ياحليوة يابلح . عليك ننادي في كل وادي يابلح زغلول » .

وانتشرت الأغنية في مصر كلها وأصبحت على كل فم ، الناس تغنيها في الشوارع والبيوت في المدن والحقول .. وهكذا كنا نحارب الانجليز بالغناء . واسقط في يد الانجليز فلم يستطيعوا أن يمنعوا الشعب أن يغني .

وسألت مرة عبدالوهاب عن علاقته بالفنان سيد درو يش فقال : لم يكن الشيخ سيد درو يش مشهوراً بأنه مطرب وإنما كان ملحنا ، وألف فرقة مع عزيز عيد وأفلست ، ومثل رواية شهر زاد فأفلست ، واتفق مع منيرة المهدية وألفا فرقة أفلست أيضا ، واقترح عليه بعض أصدقائه أن يمتنع عن الغناء ويجيء بولد صغير يغني بدلاً منه .. وجاءوا بي له ، و وقف هو يقود الأ وركسترا ، ولم أكن أفهم وقتئذ ماذا تعني العصا التي في يد قائد الأ وركسترا ، وفشلنا فشلاً رائعاً وأغلقت الفرقة أبوابها .

سألت عبدالوهاب : في تلك الأ يام كم كان أجرك في الليلة ؟

قال عبدالوهاب : في تلك الأ يام كانوا يقسمون الأجر بنسبة في المائة من الإيراد ، وقد قبضت سبعة قروش أجراً عن الثلا ثة أو الأ ربعة أيام التي غنيت فيها شر بنا بها

قصب!

ثم اتصلت بعدد من الشبان الذين يقيمون في حي الحلمية مثل محمد صلاح الدين الذي أصبح وزيراً للخارجية وعبدالخالق صابر الذي أصبح وكيلاً لوزارة الحربية وحسن النحاس الذي أصبح سكرتيرا عاما لمجلس الوزراء، وابراهيم عبدالهادي الذي أصبح رئيسا للوزراء واحمد حسام الدين الذي أصبح سكرتيراً للجامعة، وكان هناك طالب في مدرسة الهندسة اسمه عبدالمجيد بدر وكان يقلد صوت سعد زغلول وهو يخطب تقليداً عظيماً، وقد أصبح فيما بعد وزيراً للمالية، كانوا كلهم من المتعلمين في مصر والخارج، وسألوني لماذا لا تتعلم الموسيقى على أصولها؟ ودلوني على نادي الموسيقى الشرقي، وكان النادي ناديا ارستقراطياً يرأسه مصطفى بك رضا ابن مصطفى باشا رضا المتزوج من أخت حرم سعيد باشا ذو الفقار كبير الأمناء واحمد ذو الفقار باشا وزير العدل، و(حماه) عباس الدرملي باشا، وكل أعضائه أبناء باشوات وأغنياء والطبقية الارستقراطية، ولم أتردد في دخول هذا النادي الارستقراطي، وبدأت أتعلم على أيدي أساتذته، ثم لاحظت أنهم يعيشون في جو من الموسيقى الشرقية القديمة، وتعلمت البشارف والسماعيات تعلمت «في البعد ياما...» وتعلمت أغنية «كادني الهوى» وأصبح أساتذتي في معهد الموسيقى يقولون عني «ياسلام! الولد يغني بالضبط مثل عبده الحامولي!» لم يعجبني هذا الكلام، أنا لا أريد أن أكون عبده الحامولي الثاني، أنا أريد أن أكون عبدالوهاب الأول، لا أطيق أن أؤدي نفس التأدية الموسيقية القديمة أردت أن أتحرر منها، أردت أن أتخلص من الأنغام التي كلها زركشة ودانتيل وارامكس، وهي التي اشتهر بها رجال الموسيقى الشرقيين القدامى أمثال عبده الحامولي، فضّلت أن أغني الأغنية بطبيعتي بإحساسي بوجداني، ولكن إذا جلست مع مصطفى رضا بك وعباس الدرملي باشا خفت منهما واضطررت مرغما أن أغني القديم الذي يطربهم، وأخفي الجديد الذي يملأ روحي، وانتهز أن أدعى إلى عشاء أو سهرة، لايكون فيها أساتذة معهد الموسيقى فانطلق أغني على سجيتي، أذكر أن الأديب الكبير مصطفى لطفي المنفلوطي أقام فرحاً لابنته، ودعاني للغناء فيه، وتلفت حولي فلم أجد أحداً من أساتذة المدرسة القديمة في الموسيقى، وانتهزت الفرصة ورحت أغني موسيقاي، وأطربت وأبدعت، وشعرت أن ألحاني الجديدة دخلت قلوب الناس وهزتهم، ولكنني لم أكن أجرؤ إذا ذهبت إلى

نادي الموسيقى الشرقي أن أغني أمام أساتذتي على طريقتي، كانت طريقتهم غير واضحة، لم يكن فيها تأدية العصر، بل تأدية متعبة مرهقة كان يقول اللحن سعادتلو حضرتلو عزتلو أفندم بدلاً من أن يقول: أنت..! كانت الخطوط الأساسية للحن غير واضحة، لأنها تضيع في الزركشة والدندشة والزخرفة والحشو الذي لا علاقة له بالمعنى، وحدث مرة أن ضبطني أساتذة المعهد في أحد المسارح وأنا أغني بطريقتي لا بطريقتهم، واستدعوني وقرروا محاكمتي! كيف تغني الغناء الذي لم نعلمه لك؟ كيف تجرؤ على مخالفة الأصول والتقاليد! قلت انني ألحن معنى الكلمة لا ألفاظها؟ أغني روحها لا حروفها، ولقد كان الطرب في أيامها متعة لا فناً! يغني المطرب بينما الحاضرون يأكلون و يشربون و يسكرون و يتحدثون، وكنت أثور في داخلي على هذا الوضع، لم يعلمني أحد أن هذا القديم ليس فنا، بل إحساسي الداخلي هو الذي جعلني اختار هذا الطريق الجديد، وأنا تأثرت بالأنغام الأجنبية التي كنت أسمعها، ولم أتأثر بألحان سيد درويش، وإنما تأثرت برواياته.

أول لحن في حياتي

وسألت عبدالوهاب مرة: هل تذكر أول لحن لحنته؟!

وضحك عبدالوهاب وقال: قد تستغرب أن أول لحن لي كان كلاماً سخيفا بايخاً لا معنى له. لم يهتم أحد بأن يعطيني قصيدة ألحنها أو أغنية أضع موسيقاها، وحدث أن كنت أقرأ في جريدة، وكان شيء في داخلي يريد أن يخرج كموسيقى، وقرأت خبراً عن نقل حضرة الفاضل الصاغ المأمور علي المفتي إلى مدينة زفتى! ووجدت نفسي ألحن هذا الخبر، وأحوله إلى موسيقى وأنغام، وأردده وأغنيه!

ولكن أول أغنية حقيقية لحنتها من نظم أحمد شوقي بك أمير الشعراء، كان ذلك في فرح ابنة علي شوقي، ودعا شوقي بك زعيم الأمة سعد زغلول لحضور الفرح، واعتذر سعد أن صحته لا تسمح له بالسهر، فتقرر أن يبدأ الفرح الساعة الخامسة مساء.

وعندما سمعت بهذا النبأ جن جنوني! كنت أعشق من طفولتي هذا الرجل، ألف على الصواوين التي يخطب فيها، واندس بين المتفرجين واسمعه وهو يخطب، كنت أقف على سور الأندية لاشاهده من بعيد، هذه هي فرصتي لأراه عن قرب،

لأشمه، وفي تلك المناسبة كتب شوقي أغنية زفة العروسة وهي تقول «دار البشاير مجلسنا، وليل زفافك مؤنسنا، إن شا الله تفرح ياعريسنا، إن شا الله دايما تفرحنا». وغنيت الأغنية أمام سعد، وأبدى أعجابه بها، ورأيت وأنا أغني أصابعه وهي تدق على حافة الكرسي، وشجعني أعجاب سعد على أن أمضي في التلحين، وغنيت أغاني بسيطة مثل «فيك عشرة كوتشينة» و بعض أغاني تهجيص، ولم يكن شوقي وقتها مستعداً أن ينظم لي قصائد أو أغاني.

قلت لعبدالوهاب: أعرف أنك وأنت ولد صغير كنت تغني أغاني الحب؟ مثلاً نظم لك شوقي في بداية حياتك أغنية تقول «شبكت قلبي ياعيني، شوفي بقى مين يحله؟» إلى أن يقول «توحشني وأنت و يايا، واشتاق لك وعنيك في عينيه، واتذلل والحق معايا، واعاتبك ما تهونش عليّ؟» كيف تلحن هذه المعاني التي تنبض حبا وعشقا وهوى وغراماً دون أن تحب وتعشق وتهوى وتغرم؟

قال عبدالوهاب: أول مرة خفق قلبي للحب كان عمري تسع سنوات! كان حباً خطيراً من أخطر ألوان الحب التي هزت حياتي، كانت سيدة عمرها ٢٥ سنة! أكبر مني بتسعة عشر عاماً، كانت تسكن بجوارنا في حي الشعراني، وكان زوجها كاتب وقف المسجد، كانت اسمها خديجة، سيدة رائعة الجمال، طو يلة، سمراء، عيناها واسعتان، لا أزال أذكر أسنانها البيضاء، ابتسامتها الحلوة المنورة، عندما تضحك كنت أرى نوراً ينبعث من شفتيها من شدة بياض أسنانها وجمالها، وكانت تحب صوتي، وكانت تطلب مني أن أغني لها «عذبيني فمهجتي في يديك» فكانت تحتضني وتنظر إلى عيني نظرة ساحرة، فأذوب بين يديها وأحس بمتعة وهناء غريبين وإذا بزوجها يغار مني و يطردني ويمنعني من دخول البيت و يضر بني، ولم يكتف الزوج بذلك فأبلغ أخي الشيخ حسن فانهال عليّ ضر باً، ولكن هذا الضرب لم يشفني من الحب! بقيت أحبها ولا ألقاها، وأغني لها ولا ألقاها إلى أن التقيت بزينب! كنت ألتقي بأصدقائي في منزل واحد منهم بالحلمية، كان يسكن بيتا فخماً، وكنت أغني لهم، وسمعتني زينب فاعجبت بي، ورأيتها فهمت بها غراماً، والتقيت بها في حوش البيت واعطتني منديلاً، و بقى المنديل معي ١٥ سنة، أشمه فأجد في عطره رائحة حب حقيقي، لحنت عدة أغاني حب والمنديل في يدي، كان المنديل يوحي لي بالنغم، كنت أرى فيه صورتها، أشم فيه رائحتها ورائحة الحب،

سافر أخو زينب في بعثة في لندن فانقطعت زيارتي لبيت حبيبتي، ومرت سنوات ورأيتها في قطار الإسكندرية في سنة ١٩٢٨ وكنت أصبحت عبدالوهاب المشهور الذي غنى «ياجارة الوادي» و«مريت على بيت الحبايب» وأحسست بشعور غريب، أحسست بذكرى حزينة مؤلمة ولكنها لذيذة، عجيب أن تجتمع اللذة بالألم، أحسست بمتعة وبلذة الذكرى، وبألم الفراق في وقت واحد، سألتها: أزيك يازينب؟ وعملتي أيه؟ وجدتها ست بيت، متزوجة، سيدة سمينة، معها طفل، هذا المنظر قضى على إحساسي الأول، رأيت شيئاً آخر، وليست هذه هي زينب التي عشت أحبها وأحلم بها وألحن على صورتها، تجاهلت صورتها الأخيرة، وبقيت في خيالي صورتها الأولى، زينب فتاة الحلمية! صاحبة المنديل!

مطرب الملوك والأمراء

في تلك الأيام حدث شيء خطير في حياتي! كنت أغني في حفلات الطبقة العالية، يوماً في قصر الأمير يوسف كمال، يوماً في بيت عبدالخالق ثروت باشا رئيس الوزراء، يوماً في بيت اسماعيل صدقي باشا، يوماً عند شوقي بك أمير الشعراء، حتى أصبح اسمي «مطرب الملوك والأمراء»!

وذات يوم عرضت عليّ السيدة منيرة المهدية أن أمثل أمامها دور انطونيو في مسرحية «كليو بترا»، ووقفت على المسرح لأول مرة، وكان حدثاً خطيراً في حياتي، أصبحت أتصل بطبقات جديدة، فتح الشعب قلبه لي وسمعني، قبل ذلك كنت مطرب صالونات.

ونقلتني منيرة نقلة هائلة أصبحت مطرب الشعب، أقيم حفلات أغني فيها «ياجارة الوادي» و«بلبل حيران» و«كلنا نحب القمر» و«خايف أقول اللي في قلبي»، منيرة المهدية هي التي دفعتني أن أخوض الألحان من أوسع الأبواب، فقد اعطتني رواية «كليو بترا» التي لحن سيد درويش ثلثي المسرحية، ولحنت الثلث الثالث، كان شيئاً خطيراً في حياتي أن أضع اسمي بجوار اسم سيد درويش.

سطع نجم عبدالوهاب في مسرحية «كليوبترا» ولم تحتمل منيرة المهدية انطلاق عبدالوهاب على المسرح، واحتملت في أول الأمر هذا النجاح الهائل الذي يطفىء

شمسها ، لأنه كان يدر عليها أموالاً طائلة من دخل المسرحية ، وابتدأ أصدقاء منيرة يلتفون حولها و يقولون لها : عبدالوهاب سيطغى على اسمك ، سيضيع مجدك ، و بدأت منيرة تتأثر من الدوي في أذنها ، وذات مساء في آخر فصول الرواية يقول عبدالوهاب : كان المفروض أن أدخل أنا المسرح جريحاً كأنطوان ، وأقول كلاماً حماسيا كالكلام الذي كان يقوله يوسف وهبي في رواياته عن الحب والحرب والغرام والقتال ثم انتحر وأنام على كنبة ، فتجيء منيرة المهدية « كليو بترا » بثعبان يلدغها وتموت راقدة بجواري ، ولكن منيرة تعمدت ألا تقع بجانبي ، وانما وقعت فوقي ، كان وزنها ٩٠ كيلو، ووزني ٤٥ كيلوفقط ، وكتمت أنفاسي بجسمها الضخم ، وكان المفروض أن يقفل الستار ثم نقف نحيي الجماهير، وأسدل الستار ورفع الستار، ولكني لم أقف فقد كان مغمياً عليّ، وجاء الطبيب واسعفني حتى أفقت ووقفت على قدميَّ، وخرجت من المسرح ولم أعد بعد ذلك!

وجاءت منيرة المهدية بالمطربة فتحية أحمد وأسندت لها « مارك انطوان » وفشلت ، ثم جاءت بصالح عبدالحي يمثل انطوان ولم ينجح ، وقررت أن أشق طريقي بين الجماهير، وكانت أم كلثوم تأخذ من مسرح رمسيس يوم الخميس « ماتينيه » لتقيم حفلتها ، فأخذت أنا من رمسيس يوم الأحد « ماتينيه » لأقيم حفلاتي ، وأصبحت صديقاً ليوسف وهبي .

وقبل أن أشتهر وأتعرف بيوسف وهبي كنت شاباً في الثالثة والعشرين من عمري ، وكنت أتردد على قهوة اسمها قهوة الفن أمام مسرح رمسيس حيث تمثل فرقة يوسف وهبي ، وكان يجلس في هذه القهوة كبار النقاد مثل محمد التابعي رئيس تحرير روز اليوسف ومحمد محمد رئيس تحرير المجلة الجديدة ، وابراهيم المصري صاحب مجلة التياترو ومحمد علي حماد رئيس تحرير مجلة الرغائب واحمد حسني المحرر في روز اليوسف ، وكان يجلس معهم كبار الممثلين والممثلات ، وكنت أنظر إلى يوسف وهبي كعملاق ضخم كبير، إنه الذي جعل الناس تحترم فن التمثيل ، وتحترم مواعيد رفع الستارة ، كان يفتح الستارة الساعة التاسعة ، فإذا جاء متفرج تسعة ودقيقة واحدة لا يدخل المسرح ، و يبقى في الخارج حتى يجيء الفصل الثاني ! كان يمنع التصفيق أثناء التمثيل ! كان يمنع دخول الطعام والمشروبات إلى المسرح ، جعل الناس ينظرون إلى المسرح بإجلال ، يرون انه شيء خطير، أليس يوسف وهبي بك ابن باشا ؟ أمر لم يكن

يتصوره أحد في تلك الأيام، هذا المنظر والجلال والأبهة والعظمة هزتني، ذهبت إلى باب مسرح رمسيس وراء قهوة الفن، جلست على الرصيف في انتظار سيارة يوسف بك وهبي، وما أن قدمت السيارة حتى اندفعت إليها لأصافح الفنان العملاق، وإذا بيوسف وهبي يدفعني بيده و يصفعني على وجهي. تراجعت إلى الوراء.. وتجمهر الناس يسألون ماذا حدث؟ قلت: جريت أسلم عليه راح لعن أبو يا وضربني قلم! قالوا لي: ضربك قلم لأنك تنادي عليه وأنت لا تعرفه! قلت: أنا كنت أقول له اعطيني أيدك أبوسها يابيه.. راح ضربني وقال لي: يلّه ياكلب يابتاع الكلب! امشي ياكلب! ومشيت حزينا يائساً.. ومرت السنوات وأصبحت نجماً مشهوراً أستاجر مسرح رمسيس لأغني فيه حفلات غنائية وأدفع ليوسف وهبي مبالغ طائلة!

وذات يوم ذكرت يوسف وهبي أنه ضربني قلماً!

وكاد يغمى عليه.. واعتذر وهو يقول: والله يومها لم أكن أتصور أن واحداً من الشارع سيكون نجماً عظيماً!

ولم أفكر أن أرد له القلم، فقد زادتني هذه الصفعة حباً له.. وعذرت النجم المشهور عندما يضيق والجماهير تلتف به تكاد تخنقه!

لقد كنت واحدا من هؤلاء الجماهير!
وانقطع الشريط الأول.
وسكت عبدالوهاب.
و بدأ يضع الشريط الثاني في الكاسيت!

هددت بالقتل من أجل ليلى مراد

قال لي الموسيقار عبدالوهاب: أول مرة عرفتك من ٥٦ سنة! كنت أنت تلميذاً في مدرسة الأوقاف الملكية التي يسمونها الخديوي إسماعيل الآن، وكنت أنا أدرس لكم الموسيقى والغناء، ولا أذكر إذا كنت طردتك من الفصل لمشاغبتك ومحاولتك تبو يظ الفصل.. ثم بعد ذلك انقطعت عن التدريس بعد أربعة دروس!.. و بعد ذلك عرفتك في أكتوبر سنة ١٩٣٠ في بيت السيدة روز اليوسف، وكانوا يحتفلون بعيد

ميلاد مجلة روز اليوسف، وكان بين الموجودين محمد التابعي والعقاد والمازني وابراهيم رمزي ولطفي جمعه ومحمد صلاح الدين الذي أصبح وزيراً للخارجية وأحمد حسن الصحفي وسعد الكفراوي الذي كان يتولى ادارة المجلة.

قلت له: كنت أراك باستمرار في بيت التابعي وروز اليوسف، ثم انقطعت صلتك بالسيدة روز اليوسف عندما فكرت في أن تنتج فيلما وتظهر في السينما لأول مرة في حياتك، واخترت زكي طليمات زوج السيدة روز اليوسف ليخرج لك الفيلم، ثم عدلت عن ذلك واستعنت بالمخرج محمد كريم.

وغضبت روز اليوسف وقررت ألا يظهر اسمك في المجلة، وكانت هذه الأزمة بداية الخلاف في المجلة، الذي أدى إلى استقالتنا من مجلة روز اليوسف وإصدارنا مجلة آخر ساعة.

وكنت ألقاك كثيراً في بيت الأستاذ محمد التابعي وحضرتك وأنت تلحن أغنية «النيل نجاشي حليوه أسمر. أرغوله في أيده بيسبح لسيده!» وفي تلك الأيام سمعنا أنك واقع في غرام فتاة من أسرة أرستقراطية كبيرة.

قال عبدالوهاب: فعلاً كان بيني و بينها قصة حب، ولكن لا أريد أن أذكر اسمها، يكفي أن نقول إنها فتاة من أسرة كبيرة، عرفتها في بيت أسرتها، كان حباً خطراً مجنونا! كنا لانتكلم وإنما نتبادل النظرات، لم أجرؤ أن ألمس يدها، لم أجرؤ أن أقول لها أحبك، لم أكن أستطيع أن أجلس إلى جوارها، أو أنفرد بها، وكانت من أسرة شوقي أمير الشعراء، وكانت مهابة شوقي وعظمته تقف بيني و بينها، وكان شوقي يحبها و يدللها، ولم أجرؤ أن أطلب يدها منه، كان شوقي بالنسبة لي ملكاً، ولم يخطر ببالي أن أتزوج ابنة الملك!

ومات شوقي، ولم أعرف بنبأ وفاته إلا في القطار الذي كان يحملني من الإسكندرية إلى القاهرة، كان ذلك في محطة بنها، ونزلت من القطار عند وصولي إلى القاهرة وذهبت مباشرة إلى بيت شوقي و وجدت الدنيا مقلوبة وسرادق المأتم ينصب، ودخلت البيت من باب المطبخ.. وما كدت أخطو بعض خطوات داخل البيت حتى رأيت الفتاة التي أحبها تبكي، وما أن رأتني حتى عانقتني وقبلتني، كانت مفاجأة أذهلتني، أن أقبل حبيبتي يوم وفاة رب نعمتي، كان موقفاً خطيراً ودقيقاً وتمالكت

نفسي عندما اجتمع أسوأ يوم في حياتي بأسعد يوم في حياتي في لحظة واحدة! وأردت أن ابتعد عنها فقالت لي: «أتركني أقبلك لأن شوقي كان يحبك!»

وانقطعت عن زيارة البيت، وتزوجت الفتاة بابن رئيس الوزراء، وإذا برئيس الوزراء يدعوني إلى الفرح لأغني فيه، وذهبت وغنيت في زفاف الفتاة التي تمنيت أن تكون زوجتي، كان قلبي يتمزق وأنا أغني لها، وكان أكثر ما يؤلمني أنني أحاول أن أتظاهر بالفرح في ليلة مصرعي، وأتظاهر بالضحك وقلبي يبكي.. و بعد سنتين قررت تمثيل فيلم «الوردة البيضاء» ووضعت فيه قصتي مع الفتاة التي أحببتها.. وفي هذا الفيلم عدة مواقف تنطبق على قصتي مع الفتاة، كانت أغنية «يالوعتي ياشقايا ياضنى حالي».. تنطبق على عذابي وتعاستي وشقائي في هذا الهوى المجنون، وكانت أغنية «ياوردة الحب الصافي» مستوحاة من أحداث حبي عندما كنت أجلس في حديقة دار هذه الأسرة، وتجيء فتاتي وتنزع وردة وتقدمها لي بغير أن تقول كلمة، وكنت أحتفظ بالوردة وأشمها وأقبلها إلى أن تجيء لي الفتاة بوردة أخرى، وكانت أغنية «ضحيت غرامي علشان هناكي» ترسم صورة صادقة لمشاعري وأنا اتنحى عن الفتاة التي أحببتها حباً يقرب من العبادة لتتزوج ابن رئيس الوزراء! وقد توهمت يومها أن ابن رئيس الوزراء يستطيع أن يسعدها أكثر مما يسعدها موسيقار شاب، وكنت مخطئاً في تقديري فإن هذا الزواج فشل بعد سنوات قليلة وتزوجت الفتاة مرة ثانية وثالثة!

وسألت عبدالوهاب: ألم تحب ممثلة من الممثلات اللاتي ظهرن معك في أفلامك؟ نجاة الكبيرة أو راقية ابراهيم أو سميرة خلوصي أو ليلى مراد أو غيرهن؟

قال عبدالوهاب: لا.. ولا واحدة! ولكن حدث أن ليلى مراد قالت لي إن الملك فاروق رآها في استراحة مصر الجديدة وقال لها: أنت تحبين عبدالوهاب! فقالت ليلى: يامولانا أنا أحب فنه!

قال فاروق: لا أنا واثق انك تحبينه.. وسوف أخلص عليه!

وأشار فاروق اشارة معناها أنه سيقتلني!

وفزعت، أصبت بالرعب، ذهبت إلى صديقي عبدالحميد عبدالحق وزير الشؤون الاجتماعية ورويت له ما قالت ليلى مراد، قال لي عبدالحميد: نهارك أسود! والله

يعملها!

قلت له: أنا في عرضك! أعمل أيه؟ قال عبدالحميد: لازم تهرب.. سافر! قلت: كيف أسافر إنه يستطيع أن يتخلص مني في ساعة! قال: «اركب سيارتي واذهب عندي في بلدي ابو قرقاص واختفي هناك.. وتأكد أن فاروق سوف ينساك!»

وركبت السيارة وامضيت في أبوقرقاص عشرين يوماً مختفياً في بيت عبدالحميد عبدالحق!

أكبر مني بعشرين سنة!

و بعد ذلك أردت أن اداري الحب القديم بحب جديد! كما يقولون «داوها بالتي كانت هي الداء» كانت سيدة تكبرني بعشرين عاما! أحبتني حباً قو ياً كان جديداً عليّ! كان يختلف عن كل حب آخر، كانت أرملة رجل واسع الثراء، وكان دخلها بين ٦٠ الف جنيه و٧٠ الف جنيه وهوما يساوي أكثرمن مليون جنيه في هذه الأ يام! وكانت سيدة عاقلة جداً، لم تبدد ثروتها، وانما نمتها وضاعفتها، وكانت تقيم في قصرعظيم، وكانت تدعوإلى قصرها الوزراء وكبار رجال الدولة، وعرفت في صالونها حسن نشأت باشا الذي كان يحكم مصرفي وقت من الأ وقات، وعرفت كل أصحاب النفوذ والسلطان في تلك الأ يام.

وقد رأيتها لأ ول مرة في حفلة ساهرة أقامتها في عوامة تملكها، ورأت إعجاب السيدات بغنائي فقالت: «والله لآخده منهم!».

واعجبت بي وأعجبت بها، بل عشقتها وأحببتها، وحرصنا ألا يعرف أحد بقصة هوانا، فقد خشيت أن يعلم أشقاء زوجها بقصة هذا الحب فينتزعون أولادها منها، وقد تكتمت هذا الحب عن أقرب الناس إليّ، أذكر أنها دعتك أنت والتابعي لتناول العشاء في قصرها، وحرصت طوال العشاء أن أعاملها أمام الضيوف أنها سيدة عظيمة وأنني مطرب مدعوللحفلة كباقي المدعو ين، مع أنني كنت صاحب البيت!

وتزوجتها في سنة ١٩٣٠ وبقيت زوجة لي ١٢ سنة، كانت من أسعد أيام حياتي، على الرغم انها كانت أكبر مني سناً بعدة سنوات، ولم تعرف هذا السر

الخطير إلا سيدة اسمها ايزابيل بيضا احدى أصحاب شركة بيضافون للأسطوانات، فقد عقدنا الزواج في بيتها في مصر الجديدة.

كانت مشهورة بجمال عينيها، لم تكن سيدة جميلة، ولكنها كانت امرأة بمعنى الكلمة كلها أنوثة وحيوية وفتنة، كانت هي المدرسة التي تعلمت فيها فن الحياة، كانت الأستاذة التي علمتني كيف أقتصد من أرباحي وأكوّن ثروة، كيف ألبس، كيف أنتقي ألوان ملابسي وأنواع الكرافتات والجوارب والأحذية، كانت خبيرة في الذوق، علمتني الحياة، كانت تسافر كل عام إلى أوربا وتأخذني معها إلى مدينة كارلسباد حيث المياه المعدنية الشهيرة، علمتني كيف أفتح صالونا في بيتي، وكيف استقبل الناس.

تعلمت من شوقي أشياء كثيرة، ولم أكن استطيع أن أنقل جو شوقي أمير الشعراء إلى بيتي، وجاءت هذه السيدة لتقنعني أنني أستحق أن أعيش كشوقي، أن أفتح بيتي، أن أعرف أعظم الناس في بلدي، وجاءت إلى بيتي ونظمت لي حياتي، فقد احتفظت ببيتي واحتفظت بقصرها، استطاعت هذه السيدة أن تجعلني أرى فيها كل شيء، أحببت فيها أمي وأختي وحبيبتي وصديقتي.

ثم جاءت سنة ١٩٤٢، وسافرت إلى رأس البر لتمضية الصيف، فقد كانت مدينة الإسكندرية مقفولة بسبب الحرب، ونزلت في عشة الاستاذ محمد التابعي، وكان التابعي يعيش كالأمراء في حياة فخمة ومآدب يومية فاخرة وسهرات إلى الصباح، وكانت العشة مليئة بالأصدقاء والكتاب والفنانين، وكنت أذهب إلى فندق اسمه «لوكاندة فؤاد» تطل على شاطىء النيل أجلس هناك.

ورأيت سيدة ملكت لبي وسيطرت على فكري، أصبحت صورتها لا تفارقني، أحببتها من النظرة الأولى، سحرتني، وقدمها ليّ أحد أقاربها وكان مديراً لشركة مصر للطيران، وعلمت أنها تزور سيدة كبيرة قريبتها اسمها عطية هانم الفلكي وهي والدة محمود صالح الفلكي الذي كان وكيلاً لوزارة المالية وسفيراً لمصر في باريس. وكانت هذه السيدة واسعة الثراء، وكانت تقيم حفلات باذخة تدعو لها كبار المصريين والمصريات، وكانت فتاتي تدعى إلى هذه الحفلات، فأصبحت أداوم

حضور هذه السهرات ولا أهرب منها، ثم علمت أنها تسكن في عمارة في شارع الأهرام، أمام شقة يسكن فيها الأستاذ اسماعيل وهبي المحامي شقيق الفنان الكبير يوسف وهبي، ووطدت علاقتي بيوسف وهبي، ثم بشقيقه اسماعيل وهبي، وأصبحت أتردد كثيراً على بيت اسماعيل وهبي لأ رى من بعيد الفتاة التي أحببتها ومن هناك تعرفت بأسرة الجيران وتوطدت الصلة، وأصبحت اعطي فتاتي دروساً في البيانو والموسيقى، وتطورت دروس البيانو والموسيقى إلى دروس في الحب، وأمضيت في هذه الدروس أحلى ساعات حياتي.

وفي أثناء هذا الحب لحنت قصيدة «الجندول» وأغنية «الكرنك» وأغنية «كليوبترا» واعتبر أغنية «الجندول» طفرة هامة في حياتي، طفرة القصيدة المعبرة، لا القصيدة المغناة، وغنيت في ذلك الوقت قصيدة «خمرة الراين» وسجلها في استوديو مصر وتركتها لأضعها في فيلم، وفي إحدى الأفلام أردت أن أبحث عن هذا اللحن الذي سجلته وكان من أحسن ألحاني، ولسوء الحظ قام حريق في ستوديو مصر وحرق اللحن ولم يترك منه أثراً، ولا أذكر حتى الآن هذا اللحن ولا الكلام! وحدث ان كنت جالساً عند مكرم عبيد باشا وقرأت الأهرام، وقرأت فيها قصيدة اسمها «الجندول» ولم أهتم أن أعرف من هو صاحبها، أعجبتني الكلمات و بدأت ألحنها، وتوهمت أن الشاعر هو الأستاذ محمود حسن اسماعيل وكان يعمل في الإذاعة، و بعد أن انتهيت من تلحين القصيدة طلبته في التليفون وقلت له: إنني قرأت لك قصيدة وأعجبتني ولحنتها، وسر الشاعر محمود حسن اسماعيل وسألني: وما هي القصيدة التي اخترتها من قصائدي؟ قلت: قصيدة «الجندول» وإذا به يقول: هذه ليست قصيدتي وخجلت من نفسي واعتذرت له ولكنه قال لي هذه قصيدة شاعر اسمه علي محمود طه وأعطاني رقم تليفونه.

ألهمني هذا الحب ألحانا كثيرة، كانت كل خفقة في قلبي نغمة، وتزوجت هذه السيدة وأصبحت أم أولادي.

ولم أطلق زوجتي الأولى.. ثم حدث أن كنت في سينما مترو بالقاهرة أشهد فيلماً، وأثناء الفيلم أقبل رجل لا أعرفه وقال لي: أنا عايزك، ودهشت وسألت عن السبب لم يقل شيئاً وإنما قال لي: تعال معي! وتبعته ودخل بي إلى مكتب مدير

السينما وأغلق الباب، وعرفت أنه من رجال البوليس، وقال لي: قد جاءنا بلاغ أن بضعة أشخاص اتفقوا على قتلك، وأنهم يتربصون بك ليقتلوك بالشوم والسكاكين على باب السينما، وطلبوا مني أن أخرج من باب خلفي حتى أنجو من القتلة، واستطاع البوليس أن يقبض على واحد منهم، فاعترف بأن زوجتي الأولى هي التي حرضتهم على اغتيالي!

وأنت تعرف أنني أحب نفسي وأنني «خواف.. قوي.. موت» فما سمعت هذه الحكاية حتى ملأني الرعب، وبكل أسف أنني ورثت هذا الخوف من شوقي أمير الشعراء، أو ربما أن الفنان جبان بطبعه، ولكن شوقي أمير الشعراء كان «خواف» جداً وكان يحرص عندما يمشي في الشارع أن يمشي أمامي وأنا أمشي خلفه، ولعله كان يتصور أنني أحرسه بهذه الطريقة، أو أنني أستطيع أن أحميه إذا جاء أحد من الخلف وأراد أن يضربه، وكان يخرج من بيته ويمشي وهو يزن كالنحلة، كان ينظم الشعر وهو يمشي، وكانت له عادة أنه عندما يصل إلى الميدان الذي اسمه ميدان التحرير الآن أن يدخل دورة المياه، ثم يستأنف سيره في شارع سليمان باشا ـ طلعت حرب الآن ـ إلى نادي محمد علي الذي يسمونه نادي التحرير.

وكان عبدالخالق ثروت باشا رئيس الوزراء يخرج من بيته في الجيزة ويمشي على كوبري قصر النيل إلى ميدان الإسماعيلية إلى نادي محمد علي.

وذات يوم مشينا ـ شوقي وأنا ـ في نفس الطريق الذي اعتدناه.. ووجدنا شابين يمشيان خلفنا.. وكان شوقي حساساً بطريقة عجيبة، فنظر خلفه ولاحظ أن شابين يسيران خلفه فأسرع في خطواته، فأسرع الشابان في خطواتهما، فجرى شوقي وجريت خلفه.. وإذا بالشابين يسبقانا، وقال شوقي لأحدهما مرعوبا: حضرتك مين؟ وسكت شوقي، وقال له الرجل: ما تخافش قول أنت مين؟ قال: أنا شوقي! والتفت الشاب إلى زميله وقال له: مش قلت لك.. لامؤاخذة! وفي اليوم التالي قرأنا في الصحف أن البوليس قبض على شابين كانا يتربصان في شارع سليمان باشا لقتل عبدالخالق ثروت باشا رئيس الوزراء، وعشت مدة مذعوراً من ميدان الإسماعيلية وشارع سليمان ونادي محمد علي!

وأعود إلى قصة الرجال الثلاثة الذين حرضتهم زوجتي الأولى على قتلي، بدأت

أشعر بالقلق و بالخوف على حياتي، إذا كان من الممكن قتلي أمام سينما مترو، فإن من الممكن قتلي أثناء ترددي على قصرها، وقررت أن أطلقها.

وذهبت زوجتي الأولى إلى السيدة ايزابيل بيضا و وسطتها لأعود إليها، وأرادت أن تغريني بالمال، وقالت لي إنها مستعدة أن تكتب لي ما أريد من أملاكها، ومستعدة أن أتولى إدارة كل أملاكها، قلت لها: إنه بعد التحريض على قتلي انفتح جرح كبير في قلبي، ويجب أن أبتعد حتى يندمل هذا الجرح.

واضطرني هذا الحادث إلى طلاقها آسفاً حزيناً، وكان حبي الجديد قد ملك عليّ كل قلبي وكل حواسي، وأصبح من المستحيل أن أجمع بين زوجتي الثانية وزوجتي الأولى، وأسدلت الستار على القصة الأولى، و بعد ذلك توفيت هذه السيدة وعرفت أن آخر كلمة نطقت بها على فراش الموت كانت محمداً!

وهو اسمي الذي كانت تناديني به.

زيجتي الأخيرة كانت غريبة، وجدت نفسي محمولاً في طائرة إلى دمشق، كنت ضد ركوب الطائرات ولم استقل طائرة في حياتي، ولكن الرئيس جمال عبدالناصر أمر أن أسافر إلى دمشق بالطائرة، واضطررت أن أنفذ الأمر.. وأمري إلى الله!

وكان عبدالناصر في دمشق، وكان مهتماً بالسوريين أكثر من اهتمامه بالمصريين، وانتهز هذه الفرصة متعهد حفلات أفاق أراد أن يستغل وجود عبدالناصر في سوريا و يقيم حفلات يدعو إليها جميع المطربين والمطربات، واعتذرت وقلت إن عندي حرارة ٣٩، وفي نفس اليوم دق جرس التليفون في بيتي وسمعت محمد احمد سكرتير الرئيس يقول لي: سيادة الرئيس! أصبت بالرعب والفزع معاً، سمعت صوت عبدالناصر يقول لي: أيه ياعبدالوهاب موش عاوز تسافر ليه؟ قلت: لا والله ياسيادة الرئيس أنا عيان! قال عبدالناصر: عندك حرارة كام؟ قلت: عندي ٣٧ درجة وخمسة شروط! قال عبدالناصر: ياراجل ده أنا بيبقى عندي ٣٩ درجة حرارة و باشتغل.. قلت له: الطائرة قامت! قال عبدالناصر: أنا أعدت الطائرة من الهواء، وقلت لهم لا تتحرك الطائرة إلا وفيها عبدالوهاب!

اضطررت أن استقل الطائرة مرغما، وتحركت الطائرة وارتعش جسمي،

وارتعدت مفاصلي وارتفعت درجة حرارتي، وكان يصحبني المطرب عبدالغني السيد الذي لم يفارقني، ونزلنا في فندق قطان، وزادت الحمى وطول الليل يدلكني عبدالغني السيد بالكولونيا، ثم سمعته يصرخ و يقول: ده فيه كلكوعة هنا، ده انت عندك خراج ياأستاذ، وارتفاع درجة الحرارة جاء من الخراج، وقالوا لابد من فتح الخراج، قلت: أسافر مصر، قالوا: لا تعمل العملية في مستشفى هنا، اتصلت بمحمود رياض أمين الجامعة العربية الذي كان يومئذ سفير مصر في دمشق، أدخلني مستشفى بعقلين في الأشرفية، مكثت يومين في المستشفى ثم انتقلت إلى فندق اسمه فندق بريستول لتمضية أيام النقاهة، و بينما أنا في المستشفى دق جرس التليفون وسمعت ناصر النشاشيبي الذي كان يومئذ محرراً في أخبار اليوم يقول لي: أنت بتعمل أيه عندك! قلت: استشفى! قال: فيه هنا ناس يحبونك و يريدون أن يكلموك، كلمتني سيدة اسمها عزيزة هانم حرم حيدر بك شكري وهي خالة نهلة القدسي، وكانت تعشق الغناء، وتواظب على حضور حفلا تي وتحب صوتي قالت عزيزة هانم: أريد أن أراك، قلت: أهلاً وسهلاً! قالت: ومعي قريبة لي، قلت: أهلا وسهلا، ودخلت عزيزة هانم التي كنت أعرفها من قبل وخلفها سيدة تضع على رأسها طرحة سوداء، كانت سيدة رائعة الجمال، ترتدي تاييرا أسود، لا أستطيع أن أنسى منظرها إلى اليوم، رأيت جمالاً رهيباً لم أر مثله في حياتي! ورأيتها تضع نظارة سوداء على عينيها، فخشيت أن تكون حولاء، فقلت لها: ما تشيلي النظارة ياهانم! فقالت نهلة: لا.. والله عيني تعبانة! قلت لنفسي لابد من الهجوم. وعرضت عليهما أن يتفرجا على الجناح الذي أقيم فيه، ودخلت معي، وانتهزت الفرصة، ونزعت النظارة من فوق عيني نهلة، وإذا بها تزغدني في صدري وتقول لي: ايه قلة الأدب دي! قلت لها: متأسف! وتطلعت إلى عينيها وكدت أجن بجمالها، تبين لي أن الذي كانت تخفيه كان أجمل شيء فيها!

قلت لها: عرفت لماذا تضعين النظارة لتخفي كل هذا الجمال! أنت رائعة الجمال، أنت شيء خطير!

وجلسنا نتكلم، واكتشفنا أن شيئاً واحداً يجمعنا، أنا متعب في حياتي العائلية وهي متعبة في حياتها العائلية، تعرفنا على تعب، التعب المشترك.. وإذا بنا نتفق على

تطبيع العلاقات كما تقول لغة السياسة الآن.

كنت أنا مستعدا لهذا الحب ووجدت عندها نفس الاستعداد، وفي أوائل أيام لقائنا قررت أن أنفصل عن زوجتي الثانية وأتزوج من نهلة، أحسست أنها أجمل شيء في حياتي، مختلفة عن كل امرأة عرفتها، وجدت فيها طعما حلوا كأنه الشهد في فمي، رأيت فيها السند الذي أريد أن أستند عليه وأنا انطلق في الحياة، معها شعرت أنني لست وحدي في الدنيا، كأنها جاءت بالدنيا كلها ووضعتها تحت أقدامي، وعدت من القاهرة إلى بيروت وقلت لها إنني طلقت زوجتي، وشعرت أنها استراحت لهذا القرار، لم تطلب مني أن أنفصل عن زوجتي، ولكني أحسست أني لم أعرف امرأة أخرى في العالم، وفي أثناء أيامنا الأولى لحنت أغنية «بفكر في اللي ناسيني» وكان كلام الأغنية يعبر عن مشاعري ونهلة بعيدة عنها، ولحنت «لا.. موش أنا اللي أبكي» وأغنية، «هو افتكرني علشان ينساني» كانت كل كلمة من هذه الأغاني تحكي قصة حبنا، تروي دقات قلوبنا، تسجل دموعنا وآهاتنا معاً، الأغاني التي تعبر عن عاطفة صادقة تعيش ولا تموت أبداً.. ووجدت أنها إنسانة على دراية تامة بالفن.

كان قلبي يخفق بالموسيقى، كلما أحببت امرأة غنيت لها وغنيت عنها، كل لحن من ألحاني هو قصة من قصص قلبي، أذكر عندما تركتني الفتاة الارستقراطية التي أحببتها وفضلت عليّ ابن رئيس وزراء مصر وجدت نفسي ألجأ إلى الشاعر الموهوب، الدكتور سعيد عبده وأقول له أريد أغنية تقول «كان عهدي عهدك في الهوى، يانعيش سوى يانموت سوى، أحلام وطارت في الهوا، تركت مريضي من غير دوا» كان هذا الكلام يترجم عذابي وشقائي وهواني، كان مجموع دموعي وآهاتي وشهقاتي، كنت إذا أردت أن أصرخ وأتأوه غنيت، وكانت الألحان تحكي جروحي.

مع شوقي قابلت لطفي السيد وطه حسين ودكتور حافظ عفيفي والنقراشي و يوسف الجندي، هؤلاء العمالقة تعلمت منهم كثيرا، كنت أجلس بينهم أسمع ولا أفتح فمي، ولا أنطق بكلمة.. كنت أشبه بالنحلة أقف فوق كل زهرة وأمتص بعض رحيقها.. إلى أن جاءت نهلة. وكانت وحدها مدرسة! هي التي فتحت بيتي للفنانين والفنانات، كنت مخاصماً أم كلثوم فُصالحتنا، وأصبحت أم كلثوم أقرب صديقة لها، جعلت بيتي بيت فنان، كل غرفة فيه تغني وتعزف وتنشد وتقول لي: آه!

و يستيقظ عبد الوهاب من النوم فيجد نهلة القدسي ، و يقول لها : صباح الخير أيها الحب !

وتقول : صباح الخير يا بيبي !

و« بيبي » .. اختصار حبيبي !





ألغاز

علامات استفهام

هي علامات استفهام جمعت بين العمالقة والأقزام، أبحث عنهم في السياسة المصرية تجدهم وإذا لم تجدهم في المجتمع المصري.. فهم في سوريا ولبنان والعراق وليبيا والمغرب والجزائر، والمملكة العربية السعودية وشرق الاردن واليمن وتونس والسودان.

إنهم هنا وهناك، إنهم أمامك ومعك، تمد أصبعك فتلمسهم ولكنك لا تراهم.

إنك ترى صورهم وأنا أكشف لك عن نفوسهم، إنهم علامات استفهام على الورق وحقائق في الحياة.

مرآة

حار الناس فيه، أهوذكي أم غبي؟ له عبقرية الأذكياء وتصرفات المجانين، أهو مظلوم أم رئيس عصابة لصوص؟ فيه براءة المجنى عليه وسمات الجناة، أهوشجاع أم جبان؟ فيه اندفاع النمور وتقهقر الفيران، أهوعالم بما يجري حوله أم كالزوج آخر من يعلم؟ فهومبصر وأعمى، وحي وميت ارتفع إلى السماء وهوى إلى الأرض، كسب كل شيء وخسر كل شيء، كلاعب قمار مجنون أراد أن يكسب المجهول فخسر المعلوم.

إنه مرآة بيضاء إذا اقترب منها الوطني ارتسمت فيها صورة الوطني الكبير، وإذا اقترب منها صاحب الأحلام انطبعت عليها صورة رجل يبحث عن مجد عريض، وإذا اقترب منها لص بدت وفيها رسم زعيم عصابة لصوص.

وهذا هوما يحير الناس، فالإطار لا يتغير، والصورة تتبدل وتتغير، تشق طريقها وتتعثر، ويحسب الناس أنه مثل الممثل القديم «لون شاني» له ألف وجه.. والواقع

أن المرآة واحدة .. والذين يطلّون فيها يتغيرون .

من هو؟ ..

تمثال

تمثال جميل في أي صالون ، عريق في قدمه كأنه من تماثيل توت عنخ آمون ، يجذبك مظهره و يعجبك منظره ، وترضيك اناقته ، وتدهشك شياكته ، وقد غلب عليه المنظر والمظهر، وطغت عليه الاناقة ، فلم تترك مكانا لغيرها .

ولكنه رجل طيب ، وتصرفاته تصرفات الناس الطيبين ، فهو لايكذب ، ولا يخدع ، ولا يشتغل في الظلام ، ولا يلعب وراء الستار، وهو لا يتلون بتلون الوزارات كما يفعل بعض الناس .

ولولا اناقته وحبه للمظاهر، لاستطاع أن يكون كاهنا في محراب السياسة .. هذا المحراب الذي تحول فجأة إلى كباريه ، ولكنه يصر على ارتداء الردنجوت ، و يأبى أن يرتدى ثياب الكهنوت .

شديد الاعتزاز بكرامته ، كثير التحدث عنها ، وقد يكون متكبرا حقيقة .. وقد يكون كما قال ديماس «احذر من المرأة التي تتحدث عن الشرف كثيرا» .

من هو؟ .

باع واشترى

كل شيء باعه بثمن ، فلا عجب إذا حاول أن يشترى كل شيء بالثمن .

الناس عنده كالأسهم والسندات ، ترتفع وتنخفض ، وتزيد وتنقص ، ولكنهم دائما في السوق .

باع نفسه لعمله فحاول أن يشتري لعمله جميع النفوس ، والساسة كالنساء ، أغلى

ثمن يدفع في المرة الاولى، وكلما زادت المرات تضاءلت القيمة، حتى تصبح كقيمة التراب.

بدأ حياته بشراء الأحذية، ثم أصحاب محال الأحذية، ثم أصحاب مصانع الأحذية، ثم بشراء الذين يشرفون على مصانع الأحذية، ثم اشترى المدينة التي فيها مصانع الأحذية.. ثم اشترى الدولة التي فيها مدينة مصانع الأحذية.

وفي سنوات ماضيات اشترى الوزراء.. وتبين أن ثمن بعضهم لايزيد على ثمن الحذاء.

هوى التجارة، فأصبح كل شيء في العالم بالنسبة إليه تجارة، السياسة تجارة، والديبلوماسية تجارة، والحياة كلها تجارة، والذنب ليس ذنبه ما دامت السوق الكبيرة.. كل كبير فيها يبدو صغيرا.

لا تلوموا من يشتري.. إنما لوموا من يبيع.

من هو؟..

هلفوت باشا

هلفوت باشا.. فيل يخفي في حقيقته برغوثا، يصرخ في الهواء و يهمس في مجالس الوزراء، يمد يده إلى الأمام فتظن أنها قبضة جوليوس، بطل العالم السابق في الملاكمة تستعد للضربة القاضية، فإذا جاءت المعركة رفع يديه، وسلم بغير نزال، وكفى الله المؤمنين شر القتال.

أعطاه الله علما فرأى ان العلم في البلد بضاعة كاسدة، ورأى الدنيا للجهلاء فتجاهل، ومضى في موكب الدهماء يهتف مع الهاتفين بدل أن يفكر مع المفكرين.

تجلس معه فيقول لك إنه لا يوافق على كذا، و يستنكر كذا، و يهاجم كذا، فإذا واجه الأقوياء كان من الموافقين.. وكان أعلى الناس في صيحة «آمين».

ذكي، ولكنه ذكاء الضعيف، قادر ولكنها قدرة «الهلفوت» رأى رأس الذئب

الطائر فرضي أن يكون في الغابة كلبا مع الكلاب.. على أن يصارح الناس برأيه فيتضاءل من هلفوت فوق كرسي، إلى «رجل» بغير كرسي.

من هو؟

الصامت البليغ

نحن أمة من الثرثارين، نتكلم كثيرا فنخطىء كثيرا، والذي يجلس بيننا صامتا نعتبره داهية وحكيما وعبقريا منقطع النظير، تماما كما نحكم في شؤون الجمال، فنحن أمة من السمر كل شقراء فيها ملكة للجمال.

وهذا الرجل عرف سرنا فسكت، حضر المجالس دون أن يفتح فمه إلا بابتسامة يفسرها كل واحد منا على ما يهوى و يعتقد، و يترجمها كل فرد منا على أنها حكمة بليغة أو آية كريمة، أو نهاية ما يصل إليه الدهاء.

وهو يظن بهذه الطريقة أنه يقلد الدهاة الذين لايتكلمون.. وقد نسى أن الداهية الصامت هو داهية قبل أن يكون صامتا.

هو مجلد ضخم مؤلف من عشرة أجزاء، كل جزء منها أنيق التجليد، بديع الاخراج مصقول الورق، ولكنه أبيض الصفحات.

هذا المجلد موضوع على الرف.. يعجب به كل الناس دون أن يقرأوه.

من هو؟!

الباش أغا

كان في القصور أغوات، وكان للأغوات باش أغوات، وكان الباش أغا صاحب صولة ودولة.. كان يدخل الأمكنة المحرمة، إذ لاخوف منه، ولا ضرر، وكان يصرخ والنساء يضحكن، وكان يسير وراء سيدته يخيف الناس والناس لايخافون من الأغا،

لأنهم يعرفون أنه أغا .

ومضت عصور أغوات القصور.. و بدأت عصور أغوات السياسة .. أولئك الذين لاخوف منهم ولا ضرر.. ولا فائدة أيضا هم «خيال المآته» في السياسة المصرية، يخيفون بهم الغربان.. ولكن تأكلهم النسور.

إنهم يزينون المجالس، و يوضعون في المآدب كأواني الزهور، ويحضرون الحفلات مع الأعلام وجنود البوليس.

وللأغوات باش أغا، له هيبة وله وقار، وله ردنجوت أنيق، وقوام أعجب، والناس يحسبون أن له صولة وجولة، والحريم يعرفن حقيقته.. و يضحكن من حقيقته.

من هو؟..

قبقاب باشا

هذا رجل كالقبقاب، فيه «طرقعة» القبقاب، وفي وجهه متانة جلده، وفيه مزاياه ومنافعه، لا غبار إذا ارتداه صاحبه في الحمام أو في دورة المياه.. يحمي قدميه من مياه قذرة، أو أوساخ متناثرة.. وهو في هذه الأمكنة في مكانه وفي زمانه، ولكن العيب إذا ارتداه صاحبه في الصالون، والعيب أكثر إذا رأيت رجلا في ملابس الردنجوت وفي قدمه قبقاب، هكذا يبدو في غير موضعه.. و يزيد محتذيه ضعة على ضعة.

من هو؟..

سلم الخدم

بعض الناس يدخل المجد من الباب العمومي، تفتح له الأ بواب على مصاريعها، و يصعد درجاتها وهو يقفز أو يتعثر.. وقد يتقدم وقد يتأخر، والعالم بعد ذلك وفي أثناء ذلك يرقب صعوده ونزوله، وارتفاعه وهبوطه.. ولكن بعض الناس يجدونه فجأة (فوق).. لا يعرفون متى وصل وكيف وصل، إنه لم يدخل من الباب في رائعة النهار، إنه لم يصعد درجات السلم المليئة بالصاعدين والنازلين، إنه لم يقدم للمجد سببا، ولم يشق و يتعب، ولم يعرق و يتعذب، ولم يشق طريق الزحام، ولكنه وصل.. وهذا هو الذي حصل، ليس له أجنحة ولكنه طار، وليس له ماض ولكن له حاضر ومستقبل.

إنه عرف سر سلم الخدم، هذا السلم الذي يصعد منه الطباخون والسفرجية والباعة الجائلون، واللصوص والشحاذون.

أرقبوا سلم الخدم فما أكثر الصاعدين منه إلى فوق!

من هو؟..

صبي الحريم

كان للحريم صبيان، يدخلون ويخرجون، يحملون الرسائل والأطباق، و يصعدون و ينزلون بين السيدات والباشوات.

وانتهى نظام الحريم، و بقى صبيان الحريم، أولئك الرجال الذين تكلفهم النساء بمهمات، وعقد صفقات، والتوصية على طلبات.. وهم عادة يؤمرون فيأتمرون، وجاءت دولة الحريم، وانتقلت المرأة من سرير البيت إلى سرير الحكم، ومن الطهي والمسح والكنس وحياكة الدمقس والحرير إلى البيع والشراء، وحفر الترع وشق المصارف والمضاربة في البورصة واللعب في السياسة من وراء ستار.. وأحيانا أمام ستار.

وارتفع شأن صبي الحريم، وأصبح له نفوذ، وله منصب وله مكانة.. وكلما هانت مكانته في البيت، كبرت مكانته خارج البيت، فبقدرما يعطي يأخذ، و بقدر ما يتضاءل يرتفع.

من هو؟

جريتا جاربو.. السياسة

قوى وسط ضعفاء.. سريع بين سلاحف لا تستطيع المسير.. يعرف كثيرا، ولكنه لا يعرف حقيقة واحدة هي أن هذا ليس وقته، وأن لكل رجل ساعة.

لو كنت مكانه لاعتزلت.. أو على الأقل انتظرت.. وقضيت وقتي أقرأ وأستوعب وأدرس فإن الدنيا تتغير، وأذواق الناس تتقدم، إنه جريتا جار بو السياسة، كانت له روعته وجماله في شبابه، ثم شاخ، وأصبحت البريمادونا الفاتنة أماً.. وجدة.. ولا تزال تطمع في أن تلعب دور الشابات الصغيرات.

ما أشبه السياسة في مصر بالسينما.. فيها الكوميديا والدراما، وفيها قصص الحب وروايات المغامرات.. وفيها ميكي ماوس أيضا. ولعل أهم تشابه بين فن السياسة وفن السينما أن كل المشتغلين بهما يمثلون، ولكن جريتا جار بو السياسة المصرية لم تعرف أن فن السينما تقدم، لم يعد الممثل الواحد يستطيع أن يكون ممثلا ومخرجا ومؤلفا وكاتب سيناريو، ولكن جريتا جار بوتصر على أن تكون كل هؤلاء.. ولهذا هي وحدها الجمهور الذي يتفرج.

عيب جريتا جار بو أنها لا تجمع حولها إلا المنافقين.. الذين يتغزلون في شبابها و يضحكون في أكمامهم، والذين يوهمونها بأن الناس ملوا السينما الناطقة ويحنون إلى أيام السينما الصامتة، وعيب جريتا جار بو أيضا أن للانسان أذنين، أما هي فلها مائة أذن.

فمن هو؟..

راقصة

باعت شبابها الفقير لتشتري الغني العجوز، مزجت ر بيعها بالخريف، ونضارتها الحية بذبول الفناء، كانت تعيش لترقص، واليوم ترقص لتعيش، ذاقت الفقر فكرهته، وكرهت ما يجيء مع الفقر من مبادىء الأخلاق.

النساء لهن قلوب، وهي لها جيوب، كيوبيد يجلس في جيبها، وسهامه أوراق البنكنوت، تبكي لصفقة ضاعت، وتضحك لمكسب جاء، الجمال عندها في المال والرجال بما يحملون.

ما تكاد ترى «زبونا» حتى تقبل عليه، هاشة باشة، تمنحه بقدر ما يعطي، وترفعه بقدر ما يدفع، ظلموها بقولهم إنها تحب، وهي لا تعرف إلا الحبيب الذي «يفتح» في صالة الهوى. وهي تحب الرجل كما تحب البقرة، تحلبه كما تحلبها، وتطعمه ليزداد لبنه، وتدفع عنه الأذى ما دامت تفيد منه الحليب.

تحسدها الراقصات على بلواها، وهن لايعلمن أنها شقية بهواها، تعسة بأن قلبها لا يرتوي، لأن القبلات لا ترو يه، وكلمات الحب لا تسعده، وإنما الشيكات وحدها هي التي تفتح هذا القلب الذي تحول فجأة إلى خزانة من حديد.

إن الشهوة عندها هي أن تجمع المال، وتزيد المال، وتضاعف المال، وكلما أكلت جاعت، وكلما كسبت ضاعفت، وهي تظن أنها حتى الآن لم تأخذ بقدر ما أعطت، فقد دفعت شبابها، ومال الدنيا كله لايكفي ثمنا ليوم من أيام الشباب.

إنها تريد أن يكون المسرح لها وحدها، وأن تكون الرقصات لها وحدها، وأن يكون الزبائن لها وحدها، إنها أشبه برجل جائع يريد أن يأكل من كل صنف في المأدبة، سريعا، سريعاً، قبل أن تنفض المائدة وترتفع الاطباق، ولهذا تصاب بمغص، فتنقطع عن الطعام لتعود فتأكل من جديد.

قوم يبكون لها، وقوم يبكون منها، وهي تبكي لأنها حتى الآن لم تستطع أن تجمع ثمن ما دفعته.. شبابها..

من هي الراقصة التي باعت شبابها؟

الخطاف

يخطف كل شيء!

يخطف زوجة الرجل، وبيت الرجل، وبنطلون الرجل.. إذا بقى للرجل بنطلون!

يخطف الغالي والرخيص، ولا يفرق بينهما، كل شيء لايملكه يريده، ويسعى إليه، ويتمناه ويجد لذة في أن يغتصبه لنفسه.

ويتساءل أهل القرية ماذا يريد أن يفعل بكل هذا؟ إنه نفسه لا يستطيع أن يجيب على هذا السؤال، إنه يجد في الحرام لذة لا يجدها في الحلال، لو أنه عاش شريفا لزاد غناه، وتضاعف ايراده، ولكنه يفضل خروفا لا حق له فيه على رولزرويس يملكها، يعشق مالا يملك، ويزهد فيما يمتلك، يسطو على الحي والميت، ويسرق القريب والبعيد، وينهب العدو والصديق.

هناك مرض اسمه جنون السرقة، والمشفقون عليه يقولون إنه مريض، وأهل القرية يقولون إنه لص كبير، وهويظن أن الناس لن يعرفوه والقرية مليئة باللصوص، ولكن الناس كلهم يعرفونه.. لأنهم جميعا ضحاياه.

من هو!

شقيق الحاكم

كان الناس قديما إذا دعوا إلى عرس أخذوا في أيديهم أولادهم! وما الحكم إلا عرس كبيريدخله الحاكم وفي يده ابنه أوزوج ابنته، أوأشقاؤه.. أوأقاربه أوهؤلاء جميعا!

وقد دخل الحاكم ومعه شقيقه، وما لبثت الدولة أن أصبحت ضيعة، الحاكم صاحبها، والشقيق ناظرها، والشعب غنمها التي تحلب، وثمارها التي تؤكل،

وزرعها الذي يحصد! وأصبح الشقيق مصدر السلطات، يقيم الوزارات، و يسقط الوزارات، إذا غضب أقال، وإذا رضى أقام، وإذا أحب ملأ الجيوب، وإذا كره خرب البيوت.

وتساءل الناس: أيعرف الحاكم الطيب ما يفعل شقيقه الجبار! أم أن يده اليمنى لا تعرف ما تفعل يده اليسرى! وانقسمت الدولة قسمين، فريق يؤكد انه يعلم وفريق يؤكد انه لايعلم، وإذا بهما الدكتور جيكل ومستر هايد، طيب وشرير، شريف ولص، إنهما رجل واحد باسمين! وحاكم بشخصيتين.

من هو؟

مدام رولان

سئل حكيم صيني: أتفضل أن يكون امبراطور الصين رجلا أم امرأة؟

فقال الحكيم: إذا كان الامبراطور رجلا حكمت النساء، وإذا كان امرأة حكم الرجال، فلهذا أفضل أن تحكم الصين امبراطورة.

وهذه السيدة الشابة اشتركت في حكم مصر زمنا، مع أنها لم تكن امبراطورة، ولا ملكة، ولا زوجة رئيس وزارة!

ولكنها شابة ذكية، كبيرة الآمال، واسعة المطامع، استطاعت أن تجعل من بيتها صالونا سياسيا خاصا يجمع الكبراء والوزراء، واستطاعت أن تفرض شخصيتها القوية على الضعفاء، وأن تمنح جزءا من روحها الشابة لهذه القلوب الهرمة، وأن تضيء هذه الأرواح المظلمة بقبس من حماستها! دفعت زوجها إلى الأمام فاندفع، ثم إلى الأمام فاندفع، ثم إلى الأمام أكثر.. فوقع!

كانوا يتنبأون بأنها قد تعلب دور مدام رولان، ومدام رولان من أعظم نساء فرنسا، أنشأت حزب الجيروند، وملأت القلوب حماسة، وجعلت من زوجها وزيرا!

من هي مدام رولان المصرية؟.. ومن هو رولان المصري؟

العريس والنعش

يريد أن يكون في المقدمة دائما ! في الأفراح هو العريس ، وفي الجنازات هو الجثة ! لايهمه إلا شخصه ، إذا أكل فالشعب يأكل ، وإذا جاع فالشعب يجوع ، إذا اغتنى فالشعب اغتنى ، وإذا افتقر فالشعب يموت من الجوع !

يعرف كل شيء حوله ، ولكنه راض عن نفسه ، أنانيته تجعله يحاول ألاّ يفهم ما كان يجب أن يفهم ! ذكي في كل ما يتعلق بشخصه ، يهوى الدمقس والحرير.

ولا يهمه بعد ذلك من أين جاء الدمقس والحرير !

لاينسى الاساءة و ينسى الإحسان ! يحني رأسه لكل من يركب ، ما دام يمضي به في طريق العيش الرغيد !

من هو؟

علي بابا والأربعون حرامي

هو علي بابا والاربعون حرامي معا ! ففيه من علي بابا شيمته وهيبته ، وفيه كفاءته وقدرته ، وفيه من الأربعين حرامي ما يستطيع هؤلاء أن يفعلوه ولم يفعلوه !

جريء ! لايخاف في جرأته العرف والقانون ، قادر على أن يحول الصحراء جنة ، على شرط أن يكون صاحبها ! لو أن الدولة أصبحت مزرعته لجعلها تنتج الذهب ، وتثمر الماس ! ولكن الدولة ليست مزرعته .. فلتكن المزرعة دولته ! وهو في هذه الفلسفة ينسى فيخلط بين الاثنتين ، ويمزج المزرعتين ، ويخلط المصلحتين .. وهو دائما الرابح .. وجميع العزب الخاسرة !

من هو علي بابا ؟

من هم الاربعون حرامي ؟!!

منسي بك

حاصر المجد هذا الرجل من كل الجهات ، فكان يلتقي به لو سار يمينا ، أو سار شمالا ، وكان لابد أن يجتمع به المجد لورجع إلى الوراء ، أومضى إلى الأمام .

ولكن الرجل خيب ظن المجد ، فحفر الأرض تحت قدميه ، واختفى في كهف مظلم سحيق ، قد يكون قبرا للمنسيين ، ولكنه ليس على كل حال ضريحا للخالدين .

كان هو الرجل القادم في عرف كل جهة ، كان المرشح لرئاسة كل وزارة ، ولكنه فقد رئاسة الوزارة ، وفقد الوزارة نفسها ، بل فقد الكرسي الذي كان يجلس عليه .

كان يظن أن في قدرة رجل واحد أن يكون محل ثقة جميع الجهات ، فيقدم باقة الزهور لكل قادم ، و يقدم نفس الباقة لكل ذاهب ، ويجعل نفسه مستشارا لكل زعيم ، و يكون «الثقة» لدى كل مسؤول .

ورقص الرجل على السلم ، ووزع القبلات بالعدل والقسطاس على الجميع ، كان يدير وجهه مع الدنيا ، و يغير أصدقاءه مع صدور المرسوم الملكي بتأليف الوزارة ، كان صديق الجديد وعدو القديم ، كان أول المهنيئين وأول المستقبلين وأول المكرمين ، كان ترمومتر الوزارة .. ضعيفا مع القوي ، قويا مع الضعيف ، صديقا للحكم القائم ، عدوا للحكم البائد أو الذي أوشك أن يبيد .

وأقبلت الدنيا على قوم وتنكرت لآخرين ، فأقبل مع الأيام وأدبر مع الأيام ، وأشرقت الشمس ذات يوم ، وإذا به ينسى كل من أحسن إليه وإذا به يرفع قناعه فجأة ، و يلعن الآلهة القدماء ليسبح باسم الإله الجديد .

وكان الرجل يظن أن الإله الجديد سيرحب بالكاهن الأكبر ، وسيفتح له المعابد يصلي له ، و يهتف باسمه ، كما كان يفعل مع الأصنام التي حطمتها الأيام .

ولكن الإله الجديد قال : إن الذي خان من أحسن إليه بالأمس سيخونني في الغد ، ولن أقبل في معبدي كاهنا دخل في كل دين وسجد لكل صنم ، وحطم كل صنم ، وألقى المجد نظرة على بقايا الرجل .. وسقطت من عينه دمعة .. ومضى المجد في

طريقه تاركا بقايا الرجل في حفرة المنسيين .

من هومنسى بك ؟

السمسار

يتدحرج إلى أعلى ، فإن في الأوضاع المقلوبة يهوى الرجل إلى فوق ، و يرتفع إلى الحضيض .. وعندما ينحل مجتمع تصبح الأرض سماءه ، والهاوية مبتغاه ، والهوان أسمى درجات علاه .

والناس في عجب من صاحبنا كيف ارتفع ؟ ولو أنهم فكروا قليلا لعرفوا أنه هوى ، والسقوط لايحتاج إلى همة ، ولا إلى ذمة .. فالذي يظن أن المجتمع الفاسد علا وارتفع ، واهم في ظنه ، لأنه في الحقيقة سقط و وقع .

رضى من المجد أن يكون سمساره ، والمجد في عرفه ليس الأمجاد المتعارف عليها ، فالصفقات مجد يسعى إليه ، والرشاوى خلود يستحق العرق والدم والدموع ، وتقديم صديقه لكبير لايقل أهمية عن تعيين كبير أو تنزيل وزير .

ورضى من كل صفقة أن تكون له فيها نسبة تتضاءل وتعلو ، بتضاؤل قيمتها أو ارتفاع مكسبها .. لايرفض الصفقة مهما تفهت ، ومهما كبرت .. فهو ديمقراطي في السمسرة .. أرستقراطي في القبض ، يعرف أن وظيفة السمسار ضرورية للبائع والمشترى ، فلولا السمسار ما استطاع البائع أن يقبض ، ولا جرؤ المشترى على أن يدفع ولهذا أصبح لازما لايستغنى عنه في كل عملية وفي كل صفقة .. وفي كل بيع وشراء .

والعجيب أن الناس يكرهون السمسار ، البائع يمقته ، والمشتري يكرهه ، ومع ذلك فهو همزة الوصل بين الاثنين .. لولاه ما كان بيع ولا شراء .

من هو السمسار ؟

معزى هانم

إن للخرفان سوقا في هذه الأ يام، فالخروف يجد طريقه إلى موائد العظماء، وإلى حفلات الكبراء، وهو صدر قائمة الطعام، وهو دليل التكريم في الترحيب بكل عظيم.

وهي تحب أن تكون مع العظماء والكبراء، وأن تحضر مآدبهم، وتغشى حفلا تهم، وتتمتع بحياتهم، فلم تجد خيرا من أن تسير في صحبة حمل من الحملان، وما دام لابد من جواز المرور هذا.. فلا مانع من «الجواز».

وما لبثت أن فتحت لها الأ بواب، وأتيحت لها الفرص وارتفعت من سكنى الدور إلى سكنى القصور، واستبدلت بالنحاس والزجاج ذهبا والماسا، وشعرت بأن الحياة الاجتماعية كالبحر لا تطفو عليه إلا الأعشاب.. وان مبادىء الأخلاق كالكلاب تمنع من دخول مجتمعات العظماء.. ومع الأ يام أحست أن من حق الخروف أن يكبر فيصبح ذئبا يأكل باقي الخراف، ومع الأ يام طمعت في أن يكبر الذئب فيصبح أسدا يأكل الذئاب.. وما لبثت أن نسيت أنها كانت معزى هانم.. ولم تعد تذكر إلا أنها مدام أسد.

و بدأت تعامل الناس كما يعامل الأسود الذئاب والكلاب.

تأكل الصغير.. وتدوس الكبير، وتستطيع بحكم جواز المرور الذي تحمله أن تدخل كل مكان.. وتصرع كل إنسان.

من هي معزى هانم؟

العبقري القرفان

يبرق نوره في الوزارة، ويخبو خارج الوزارة.

بعض الناس لايظهرون إلا إذا جلسوا على الكرسي.. لعل فيه كهر باء تنعكس عليهم، أو لعلهم أقزام لايستطيعون أن يظهروا إلا إذا وقفوا على شيء ما.. وصاحبنا

هذا ليس قزما .. إنه عملاق .. ولكنه عملاق كسلان أو قرفان، ابتعد عن كل شيء وهو الرجل القادر على أن يصنع كل شيء .. عف عن المنصب الكبير ورفض الشركات الكبيرة، وأبى أن يسير في طابور المنافقين أو يكون من عصابة المستغلين، يرفض أن يكون مصلحا و يأبى أن يكون عسكري بوليس لأنه كسلان .

كان في إمكانه أن يكون صبي زعيم .. ثم عرف أنه لكي يحقق ذلك، يجب أن يكون أولا صبي الحريم .. ورضي من الغنيمة بالإياب، واعتكف عن الناس واكتفى بأن يقول : « إن الحال هباب » .

قالوا إنه « تصوف » .. وهو تصوف سياسي في دنيا تعبد اللص المستغل .. وتكفر بالشريف .. المعتزل .

من هو العبقري القرفان الكسلان ؟

كان دكتاتورًا

حكم وهو في الرابعة والثلاثين، وأراد ان يكون ندّا لسعد زغلول، فخذلته الأيام .. كان يعيّن الوزراء و يعزل الوزراء وكان رئيس الوزراء في جيبه يخرجه حين يشاء، ويخفيه متى يريد .

وجنى عليه شبابه .. فلم يلبث أن جرفه التيار، وأصبح خروجه من منصبه أمنية الشعب، مثل أمنية الدستور أو الاستقلال .

وخرج مغضوبا عليه من الجميع، وتضاءل الحزب الذي أنشأه، وانفض الأنصار حتى أصبحوا حفلة من الأصدقاء يودعونه حين سفره و يستقبلونه عند الإياب .

وكان من المنتظر أن تترك هذه الهزيمة المبكرة مرارة في نفسه، وأن يعكر عليه صفوه، خيال السلطة الذاهبة والمجد الغابر، ولكنه كان رياضيا فتلقى الهزيمة بابتسامة، وقضى خمسة عشر عاما غريبا عن بلده .. في وظائف السلك السياسي يتعلم و يدرس، و يكبر.

وظن أنه يستطيع أن يعود إلى السياسة من بابها الخلفي.. باب البنوك

والشركات، فيلعب بالأسهم كما كان يلعب بالسياسيين، و يرفع السندات ويخفض السندات كما كان يرفع ويخفض الوزراء ورؤساء الوزارات، ولكن ورق البنكنوت كان أقوى من الرجال، فكاد الورق يحطمه وهو الذي حاول أن يحطم الجبال.

إنه بدأ مبكرا، وانتهى مبكرا، من هو؟

مفتي القرية

اختار مكانه بعيدا عن الشعب، فلم يفهم الشعب، ولم يفهمه الشعب.. ولهذا كان يصنع بنفسه القيود التي يصفد بها الشعب.. فلا يتحرك، والكمامة التي توضع على فمه فلا ينطق، والعصبة التي يربطونها على عيني الشعب حتى لا يرى.

ولكنه كفاءة ممتازة، وعقلية قانونية جبارة، وكتاب حي للدستور، إذا فتحت القوانين المصرية وجدت في كل سطر من سطورها أثرا من أثاره.

أشتهر بين الناس بأنه يستطيع أن يحلل الحرام، ويحرم الحلال وأن يستخرج من القوانين غير المقصود من القوانين، وهي كفاءة على كل حال.

زج بنفسه في السياسة ففشل، ولعل سر فشله أنه كان سياسيا في القانون.. وقانونيا في السياسة، ولو نزل قليلا عن ارستقراطيته الفكرية، ولو حاول أن يفهم الشعب لاحتفظ بمكانته.

ترك مصر إلى خارج مصر، فلمع وأشرق، وأصبح عالميا.. بعد أن كان عالما فقط.

اختفى اليوم من دنيا السياسة المصرية ولكنه سيعود يوما ما، لأن كفاءته لايمكن أن توارى في التراب.

من هو؟

حرامي الحلة

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : أضرب لي مثلا عن رجل يركل الذين رفعوه و يسيء إلى الذين خدموه، و يلدغ الذين أطعموه.

قال بيدبا الفيلسوف :

زعموا أن أحد الناس كان موظفا صغيرا ارتفع في غفلة الزمان حتى صار من كبار صغار الموظفين، وتولى حاكم من الحكام الحكم فقرب الرجل الضئيل، ونفخ في جسمه الصغير، وحمله على كتفه ليعلو على سائر الناس، وكان صاحبنا فيه المزايا التي ترضى الكبراء، فهو غبي ليس فيه لمحة ذكاء، وجاهل ليس في رأسه ذرة من علم، ووصولي يضر الناس لينتفع، و يدس لهم ليتقرب، و يدوس عليهم ليرتفع، و يلطخهم بالسواد ليبدو سواده (بياضا) في العيون.

ومع كل هذه العيوب أحبه الحاكم، فقد كان ينحنى كرقم ٨ إذا رآه، وكان يقف ببابه كالفراشين والسعاة، وكان يعبده كإله، يصلى له في الصباح و يسبح بذكره في المساء.

وسقط الحاكم فإذا صاحبنا أول من يلعنه ، وآخر من يرحمه، وإذا الخنجر الذي طعن به صاحبه من صنعه، والحفرة التي تردى فيها من معوله، وإذا به يفخر بما فعل، و يتيه بما ارتكب.

وقال السياسيون إن هذه سياسة، والسياسة لا قلب لها ولا ضمير، ولا خلق فيها ولا وفاء، وان ما فعله برفعه من كادر صغار السياسيين إلى كادر كبار السياسيين.

وذات يوم ضبط صاحبنا وهو يسرق «حلة».

وظن الناس أنها نهاية «حرامي الحلة» ولكن «حرامي الحلة» نجا من العقاب.. واستطاع أن يخرج كالشعرة من العجين، وعجب الناس من أن حرامي الحلة لم يعاقب.. ومضت السنوات فعرف الناس الجواب على السؤال، ترّحموا على حرامي الحلة.. فقد أصبح من يسرق الحلة هو أشرف الشرفاء.. لأنهم رأوا غيره.. رأوا من يسرق المطبخ كله، ثم من يسرق الدار التي فيها المطبخ، ثم من يسرق المدينة

التي فيها الدار، ثم يسرق الدولة التي فيها المدينة، وأصبح الذي يسرق الحلة محتقرا.. والذي يسرق المطبخ مبتدئا، والذي يسرق الدار وضيعا، والذي يسرق المدينة لصا صغيرا لا احترام له في كادر اللصوص الكبار، إن «حرامي الدولة» لاحرامي الحلة، هو الذي أصبح يستحق التبجيل والاحترام.

هكذا مضى «حرامي الحلة» نسيا منسيا، لايذكره الناس إلا في معرض الحديث عن الرجال التافهين الذين يسرقون الحلل كما يسرق اللصوص من المبتدئين.

قال دبشليم الملك: هل هذه القصة حدثت في عالم الإنسان أم في عالم الحيوان؟

قال بيدبا الفيلسوف: إن الحشرات أصبحت توجد في عالم الإنسان أكثر مما توجد في عالم الحيوان.

من هو «حرامي الحلة» ومن هو «حرامي الدولة»؟

المظلوم

ما أشبهه ببواب في نادي قمار، الداخلون يحيونه، والخارجون يلعنونه، والناس يلقون عليه نظرة احتقار لأنه يحرس بيت القمار.

والرجل مظلوم تمر عليه الثروات فيقوم لها و يقعد، ويحييها و يودعها، ولكنه لا يراها ولا يلمسها، ويجلس أمام النادي كالعنوان أو اللافتة، فقد وضعوه هناك بغير ذنب اقترفه و بغير ربح جناه.

والناس يلومون اللافتة ولا يلومون صاحب نادي القمار، فهم يقسمون بأنه منذ وضعت اللافتة على البيت تحول من حرم مقدس إلى كباريه، ومن بيت كريم إلى دار فجور.

ولهذا فاللوم يقع عليها، ولا يقع على صاحب الدار.

ظلمه الذين لايعرفون.. والذين يعرفون أيضا، وكرهه الكاسبون والخاسرون، وحقد عليه المقربون والمبعدون، فالذين كسبوا لم يكفهم ما كسبوه، والذين خسروا

قالوا إن وجهه «نحس» وإنه كالغراب على الباب.. يمنع الخير من الدخول.. بل إنه هو الذي كتب «ممنوع الدخول».

كل ما جناه هو البقشيش الصغير، ولكن حتى البقشيس قاسمه فيه صاحب نادي القمار فصاحب النادي لايقنع بمكاسبه الكبيرة، فهوينزل إلى مقاسمة الصغار، وهو يوهم الزبائن أن الذي يسرقهم هو البواب الذي يقف بالباب.. وليس اللص الكبير الذي ينتظرهم داخل الباب.

والبواب مكروه من الذين يلعبون القمار والذين لايلعبون، محسود من جميع بوابي الحي الذين يعتقدون أنه هو الذي يسرق الزبائن دون سواه، وهو ممقوت من أنصار الفضيلة الذين يطالبون بمنع القمار.

والبواب المظلوم يسمع التهم و يتحسر، لو تكلم فقد منصبه ولو سكت فقد رأسه، واللعنات تنصب عليه من الكاسبين والخاسرين.. ومن صاحب نادي المقامرين.

من هو؟

أضعف الأقوياء

أعطاه الله كل شيء.. المال والمجد واللقب والمنصب والعمر الطويل.. ولكنه يسترضى الكبير والصغير، ليس موظفا يطلب ترقية، ولا فقيرا يطلب مالا، ولا خاملا يطلب مجدا بين الناس.

ليس له ولد، ولا بنت، وليس عليه ديون يرغب في سدادها، وليس له مستقبل.. ولكنه يتصرف كالبائس المسكين الذي يحتاج لكل إنسان، و يتزلف إلى كل كبير وصغير، ويحرص على كل قرش ومليم.

كان يستطيع أن يلعب دورا كبيرا، فمكانته وتجاربه واسمه ولقبه، كانت كلها تجعله الرجل الذي يفرض نفسه على الموقف، يحتكم إليه المتخاصمون، و يوفق بين المختلفين، وتكون له كلمة الفصل في الظرف العصيب.. ولكنه يتقدم و يتراجع

ويخطو خطوة، و يرجع خطوتين، و يفتح فمه و يظن الناس انه سيتكلم فإذا به يتثاءب.

من هو؟

سياسي من الصحراء

كان رجل الثورة، فأصبح رجل السياسة.. كان جنديا في الصحراء يحارب و يهاجم و يقطع الطريق، ثم أصبح رجل الصالون يفاوض ويحادث و ينحني و يقبّل أيدي السيدات.

اعرابي.. فيه من الاعراب مزاياهم وعيوبهم.

بوهيمي في حياته الخاصة، يستطيع أن يعيش بألف جنيه في الشهر، و يستطيع أن يعيش بجنيهين في الشهر دون أن يتغير ودون أن يشعر الناس بأنه أغتنى أو أنه افتقر.. تخصص في الهزائم، كل معركة دخلها هزم فيها، ومع ذلك يحارب.

يتصور «النبوت» الذي في يده مدفعا، فيصوبه ولا ينطلق، و يدعو الناس إلى الإيمان بقوته الخارقة وبمدفعه المميت والناس يلومونه على أنه يحارب بالنبوت و يتوهم هو أنه قنبلة ذرية، لو أنه لوّح بالنبوت فقط، ولو أنه قلل من الصراخ والتهديد والوعيد، ولو أنه اكتفى من الحرب بالكلام لبقى فارس كل ميدان.

رجل خيالي.. كثير الأحلام.. ولعل هذا من حسن حظه، فإن من يغمض عينيه هو أسعد الناس.. سر تعاسته أن الناس يفتحون عيونهم فيرونه يحلم.

من هو؟

شماعة الأخطاء

ليس رجلا رديئا كما يظن الناس، وليس رجلا طاغية كما يصوره خصومه و يلطخونه بالوحل والطين، له أخطاء كثيرة، وهو معذور لأنه لا ذنب له في كثير منها، ولكن لا عذر له في سكوته عليها، يستطيع أن يلعب دورا، ولكنه يتقدم ثم

يتأخر، و يقدم يوما ويحجم أياما، يجيد التراجع، والانجليز يسمون معركتهم «التراجع للانتصار».. فهل ينتصر؟ حكم يوما، ولكنه كان محكوما أكثر منه حاكما، وجد نفسه في ظروف تعسة فكان تعسا.

اطمأن إلى الخائنين، وتحالف مع الغادرين.. وظن أنه أذكى من أن يغدروا به ويخونوه.. ولكنه وجد نفسه ذات يوم أول ضحية للغادرين الخائنين، يدفع ثمن أخطاء لم يرتكبها، و يلام على سياسة ليس هو صاحبها، ولكنه يظن أن الصمت يفيده، والسكوت يعيده، وأن الأيام ستدور، و ينسى أن أيام السياسة إذا لم يدرها الرجال دارت بالرجال.

وهو بلا شك قد أدى خدمة كبرى، فإنه كان «المصفاة» التي تعلقت فيها الأقذار.. وكان «الجندي المجهول» الذي تبرع بأن يكون «شماعة» تعلق عليها أخطاء غيره، ولكن الشماعة سقطت تحت ثقل الأخطاء.

وعزاء الرجل أن كل الذين حاربوه ليخرج من منصبه كانوا أول ضحية هذا الخروج، وانه بيع بالثمن.. وكان الثمن كبيرا لأن الصفقة كانت كبيرة.

له مواقف طيبة، رفض طلبات، وأبى وساطات، وحارب مساومات ولكنه تعلم أن يصمت وهو رجل الكلام، كان طاووسا ورضى لنفسه أن يرتدي ثوب الغراب، فلم يستطيع أن يكون طاووسا ولا غرابا، كان ثائرا وتعلم السكوت، خلق للشارع وظن أنه يصلح لحياة القصور، ورضى بالجلوس في غير مكانه، ولو أنه بقى مع الشعب لما تنكر له الشعب، ولو أنه جعل معاركه في العلن لا في الخفاء لاستطاع أن يرتفع إلى السماء، ولو أنه انتقل من السياسة المحلية الصغيرة إلى دنيا السياسة الكبيرة لاستطاع أن يستعيد ما فقده، وأن يكسب الشعب الذي خسره، لو أنه تقدم لتأخر كثيرون. ولكنه تلقى من الشجاعة والجرأة دروسا ظالمة.. فظلم الشجاعة والجرأة.. وهما مظلومتان.

من هو شماعة.. باشا؟.

سياسي بوهيمي

رجل سياسي من الطراز الأ ول ، ومهارته في أنه يستطيع أن يبني أصناما ، يطلب من الناس أن يعبدوها ثم يحطمها فجأة دون مناسبة .

لو كتب التاريخ على حقيقته ، لعرف الناس أنه كان يلعب بالزعماء ، وكان بعضهم في يده كقطع الشطرنج ينقلها من مكان إلى مكان .. وكثيرا ما قال « كش الوزير» فكش الوزير.

ولكنه سياسي بوهيمي ، وكثيرا ما يسير في مقدمة موكب من المواكب والناس معجبة به مؤيدة له .. وفجأة تراه « يتشقلب » أمام الموكب أو يصفع أحد الزعماء على قفاه فيضحك الناس و« يبوظ الموكب » .

سره أنه يعرف النقط الضعيفة في الناس فيدخل منها ، يحدث العجوز عن شبابه ، و يثني على ذكاء الغبي و يوهم المنافق بأنه أخلص المخصلين ، وكل الناس يعرفون أنه رجل مقالب ، ولكنه مع ذلك يصدقونه .

نزل من اللعب الكبير إلى اللعب الصغير، ولعله وجد أن كل شيء في مصر قد انقلب رأسا على عقب .. فكان ضحية هذا « المقلب » .. فإذا به بين « الذيول » ومكانه بين الرؤوس .

من هو؟

طرطور

يحب أن يشتهر بين الناس بأنه « طرطور» و« شرابة خرج » وهو يعمل على توكيد ذلك في الأذهان ، فيتأخر دائما عن مكانه ، ويحرص على أن يختفي من كل مظاهرة و ينسحب بهدوء إذا أضيئت الأنوار .. وهو دائما ينسب الفضل في كل نجاح للآخرين .

ولعله وجد أن لافضل هناك وأن كل ما هناك رذائل .. فلتنسب للآخرين .

وهو يدعى أنه لا يفهم من مناورات الأحزاب إلا ما يقرأ في الصحف، ولا يعرف من الدبلوماسية إلا الإنحناء للكبراء، إنه يحب أن ينزل إلى منصب الباشكاتب فهي وظيفة ضئيلة ترضيه.. أما الوظائف الكبرى فهي في حاجة إلى رجال كبار.

ولكنه في الواقع تنكر في هذا الزي، فليس هذا شأنه ولا حقيقته، بل إنني لا أبالغ إذا وضعته في طبقة السياسيين الأكفاء، فهو ذكي وسياسى، ووطنى، وقبل كل هذا رجل شريف، ومع ذلك يبدو في ثوب من لا يعرف السياسة، ولا يفهم الوطنية، وأبعد الناس عن الدهاء.. والمترودوتيل في صالة رقص تذبح فيها الفضيلة كل مساء.

إذا شاء أن يرفع الستار، عرف الناس الأدوار الهامة التي لعبها والتي حاول أن يلعبها.. وكيف أنه اضطر إلى إقرار مالا يرضاه وقبول ما يأباه.

وهو ناجح كموظف في منصبه وإن كان هذا النجاح يعد فشلا في نظر بعض الناس، الذين يريدون منه أن يخلق من «الفسيخ شربات».. ومن الفساد حكم التقوى والصلاح.

هو حارس وديدبان، وضعوه ليحرس البنك، ولا ذنب عليه إذا كان الذين يسرقون البنك من داخل البنك نفسه، المديرين والصرافين والكتاب.

ولهذا فالناس يقولون إنه طرطور.. كان المفروض في حارس البنك الذي يمنع دخول اللصوص من الخارج، أن يقبض على مديري المصرف و يقول للناس: هؤلاء هم اللصوص.

من هو الطرطور؟

نبي في وطنه

رجل نظيف ولهذا يكرهه القذرون.

رجل صريح في وقت يعتقد الناس فيه أن السياسة هي اللف والدوران.

رجل مستقيم في وسط كله نفاق وكذب ولعب وراء الستار.

ولهذا لا يفهمه أحد .. ولا يفهم هو أحدا.

قيل إن عيبه الوحيد أنه «أنظف مما يجب» ويحتفظ بكرامته أكثر مما يجب، وصريح أكثر مما يجب.

ولهذا حورب في كل عهد .. كان وزيرا مع الوفد فكرهه الوفديون، وكان وزيرا مع أعداء الوفد فكرهه أعداء الوفد.

وكان في منصب كبير فكرهه كل الناس لأنه رفض أن يجعل وظائف الدولة «عزبة» للأقارب والأصهار والأنصار.

كان خاله زعيما وأبوه زعيما وعمه زعيما أيضا.

لايصلح لأن يلعب دورا في السياسة، في حالتها الراهنة إلا إذا أردنا أن ننظف السياسة من أوساخها المتراكمة، ومن جراثيمها المتفشية.. وما دمنا لانريد ذلك فأصلح منصب له هو رئيس محكمة النقض والابرام.

هو نبي في وطنه .. ولكن عيبه أنه رأى القذارة تعلو الكبار، فظن أنها تغطي الصغار.. ظلم الذين أحبوه، وحكم على أبرياء بالإعدام بغير أن يسمع منهم كلمة دفاع، لقد صدق أذنيه وكذب قلبه، رأى الدنيا تذخر باللصوص فظن أن كل من فيها قاطع طريق.

من هو النبي .. الغريب في وطنه؟

صانع التمثال ومحطم التمثال

كفاءته منقطعة النظير.. لولا عقبة واحدة لكان هو الرجل الأول، هي عقبة من صنع الله .. ولله، تعود أن يركب فما أن نزل من فوق الحصان حتى ظن أن كل من يراه حصاناً يصلح للركوب، صنع الصنم وحطمه، جعل الحجر يتكلم، والجماد يتحرك.

واعجب الناس بجمال التمثال، وسجد للصنم كثيرون، عبدوه وقدسوه، ثم

أراد صانع الصنم أن يجعل نفسه صنما ففشل.

يصنع المعجزات ولا يستطيع هو أن يكون معجزة، يؤلف الألحان ولا يستطيع أن يغنيها، ذلك أنه رجل ثان ممتاز.

رجل يركب القزم فيجعله عملاقا، ولكنه لايستطيع أن يعمل مع عمالقة، أو يحمل على رأسه عمالقة.

تعود أن يركب و يقود.. ولم يتعود أن يسير في الصفوف، حطم صنمه بيده.. وتحطم الصنم ولكن بقى المعول في يده يحطم به كل شيء..حتى نفسه.

ولكنه لم ينته، إن المثال في اجازة، و يستطيع أن يعود لو أراد، لو اقتنع بأن الحصان الذي ركبه فيما مضى كان حمارا، ودولة الحمير إلى زوال.

خير له أن ينسى أنه كان الرجل الأول.. وأن يذكر أنه المثال الأول.

كليمنصو مصري، يردد قول كليمنصو المشهور: سياستى الداخلية هي: أن أحارب، وسياستى الخارجية هي أن أحارب، وليست لى سياسة غير ذلك، وسأظل أحارب إلى أن أموت.

من هو؟



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

كتب للمؤلف

• أمريكا الضاحكة

حياة طالب مفلس في أمريكا

الطبعة الأولى سنة ١٩٤٣ ــ (نفدت).

الطبعة الثانية سنة ١٩٤٣ ــ (نفدت).
الطبعة الثالثة سنة ١٩٤٤ ــ (نفدت).

• فاطمة

مثلتها للسينما أم كلثوم وأنور وجدي سنة ١٩٤٧.

• عمالقة وأقزام

ساسة مصر قبل الثورة.
سنة ١٩٥١ ــ (نفدت).

• ليالي فاروق

قصة حياة الملك السابق

الجزء الأول سنة ١٩٥٤ ــ (نفدت).
الجزء الثاني سنة ١٩٥٤ ــ (نفدت).

• معبودة الجماهير

الطبعة الأولى سنة ١٩٦١ ــ (نفدت).

مثلها للسينما عبدالحليم حافظ وشادية.

● **صاحبة الجلالة في الزنزانة**

قصة الصحافة المصرية في الأغلال والصراع بين الصحافة والطغيان.

الطبعة الأولى سنة ١٩٧٤ ــ (نفدت).

الطبعة الثانية سنة ١٩٧٤ ــ (نفدت).
الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٥.

● **سنة أولى سجن**

الطبعة الأولى سبتمبر ١٩٧٤ — (نفدت).
الطبعة الثانية ديسمبر ١٩٧٤ — (نفدت).
الطبعة الثالثة يناير ١٩٧٥ — (نفدت).
الطبعة الرابعة فبراير ١٩٧٥ — (نفدت).
الطبعة الخامسة مايو ١٩٧٥ — (نفدت).
الطبعة السادسة يناير ١٩٧٨.
الطبعة السابعة أبريل ١٩٨١.

● **الكتاب الممنوع**

أسرار ثورة ١٩١٩.

الطبعة الأولى ١٩٧٤ ــ (نفدت).
الطبعة الثانية ١٩٧٥.

● **سنة أولى حب**

يناير ١٩٧٥.
مثلها للسينما محمود ياسين ونجلاء فتحي.

● ست الحسن

الطبعة الأولى ١٩٧٦ — (نفدت).
الطبعة الثانية ١٩٨١.

● من واحد إلى عشرة

الطبعة الأولى ١٩٧٧.
الطبعة الثانية ١٩٨١.

● سنة ثانية سجن

الطبعة الأولى ١٩٧٧.

● سنة ثالثة سجن

الطبعة الأولى ١٩٧٨.

● لا..

الطبعة الأولى ١٩٧٧.

● لكل مقال أزمة

الطبعة الأولى ١٩٧٩.

● الـ ٢٠٠ فكرة

الطبعة الأولى ١٩٧٩.

● تحيا الديمقراطية

الطبعة الأولى ١٩٨٠.

● من عشرة لعشرين

الطبعة الأولى ١٩٨١.

● صاحب الجلالة الحب

الطبعة الأولى ١٩٨٠.

● من فكرة لفكرة (الجزء الأول)

الطبعة الأولى ١٩٨٣.

● من فكرة لفكرة (الجزء الثاني)

الطبعة الثانية ١٩٨٤.

● مسائل شخصية

الطبعة الأولى ١٩٨٤.

إصدارات: تهامة للنشر والمكتبات

سلسلة: الكتاب العربي السعودي

صدر منها:

العنوان	المؤلف
● الجبل الذي صار سهلا (نفد)	الأستاذ أحمد قنديل
● من ذكريات مسافر	الأستاذ محمد عمر توفيق
● عهد الصبا في البادية (قصة مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
● التنمية قضية (نفد)	الدكتور محمود محمد سفر
● قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا (نفد)	الدكتور سليمان بن محمد الغنام
● الظمأ (مجموعة قصصية)	الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
● الدوامة (قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
● غداً أنسى (قصة طويلة) (نفد)	الدكتورة أمل محمد شطا
● موضوعات اقتصادية معاصرة	الدكتور علي بن طلال الجهني
● أزمة الطاقة إلى أين؟	الدكتور عبدالعزيز حسين الصويغ
● نحو تربية إسلامية	الأستاذ أحمد محمد جمال
● إلى ابنتي شيرين	الأستاذ حمزة شحاتة
● رفات عقل	الأستاذ حمزة شحاتة
● شرح قصيدة البردة	الدكتور محمود حسن زيني
● عواطف إنسانية (ديوان شعر) (نفد)	الدكتورة مريم البغدادي
● تاريخ عمارة المسجد الحرام (نفد)	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
● وقفة	الدكتور عبدالله حسين باسلامة
● خالتي كدرجان (مجموعة قصصية) (نفد)	الأستاذ أحمد السباعي
● أفكار بلا زمن	الأستاذ عبدالله الحصين
● كتاب في علم إدارة الأفراد (الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
● الإبحار في ليل الشجن (ديوان شعر)	الأستاذ محمد الفهد العيسى
● طه حسين والشيخان	الأستاذ محمد عمر توفيق
● التنمية وجها لوجه	الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
● الحضارة تحد (نفد)	الدكتور محمود محمد سفر
● عبير الذكريات (ديوان شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
● لحظة ضعف (قصة طويلة)	الأستاذ فؤاد صادق مفتي
● الرجولة عماد الخلق الفاضل	الأستاذ حمزة شحاتة
● ثمرات قلم	الأستاذ محمد حسين زيدان
● بائع التبغ (مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ حمزة بوقري
● أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة (تراجم)	الأستاذ محمد علي مغربي
● النجم الفريد (مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
● مكانك تحمدي	الأستاذ أحمد محمد جمال
● قال وقلت	الأستاذ أحمد السباعي
● نبض	الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
● نبت الأرض	الدكتورة فاتنة أمين شاكر

الكتاب		المؤلف
• **السعد وعد**	(مسرحية)	الدكتور عصام خوقير
• **قصص من سومرست موم**	(مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• **عن هذا وذاك**	(الطبعة الثالثة)	الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
• **الأصداف**	(ديوان شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
• **الأمثال الشعبية في مدن الحجاز**	(الطبعة الثانية)	الأستاذ أحمد السباعي
• **أفكار تربوية**		الدكتور ابراهيم عباس نتو
• **فلسفة المجانين**		الأستاذ سعد البواردي
• **خدعتني بحبها**	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عبدالله بوقس
• **نقر العصافير**	(ديوان شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
• **التاريخ العربي وبدايته**	(الطبعة الثالثة)	الأستاذ أمين مدني
• **المجاز بين اليمامة والحجاز**	(الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالله بن خميس
• **تاريخ الكعبة المعظمة**	(الطبعة الثانية)	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
• **خواطر جريئة**		الأستاذ حسن بن عبدالله آل الشيخ
• **السنيورة**	(قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
• **رسائل إلى ابن بطوطة**	(ديوان شعر)	الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
• **جسور إلى القمة**	(تراجم)	الأستاذ عزيز ضياء
• **تأملات في دروب الحق والباطل**		الشيخ عبدالله عبدالغني خياط
• **الحمى**	(ديوان شعر) (الطبعة الثانية)	الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
• **قضايا ومشكلات لغوية**		الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار
• **ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة**		الأستاذ محمد علي مغربي
• **زيد الخير**		الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي
• **الشوق إليك**	(مسرحية شعرية)	الأستاذ حسين عبدالله سراج
• **كلمة ونصف**		الأستاذ محمد حسين زيدان
• **شيء من الحصاد**		الأستاذ حامد حسن مطاوع
• **أصداء قلم**		الأستاذ محمود عارف
• **قضايا سياسية معاصرة**		الدكتور فؤاد عبدالسلام الفارسي
• **نشأة وتطور الإذاعة في المجتمع السعودي**		الأستاذ بدر أحمد كريم
• **الإعلام موقف**		الدكتور محمود محمد سفر
• **الجنس الناعم في ظل الإسلام**		الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
• **ألحان مغترب**	(ديوان شعر) (الطبعة الثانية)	الأستاذ طاهر زمخشري
• **غرام ولّادة**	(مسرحية شعرية) (الطبعة الثانية)	الأستاذ حسين عبدالله سراج
• **سير وتراجم**	(الطبعة الثالثة)	الأستاذ عمر عبدالجبار
• **الموزون والمخزون**		الشيخ أبوتراب الظاهري
• **لجام الأقلام**		الشيخ أبوتراب الظاهري
• **نقاد من الغرب**		الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
• **حوار.. في الحزن الدافيء**		الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
• **صحة الأسرة**		الدكتور زهير أحمد السباعي
• **سباعيات**	(الجزء الثاني)	الأستاذ أحمد السباعي
• **خلافة أبي بكر الصديق**		الشيخ حسين عبدالله باسلامة
• **البترول والمستقبل العربي**	(الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالعزيز مؤمنة
• **إليها ..**	(ديوان شعر)	الأستاذ حسين عبدالله سراج
• **من حديث الكتب**	(ثلاثة أجزاء) (الطبعة الثانية)	الأستاذ محمد سعيد العامودي

العنوان	ملاحظة	المؤلف
• أيامي		الأستاذ أحمد السباعي
• التعليم في المملكة العربية السعودية	(الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
• أحاديث وقضايا إنسانية		الدكتور عبدالرحمن بن حسن النفيسة
• البعث	(مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد علي مغربي
• شمعة ظمأى	(ديوان شعر)	الدكتور أسامة عبدالرحمن
• الإسلام في نظر أعلام الغرب	(الطبعة الثانية)	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
• حتى لا نفقد الذاكرة		الأستاذ سعد البواردي
• مدارسنا والتربية	(الطبعة الثالثة)	الأستاذ عبدالواهاب عبدالواسع
• وحي الصحراء	(الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالله بلخير الأستاذ محمد سعيد عبدالمقصود خوجه
• طيور الأبابيل	(ديوان شعر) (الطبعة الثانية)	الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
• قصص من تاغور	(ترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• التنظيم القضائي في المملكة العربية السعودية	(الطبعة الثانية)	الأستاذ حسن بن عبدالله آل الشيخ
• زوجتي وأنا	(قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
• معجم اللهجة المحلية في منطقة جازان		الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي
• لن تلحد		الشيخ أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري
• عمر بن أبي ربيعة	(الطبعة الثانية)	الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
• رجالات الحجاز	(تراجم)	الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
• حكاية جيلين		الدكتور عبدالله حسين باسلامة
• من أوراقي		الأستاذ محمد سعيد العامودي
• الإسلام في معترك الفكر		الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
• في رأيي المتواضع		الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
• العالم إلى أين والعرب إلى أين ؟		الدكتور بهاء بن حسين عزي
• البرق والبريد والهاتف وصلتها بالحب والأشواق والعواطف		الأستاذ عبدالرحمن المعمر
• محمد سعيد عبدالمقصود خوجة	(حياته وآثاره)	الدكتور محمد بن سعيد بن حسين

تحت الطبع :

العنوان	ملاحظة	المؤلف
• إليكم شباب الأمة		الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
• ديوان حسين عرب		الأستاذ حسين عرب
• خواطر مجنحة		الأستاذ محمد حسين زيدان
• ماما زبيدة	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عزيز ضياء
• وجيز النقد عند العرب		الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
• هكذا علمني ورد زورث		الشيخ أبوعبدالرحمن بن عقيل الظاهري
• الطاقة نظرة شاملة		الدكتور عبدالهادي طاهر
• لا رق في القرآن		الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
• من مقالات عبدالله عبدالجبار		الأستاذ عبدالله عبدالجبار
• جزء من حلم		الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
• التنمية قضية	(الطبعة الثانية)	الدكتور محمود محمد سفر
• قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا التوسعية	(الطبعة الثانية)	الدكتور سليمان بن محمد الغنام
• غداً أنسى	(قصة طويلة) (الطبعة الثانية)	الدكتورة أمل محمد شطا
• تاريخ عمارة المسجد الحرام	(الطبعة الثانية)	الشيخ حسين عبدالله باسلامة

- الحضارة تحد (الطبعة الثانية) — الدكتور محمود محمد سفر
- الجبل الذي صار سهلا (الطبعة الثانية) — الأستاذ أحمد قنديل
- خالتي كدرجان (مجموعة قصصية) (الطبعة الثانية) — الأستاذ أحمد السباعي

سلسلة: الكتاب الجامعي

صدر منها:

- الإدارة: دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الإدارية — الدكتور مدني عبدالقادر علاقي
- الجراحة المتقدمة في سرطان الرأس والعنق (باللغة الإنجليزية) — الدكتور فؤاد زهران و الدكتور عدنان جمجوم و الدكتور محمد عيد
- النمو من الطفولة إلى المراهقة (الطبعة الثالثة) — الدكتور محمد جميل منصور و الدكتور فاروق سيد عبدالسلام
- الحضارة الإسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا — الدكتور عبدالمنعم رسلان
- النفط العربي وصناعة تكريره — الدكتور أحمد رمضان شقلية
- الملامح الجغرافية لدروب الحجيج — الأستاذ سيد عبدالمجيد بكر
- علاقة الآباء بالأبناء (دراسة فقهية) (الطبعة الثانية) — الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
- مباديء القانون لرجال الأعمال (الطبعة الثانية) — الدكتور محمد ابراهيم أبوالعينين
- الاتجاهات العددية والنوعية للدوريات السعودية — الأستاذ هاشم عبده هاشم
- قراءات في مشكلات الطفولة (الطبعة الثانية) — الدكتور محمد جميل منصور
- شعراء التروبادور (ترجمة) — الدكتورة مريم البغدادي
- الفكر التربوي في رعاية الموهوبين — الدكتور لطفي بركات أحمد
- النظرية النسبية — الدكتور عبدالرحمن فكري و الدكتور محمد عبدالهادي كامل
- أمراض الأذن والأنف والحنجرة (باللغة الإنجليزية) — الدكتور أمين عبدالله سراج و الدكتور سراج مصطفى زقزوق
- المدخل في دراسة الأدب — الدكتورة مريم البغدادي
- الرعاية التربوية للمكفوفين — الدكتور لطفي بركات أحمد
- أضواء على نظام الأسرة في الإسلام — الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
- الوحدات النقدية المملوكية — الدكتور سامح عبدالرحمن فهمي
- الأدب المقارن (دراسة في العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوروبية) — الدكتور عبدالوهاب علي الحكمي
- هندسة النظام الكوني في القرآن الكريم — الدكتور عبدالعليم عبدالرحمن خضر
- التجربة الأكاديمية لجامعة البترول والمعادن — الدكتور خضير سعود الخضير
- مبادىء الطرق الإحصائية — الدكتور جلال الصياد و الدكتور عبدالحميد محمد ربيع
- مبادىء الإحصاء — الدكتور جلال الصياد و الأستاذ عادل سمرة
- المنظمات الاقتصادية الدولية — الدكتور حسين عمر

- التعلم الصفي — الدكتور محمد زياد حمدان

تحت الطبع :

- الاقتصاد الاداري — الدكتور فرج عزت
- الاقتصاد الصناعي — الدكتور سليم كامل درويش
- دراسات في الإعراب — الدكتور عبدالهادي الفضلي
- أحكام تصرفات السفيه في الشريعة الإسلامية — الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
- أحكام تصرفات الصغير في الشريعة الإسلامية — الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
- العلاقات الدولية — الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي

سلسلة : رسائل جامعية

صدر منها :

- صناعة النقل البحري والتنمية في المملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية) — الدكتور بهاء حسين عزّي
- الخراسانيون ودورهم السياسي في العصر العباسي الأول — الأستاذة ثريا حافظ عرفة
- الملك عبدالعزيز ومؤتمر الكويت — الأستاذة موضي بنت منصور بن عبدالعزيز آل سعود
- العثمانيون والإمام القاسم بن علي في اليمن (الطبعة الثانية) — الأستاذة أميرة علي المداح
- القصة في أدب الجاحظ — الأستاذ عبدالله باقازي
- تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف — الأستاذة فوزية حسين مطر
- النظرية التربوية الإسلامية — الأستاذة آمال حمزة المرزوقي
- نظام الحسبة في العراق.. حتى عصر المأمون — الأستاذ رشاد عباس معتوق
- المقصد العلي في زوائد أبي يعلي الموصلي (تحقيق ودراسة) — الدكتور نايف بن هاشم الدعيس
- الجانب التطبيقي في التربية الإسلامية — الأستاذة ليلى عبدالرشيد عطار
- الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية — الأستاذ نبيل عبدالحي رضوان
- دراسة ناقدة لأساليب التربية المعاصرة في ضوء الإسلام — الأستاذة فتحية عمر حلواني
- الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة المنورة في صدر الإسلام — الأستاذة نورة بنت عبدالملك آل الشيخ
- دراسة اثنوغرافية لمنطقة الاحساء (باللغة الانجليزية) — الدكتور فايز عبدالحميد طيب
- عادات وتقاليد الزواج بالمنطقة الغربية من المملكة العربية السعودية (دراسة ميدانية انثروبولوجية حديثة) — الأستاذ أحمد عبدالاله عبدالجبار
- افتراءات فيليب حتي وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي — الأستاذ عبدالكريم علي باز
- دور المياه الجوفية في مشروعات الري والصرف بمنطقة الإحساء بالمملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية) — الدكتور فايز عبدالحميد طيب
- تقويم النمو الجسماني والنشوء — الدكتورة ظلال محمود رضا
- العقوبات التفويضية وأهدافها في ضوء الكتاب والسنة — الدكتور مطيع الله دخيل الله اللهيبي
- العقوبات المقدرة وحكمة تشريعها في ضوء الكتاب والسنة — الدكتور مطيع الله دخيل الله اللهيبي

تحت الطبع :

- تطور الكتابات والنقوش في الحجاز منذ فجر الإسلام وحتى منتصف القرن الثالث عشر — الأستاذ محمد فهد عبدالله الفعر
- التصنيع والتحضر في مدينة جدة — الأستاذة عواطف فيصل بياري
- الطلب على الإسكان من حيث الاستهلاك والاستثمار — الدكتور فاروق صالح الخطيب
- تعليم اللغة الإنجليزية (باللغة الإنجليزية) — الاستاذ مأمون يوسف بنجر
- التحريف والتناقض في الأناجيل الأربعة — الأستاذة سارة حامد محمد العبادي



صدر منها :

- حارس الفندق القديم (مجموعة قصصية) — الأستاذ صالح ابراهيم
- دراسة نقدية لفكر زكي مبارك (باللغة الانجليزية) — الدكتور محمود الشهابي
- التخلف الإملائي — الأستاذة نوال عبدالمنعم قاضي
- ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية — إعداد إدارة النشر بتهامة
- ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودي (باللغة الانجليزية) — إعداد إدارة النشر بتهامة
- تسالي (من الشعر الشعبي) (الطبعة الثانية) — الدكتور حسن يوسف نصيف
- كتاب مجلة الأحكام الشرعية على مذهب الإمام أحمد بن حنبل الشيباني (دراسة وتحقيق) — الشيخ أحمد بن عبدالله القاري، الدكتور عبدالوهاب إبراهيم أبوسليمان، الدكتور محمد إبراهيم أحمد علي
- النفس الإنسانية في القرآن الكريم — الأستاذ إبراهيم سرسيق
- واقع التعليم في المملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية) (الطبعة الثانية) — الدكتور عبدالله محمد الزيد
- صحة العائلة في بلد عربي متطور (باللغة الإنجليزية) — الدكتور زهير أحمد السباعي
- مساء يوم في آذار (مجموعة قصصية) — الأستاذ محمد منصور الشقحاء
- النبش في جرح قديم (مجموعة قصصية) — الأستاذ السيد عبدالرؤوف
- الرياضة عند العرب في الجاهلية وصدر الإسلام — الدكتور محمد أمين ساعاتي
- الاستراتيجية النفطية ودول الأوبك — الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
- الدليل الأبجدي في شرح نظام العمل السعودي — الدكتور عاطف فخري
- رعب على ضفاف بحيرة جنيف — الأستاذ شكيب الأموي
- العقل لا يكفي (مجموعة قصصية) — الأستاذ محمد علي الشيخ
- أيام مبعثرة (مجموعة قصصية) — الأستاذ فؤاد عنقاوي
- مواسم الشمس المقبلة (مجموعة قصصية) — الأستاذ محمد علي قدس
- ماذا تعرف عن الأمراض ؟ — الدكتور اسماعيل الهلباوي
- جهاز الكلية الصناعية — الدكتور عبدالوهاب عبدالرحمن مظهر
- القرآن وبناء الإنسان — الأستاذ صلاح البكري
- اعترافات أدبائنا في سيرهم الذاتية — الأستاذ علي عبده بركات
- الطب النفسي معناه وأبعاده — الدكتور محمد محمد خليل
- الزمن الذي مضى (مجموعة قصصية) — الأستاذ صالح ابراهيم

الكتاب		المؤلف
مجموعة الخضراء	(دواوين شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
خطوط وكلمات	(رسوم كاريكاتورية) (الطبعة الثانية)	الأستاذ علي الخرجي
ديوان السلطانين		الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي
الامكانات النووية للعرب وإسرائيل		الدكتور صدقة يحيى مستعجل
رحلة الربيع		الأستاذ فؤاد شاكر
وللخوف عيون	(مجموعة قصصية)	أحمد شريف الرفاعي
البحث عن بداية	(مجموعة قصصية)	الأستاذ جواد صيداوي
الوحدة الموضوعية في سورة يوسف		الدكتور حسن محمد باجودة
المجنونة اسمها زهرة عباد الشمس	(ديوان شعر) (الطبعة الثانية)	الأستاذة منى غزال
من فكرة لفكرة	(الجزء الأول)	الأستاذ مصطفى أمين
رحلات وذكريات		الأستاذ عبدالله حمد الحقيل
ذكريات لا تنسى		الأستاذ محمد المجذوب
تاريخ طب الأطفال عند العرب		الدكتور محمود الحاج قاسم
مشكلات بنات		الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
دراسة في نظام التخطيط في المملكة العربية السعودية		الأستاذ يوسف ابراهيم سلوم
نفحات من طيبة	(ديوان شعر)	الأستاذ علي حافظ
الأسر القرشية.. أعيان مكة المحمية		الأستاذ أبو هشام عبدالله عباس بن صديق
الماء ومسيرة التنمية (في المملكة العربية السعودية		الأستاذ مصطفى نوري عثمان
الدليل لكتابة البحوث الجامعية		الدكتور عبدالوهاب ابراهيم أبوسليمان
القطار والحبل	(مجموعة قصصية) (الطبعة الثانية)	الأستاذ السيد عبدالرؤوف
المذاهب الأدبية في الشعر الحديث لجنوب المملكة العربية السعودية		الدكتور علي علي مصطفى صبح
مسائل شخصية		الأستاذ مصطفى أمين
مجموعة النيل	(دواوين شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري

تحت الطبع :

الكتاب		المؤلف
عام ١٩٨٤ لجورج أورويل	(قصة مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
سرايا الإسلام		الشيخ أبو تراب الظاهري
قراءات في التربية وعلم النفس		الأستاذ فخري حسين عزي / الدكتور لطفي بركات أحمد
الحجاز واليمن في العصر الأيوبي		الدكتور جميل حرب محمود حسين
ملامح وأفكار		الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
النظرية الخلقية عند ابن تيمية		الدكتور محمد عبدالله عفيفي
الكشاف الجامع لمجلة المنهل		الأستاذ عبدالله سالم القحطاني
ديوان حمام	(ديوان شعر)	الأستاذ محمد مصطفى حمام
رحلة الأندلس		الدكتور حسين مؤنس
فجر الأندلس		الدكتور حسين مؤنس
قريش والاسلام		الدكتور حسين مؤنس
الدفاع عن الثقافة		الدكتور عبدالعزيز شرف
الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث		الأستاذ علي مصطفى عبداللطيف السحرتي
مشكلات لغوية		الدكتور شوقي النجار
دليل مكة السياحي		اعداد تهامة للنشر والمكتبات

• في بيتك طبيب	الدكتور محمد عبدالله القصيمي
• مجموعة فاروق جويدة (دواوين شعر)	الأستاذ فاروق جويدة
• البسمات	الدكتور حسن نصيف
• نسيب الشريف الرضي: الحجازيات وقصائد أخر	الدكتور عاتكة الخزرجي
• الزكاة في الميزان	الدكتور محمد السعيد وهبة الأستاذ عبدالعزيز محمد رشيد جمجوم
• السبئيون وسد مأرب	الأستاذ محمود جلال
• من فكرة لفكرة (الجزء الثاني)	الأستاذ مصطفى أمين

سلسلة:

الكتاب العربي اليمني

تحت الطبع،

• من كوبنهاجن إلى صنعاء (ترجمة)	الأستاذ محمد أحمد الرعدي

كتاب للأطفال

صدر منها :

مجموعة : حكايات للأطفال — ينقلها إلى العربية الأستاذ عزيز ضياء

- سعاد لا تعرف الساعة
- الحصان الذي فقد ذيله
- تورتة الفراولة
- ضيوف نار الزينة
- الضفدع العجوز والعنكبوت
- الكؤوس الفضية الاثنتا عشر
- سرحانة وعلبة الكبريت
- الجنيات تخرج من علب الهدايا
- السيارة السحرية
- كيف يستخدم الملح في صيد الطيور

تحت الطبع

- الأرنب الطائر
- معظم النار من مستصغر الشرر
- لبنى والفراشة
- ساطور حمدان
- وأدوا الأمانات إلى أهلها
- سوسن وظلها
- الهدية التي قدمها سمير
- أبو الحسن الصغير الذي كان جائعا
- الأم ياسمينة واللص

مجموعة : لكل حيوان قصة — للأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- القرد
- الكلب
- السلحفاة
- الأسد
- الحمار الأهلي
- الفرس
- الغزال
- الوعل
- الضب
- الغراب
- الجمل
- البغل
- الفراشة
- الدجاج
- الحمار الوحشي
- الجاموس
- الثعلب
- الأرنب
- الذئب
- الفأر
- الخروف
- البط
- الببغاء
- الحمامة
- البوم
- البجع
- الهدهد
- الكنغر
- الخفاش
- النعام
- فرس النهر
- التمساح
- الضفدع
- الدب
- الخرتيت

مجموعة : حكايات كليلة ودمنة — إعداد : الأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- عندما أصبح القرد نجارا
- الغراب يهزم الثعبان
- أسد غررت به أرنب
- المكاء التي خدعت السمكات

تحت الطبع

- لقد صدق الجمل
- الكلمة التي قتلت صاحبتها
- سمكة ضيعها الكسل
- قاض يحرق شجرة كاذبة

مجموعة : التربية الإسلامية — للأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- الله أكبر
- قد قامت الصلاة
- الصـــوم
- الصدقات
- المسح على الخفين
- المسح على الجبيرة والعُصابة
- الصـــلاة
- الاستخارة
- صلاة الجنازة
- سجود التلاوة
- الزكاة
- زكاة الفطر
- صلاة المسبوق
- صلاة الجمعة
- صلاة الكسوف والخسوف
- زكاة النقدين
- زكاة بهيمة الأنعام
- زكاة العروض
- الشهادتان
- أركان الإسلام
- التيمم
- الوضـــوء

قصص متنوعة :

- الصرصور والنملة — الأستاذ عمار بلغيث
- السمكات الثلاث — الأستاذ عمار بلغيث
- النخلة الطيبة — الأستاذ اسماعيل دياب
- الكتكوت المتشرد — الأستاذ عمار بلغيث
- المظهر الخادع — الأستاذ عمار بلغيث
- بطوط وكتكت — الأستاذ اسماعيل دياب

كتاب الناشئين

صدر منها :

مجموعة:وطني الحبيب

- جدة القديمة — الأستاذ يعقوب محمد اسحق
- جدة الحديثة — الأستاذ يعقوب محمد اسحق

مجموعة:حكايات ألف ليلة وليلة

- السندباد والبحر — الأستاذ يعقوب محمد اسحق

- الديك المغرور والفلاح وحماره — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الطاقية العجيبة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الزهرة والفراشة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- سلمان وسليمان — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- زهور البابونج — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- سنبلة القمح وشجرة الزيتون — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- نظيمة وغنيمة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- جزيرة السعادة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الحديقة المهجورة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- اليد السفلى — الدكتور محمد عبده يماني

إعداد — الأستاذ يعقوب محمد اسحق

- عقبة بن نافع — الدكتور عبدالفتاح اسماعيل شلبي / الدكتور سعد اسماعيل شلبي

كتب صدرت باللغة الانجليزية

Books Published in English by *TIHAMA*

- **Surgery of Advanced Cancer of Head and Neck.**
  By: F.M. Zahran / A.M.R. Jamjoom / M.D.EED
- **Zaki Mubarak: ACritical Study.**
  By Dr. Mahmud Al Shihabi
- **Summary of Saudi Arabian Third Five Year Development Plan.**
- **Education in Saudi Arabia, A Model With Difference Second Edition.**
  By: Dr. Abdulla Mohamed A Zaid
- **The Health of the Family in A Changing Arabia.** (*Third Edition*)
  By Dr. Zohair A. Sebai
- **Diseases of Ear, Nose and Throat.**
  By: Dr. Amin A. Siraj / Dr. Siraj A. Zakzouk
- **Shipping and Development in Saudi Arabia.**
  By: Dr. Baha Bin Hussein Azzee
- **Tihama Economic Directory.**
- **Riyadh Citiguide.**
- **Banking and Investment in Saudi Arabia.**
- **A Guide to Hotels in Saudi Arabia.**
- **Who's Who in Saudi Arabia.**
- **An Ethnographic Study of Al-Hasa Region of Eastern Saudi Arabia.**
  By: Dr. Faiz Abdelhameed Taib.
- **The Role Of Groundwater In The Irrigation And Drainage Of The Al- Hasa Of Eastern Saudi Arabia.**
  By: Dr. Faiz Abdelhameed Taib
- **An Analysis Of The Effect Of Capitalizing Exploration And Development Costs In The Petroleum Industry-With Emphasis On Possible Economic Consequences In Saudi Arabia.**
  By: Muhiadin R. Tarabzune
- **An Evolving Typology Of Constructs Of Critical Thinking, Curriculum Planning And Decision Making In Teacher Education Programs Based On The Islamic Ideology.**
  The Case Of Saudi Arabia
  By: Ahmad Issam Al-Safadi

هذا الكتاب

أجمل ما في الدنيا هم الناس، متعتي الكبرى في هذه الحياة أن أعرف الناس، أن أعرفهم من الخارج والداخل، أن أدرسهم وأحبهم. أحببت الكثيرين ولم أكره أحدًا. كنت أعامل الذين يكرهونني كأنهم مرضى وأدعو لهم بالشفاء، وكنت أعطي عذرًا للطبيعة البشرية، وأعذر الفاشل الذي يحقد على الناجح، وأعذر الضعيف الذي يكره القوي، وأجد مبررًا للفئران عندما تمقت السباع!

وعرفت أقزامًا كالعمالقة وعمالقة كالأقزام، عرفت أقوامًا طوالًا عراضًا من خارجهم، وصغارًا متضائلين من داخلهم، عاشرت الملوك والصعاليك، وعرفت صعاليك لهم طباع الملوك وملوكًا لهم أخلاق الصعاليك. عشت مع النجوم في سمائها ورأيت حولها الشياطين أكثر من الملائكة، وعاشرت الفاشلين في جحورهم ومغاورهم وحفرهم ورأيت مواكب النصر تحف بها الطبول والزمور والهتافات والزغاريد، وشهدت مآتم الهزيمة تنهمر منها الدموع وعبارات الندم وأصوات البكاء والعويل.

من مقدمة المؤلف

نبذة عن حياة المؤلف في كتابه
«من ذكرة لفكرة» الجزء الأول سلسلة مطبوعات تهامة.